رواية

الأعمى

بقلم

رضا محمود

بلا أجنحة
الجزء الثالث

الأعمى

تأليف: رضا محمود

غلاف: مروة صلاح

إخراج فني: سالم عبدالمعز سواح

رقم الإيداع: 2023/3029

حواديت
Hawadeet

العنوان: المنوفية
جنزور- بركة السبع

حواديت للنشر والتوزيع :FACEBOOK
Haawadet@gmail.com

مدير النشر: محمود عمر
01005589273

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار حواديت للنشر والتوزيع ولا يجوز بأي صورة نشر، أو اقتباس، أو إعادة طباعة أي جزء من الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو كان، أو بأي طريقة سواء إلكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر.

الجزء الأول : بلا أجنحة 1

الجزء الثاني : بلا أجنحة 2

الجـــــزء الثالـــــث

الأعمى

رواية

بقلم

رضا محمود

المقدمـــة

من هو الأعمى؟ هل هو من فقد عينيه؟ هل هو الذي لا يعرف النور؟ ولا يعرف إلا الظلام؟ قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج : 46]

هذا هو العمى الحقيقي ،عمى البصيرة.

{۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الرعد : 19]

عمى البصر ينقضي بانقضاء الأجل. أما عمى البصيرة يعانيه صاحبه في الدنيا ويجني ثماره في الآخرة. قال تعالى:

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ} [طه :١٢٤، ١٢٥، 126]

فلا يستويان...

{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام : 50]

{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ} [فاطر : 19]

رضا محمود

(١) الصدمـــة

الشمس ساطعة يحد من لهيبها سحب مبعثرة في السماء ورياح خريفية رقيقة أقرب لنسيم عليل منها لرياح.

زملائه الطلبة يتحركون بهدوء منهم من يخرج ومنهم الداخلون. البعض جالسون يتذاكرون وآخرون يتمازحون أو يتهامسون.

أما هاني فأسرع الخطى متوترا يشق طريقة بين زملائه بعصبية وهو يتخيل مدربه (عادل) وهو يوبخه على تأخره على موعد تدريبه . تجاوز بوابة الجامعة وعبارات التقريع المتوقعة تصك أذنيه.

بدت الرؤية مشوشة والصداع يضرب جانب رأسه . انطلق في الطريق الموازي لسور الجامعة ثم توقف في محطة الحافلات و .... الصداع يتزايد . أغمض عينيه من شدة الألم ورفع يده إلى موضع الألم يشعر أنه ليس مجرد صداع إن جانب رأسه تلقى صدمة عنيفة. وكأن هناك دماء متجلطة على جانب رأسه وجانب جبهته الأيمن.

- هاني .. هيا.... إفطارك جاهز ستتأخر على جامعتك.

فتح عينيه مندهشا .إنه في حجرته على فراشه , وأمه تناديه . اعتدل مندهشا, هل كان يحلم؟

فتح باب حجرته وأخته منار طالبة الثانوية العامة تهتف مازحة:

- ما لبطلنا الرياضي الهمام لا يستطيع الفكاك من فراشه الوثير. لم أعتد منك على هذا . اعتدت أن توقظني جرِا من شعري. أظنه دوري اليوم .

اندفعت نحوه والظلام يحتويها, وألم رأسه يزيد .

مدت يدها نحو جانب رأسه المتألم , نحو موضع الألم بالضبط. فصاح فيها بخوف :

- كلا.

- كلا ماذا يا هاني ؟

التفت في ذهول إلى أماني الجالسة إلى جواره في حديقة عامة تكاد تكون خالية من الزوار في هذا الطقس البارد والسماء الملبدة بالغيوم . كانت منكمشة بردا في سترة سميكة تبدو في ملامحها الدهشة مع مزيج من التوتر و الشعور بالبرد القارص.

- لماذا أصررت أن نتقابل اليوم في مثل هذا الطقس القاتل.

الطقس قاتل ؟! هو يشعر بالدفء . قربه منها ينسيه كل برودة العالم وقسوته. حتى آلام جسده تزول بمجرد أن تشرق هي . لكن ..... لماذا يستمر ألم رأسه هذه المرة . ولماذا لم تلاحظ هي الدماء المتجلطة على

رأسه رفع يده بتوتر لم يشعر به من قبل . ما الذي يحدث له هل هو داخل حلم كبير ؟ هل جلوسه مع أماني الآن هو الحقيقة؟ أم حلم آخر؟

لم تكد يده تصل حذو كتفه حتى شق ذلك الصوت أذنيه. سيف يشق الهواء نحو صدره. أعاد توجيه يده بسرعة ليتلقى ذلك السيف على السيف الذي يقبض عليه بقوة. تراجع مذهولا... يحاول أن يفهم ... هل مازال في حلم؟

استمر في مبارزته يتفادى , يتلقى , يطعن , وعقله يدور هل هذا هو الواقع فعلا ؟ أم هو حلم كبير ينتقل فيه من حلم صغير لآخر؟

انتهت المباراة وأقبل الجميع يهنئونه صديقيه ، زملائه في الفريق ، علي وياسر.

خلع قناعه الواقي ومدربه عادل يقول بغضب:

- على الرغم من فوزك إلا أن مباراتك كانت دون المستوى . لقد كنت شاردا طوال الوقت .

- يا سيدي، هاني لا يظهر مستواه الحقيقي دائما في مبارزاته . بل أحيانا في المبارزة الواحدة يظهر أكثر من مستوى.

كان هذا صديقه ياسر الذي يدافع عنه دائما . ويجد له مبررات لم تخطر له هو نفسه على بال.

لوح بيده لأخته منار مبتسما ردا على تلويحها المرح من وسط المتفرجين.

كيف لم ينتبه أحد لهذا الدم المتجلط على رأسه وجانب جبهته؟ أم تراه وهم ؟ قد يكون إحساس كاذب. ولكن الألم الذي يعصف برأسه. رفع يده ليتحسس رأسه ، وكله إصرار أن يمس موضع الألم هذه المرة.

تحسس رأسه في حذر مغمضا عينيه متوقعا ألم أو لا شيء. إنها حقيقة وليست وهما الألم في رأسه, والدم المتجلط على رأسه وجانب جبهته الأيمن والصداع.

- الحمد لله أنك استعدت وعيك . خشيت أن .....

فتح عينيه ينظر لصاحب الصوت بدهشة وهو يستطرد بارتياح:

- أفقدك.

تطلع إليه هاني بتفحص عميق محاولا اختراق سحب الظلام التي تغلف الحجرة ، وسهام البرد تقتحم خلايا جسمه وعظامه . اعتدل جالسا بصعوبة وآلام في مواضع عدة من جسمه وهو يقول بمزيج من الألم والحيرة:

- ومن أنت بالضبط ؟ ومن أين تعرفني حتى تخشي فقدي؟

لم ينتبه للحيرة والذهول في ملامح الرجل وهو يتأمل الغرفة الغريبة التي هو جالس في وسطها بينما محدثه مقيد إلى الجدار بقيود معدنية مثبتة في الجدار. الحجرة صغيرة لا يزيد طولها عن الثلاثة أمتار وعرضها متران . لها باب واحد واسع وبلا نوافذ فقط فتحة تهوية في السقف.

الجدران معدنية . لولا الأرضية والسقف لظن أنه في صندوق معدني بارد. الرائحة كريحة إلى حد قاتل.

يبدو أن هذا الموقف هو الحقيقي على الرغم من أنه الوحيد غير المنطقي ولا يرتبط بحياته أصلا ، شعوره بحواسه وألم رأسه يبدو طبيعيا أكثر. كما أن المواقف الأخرى كلها مشاهد يومية معتادة من حياته البسيطة.

تأمل ملابسة الممزقة في أكثر من موضع، وكذلك بقع الدماء في مواضع شتى عليها ومحدثه يقول بحذر وتوتر:

- هل تمزح معي يا هاني؟ إن كنت تفعل فليس هذا وقت مزاح ؟

نهض هاني بصعوبة بالغة من آلام ظهرة نتيجة رقاد طويل , وعضلاته بسبب ثبات عميق لم تنهض منه بعد , غير آلام جراحه, انتزع إبرة محقن من ظهر يده متصلة بخرطوم دقيق مثبت في عبوة جلوكوز في أحد قيود الفتى على الجدار . ثم نهض بإعياء وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة وهو ينظر لوجه محدثه بتمعن، وعقله يعصر خلايا مخه بحثا في ذاكرته عن بداية هذا الموقف ، وبحثا عن هذا الوجه الذي يحدثه:

- وإن كان المزاح جائزا في كل وقت ولكني لا أمزح يا من تعرف اسمي، وتدعي قوة العلاقة بيننا ، ولا أعرفك.

ارتفع حاجبا الرجل في ذهول وشفقة ، وفرت دمعة من أحد عينيه وهو يقول بعدم تصديق وإشفاق:

- هذه أول مرة لا تناديني فيها بذي الذراع الواحدة.

تطلع هاني لذراعي الرجل المقيدان إلى الجدار. وهو يتوقف بذاكرته عند آخر موقف يتذكره الثلاثة الذين هاجموه بعد خروجه من المسجد بعد صلاة الفجر وضربوه بغتة وأفقدوه وعيه.

بدأ يحاول تحريك أطرافه وهو يقول مخفيا كل اضطرابه وتوتره متظاهرا بالثبات وعدم المبالاة:

- ولماذا أناديك بذي الذراع الواحدة وأنت بذراعيك سليمتين ؟

ازداد انهمار دموع شهاب وهو يخفض بصره إلى الأرض بمرارة وألم من تلقى طعنة نجلاء في قلبه.

اقترب منه هاني بصعوبة وألم وهو يقول بابتسامة يحاول بها تلطيف مشاعر صاحبه:

- لماذا تبكي يا صديقي ؟ أنا بخير أمامك على كل حال وأنت أيضا بخير. حتى اختطافنا هنا ليس بمشكلة كبيرة. فكل هم خاطفنا أن يمنعنا من المشاركة في بطولة الجمهورية في المبارزة . هل أنت أحد الزملاء ؟ ذكرني بك لا أذكر وجهك مطلقا.

توقف هاني أمام شهاب مباشرة وكل منهما يتفحص وجه الآخر بدقة والغرضان مختلفان:

- أنا شهاب يا هاني . أقرب أصدقاءك. أحقا نسيتني؟

ازداد اهتمام هاني في تفحصه وهو يقول :

- حقا ؟! لا أذكر أننا تقابلنا من قبل.

قال شهاب بكلمات تتقطر منها الدموع:

- كيف جئنا هنا إذا ؟ هل تتذكر هذا؟

قال هاني بحذر وهو يفكر:

- استوقفني رجل لا أعرفه وأنا عائد من صلاة الفجر ، وسألني عن اسمي، وبينما أجيبه طوقني آخران ، ثم انهالوا علي ضربا حتى فقدت وعيي . ثم أفقت لأجد نفسي هنا . وأنت كيف جئت؟

قالها وبدأ يفحص قيود شهاب بحثا عن طريقة لتحريره . في حين قال شهاب بصوته المتقطع ألما ومرارة:

- لا إله إلا الله. سبحانه هو الرحمن الرحيم.

صمت قليلا وهاني مازال يحاول تفحص القيود ثم قال ناظرا إلى لحية هاني:

- ولحيتك؟!

نظر هاني أسفل ذقنه متسائلا , لما يقول رفيقه هذا لقد حلق لحيته ليلة أمس فقط، من المستحـ.....

تراجع مذهولا من طول لحيته التي تبلغ من العمر سنوات . أمسكها غير مصدق يحاول انتزاعها يتحسس منابتها وهو يهتف بذهول وحيرة فاضتا عن أسوار احتماله:

- ما هذا ؟ هذا حلم آخر أكيد . لا يمكن أن يكون حقيقة . متى نبتت هذه اللحية ؟ هل أنا هنا منذ سنوات ؟

أقبل على شهاب بعنف لم تحتمله عضلاته فكاد يسقط لولا أن تشبث بملابس شهاب المقيد إلى الجدار.

اختلطت الشفقة بالحيرة في دموع شهاب وهو يراقب هاني وهو يعتدل بإرهاق وألم. هل يخبره بما حدث أم.....

فتح باب الغرفة فجأة. التفت هاني بصعوبة ورفع شهاب عينيه إلى الباب ونادر يتخطاه إلى الداخل وخلفه حارسين شخصيين مفتولي العضلات. قال هاني بتهكم وهو يعتدل في وقفته:

- لا تدعي أنك صديقي أنت الآخر . يكفيني صدمات . فشكلك ليس عاطفيًا خاصة بين كلبيك المتوحشين هذين.

ابتسم نادر بثقة قائلا بتهكم :

- اشتقت حقا لأسلوبك الساخر هذا. ولكن يجب أن تعلم أن الوقت قد اختلف والأدوار قد تبدلت وكذلك قصتك. وربما حياتك أيضا.

قهقه نادر وهو يدنو من هاني قبل أن يستطرد بثقة:

- لا أدري من أين تأتي بهذه الروح المعنوية العالية رغم ما أنت فيه.

قال هاني وهو يتفحصه في الإضاءة الخافتة لهذه الحجرة الخالية من أي نوافذ كما لو كانت قبوا تحت الأرض:

- أعلم أن وجهك كفيل بتحطيم أي روح معنوية وبث الكآبة في أسعد القلوب. ومع ذلك يبدو أن روحي المعنوية مازالت تحاول الصمود.

انطلقت ضحكات نادر الساخرة. وألقى نظرة مقت متشفية على شهاب المصلوب على الجدار، ثم أعاد بصره إلى هاني قائلا بشراسة وغل تشتعل به كلماته:

- هل تعني أن موت أمك وأخيك و ابنك وكذلك والدي عبدالله وأقرب أصدقاؤك لم يفت في عضضك .

اتسعت عينا هاني ذهولا ورعبا والتفت إلى شهاب قائلا بارتياع:

- هل هذا المعتوه صادق يا شهاب؟ هل أمي ....

ارتجف وتهاوت عضلاته وسقط على ركبتيه عندما طعنتها دموع شهاب

ونظرات الأسف في مقتل وهو يقول بوجع مزق كلماته:

- أنا آسف يا صديقي. لقد حاولت...

قاطعه نادر وقد شحنته مشاعر هاني وإحساسه أخيرا بالظفر بشحنات صاعقة من الشراسة والتشفي:

- أين روحك المعنوية الآن؟ لماذا اختفت فجأة ؟

دفن هاني وجهه بين كفيه وقلبه يصرخ: " مستحيل أن يكون هذا واقعه. أكيد هذا حلم آخر. بل هو كابوس مريع. سيستيقظ منه أكيد .

أتاه صوت نادر من بئر سحيق مغلف بضباب مرعب:

- لقد هزمتك أخيرا... مشكلتك أنك من فرط غرورك أفرطت في نصح خصمك. فاستفاد من نصحك وهزمك. عندما قامت الثورة هربت مع من هرب من السجون. ثم أعددت خطتي مستغلا حالة الفوضى والانفلات الأمني الذي سبق تنحي الرئيس مبارك واقتحام السجون ومهاجمة الثوار لمراكز الشرطة . قتلت ياسر ووالده كحادث إرهابي ضد الشرطة لأنه من أكثر أصدقاءك مساعدة لك .

صمت قليلا يملآ عينيه وقلبه من حسرات هاني وذهوله قبل أن يتابع بشراسته المتنامية مع كل كلمة:

- أما عادل وعلي ففي المعتقل الآن والدكتور إبراهيم والعقيد مجدي

حسين قتلا مع من قتل يوم مظاهرة الرحمة التي شهدت نهايتك . كان أسوأ أيامَ حياتك وأسعد أيام حياتي.

صرخ شهاب بغضب وثورة وقد هاج جسمه كله يحاول تحطيم قيوده:

- وهل ظننت أنك سوف تنجو بكل هذه الدماء التي أسلتها ؟

قال نادر بثقة :

- لقد انتهى الأمر يا فتى. إنها مظاهرة تسلل رجالي إليها مختلطين بالمتظاهرين . ثم أطلقوا النار على العقيد مجدي حسين الذي سقط صريعا بين رجاله الذين فقدوا اتزانهم وأطلقوا النار على المتظاهرين ومع تبادل إطلاق النار واشتعال المعركة بين رجال الشرطة والمتظاهرين، كان كل واحد من رجالي يعرف دوره وينفذه في نفس الوقت وبسرعة. رصاصة في رأس أبي عبدالله، تفجير سيارة هاني بأهله، تخديرك وهاني وناصر ببنادق صيد من بعد. لمن يمكن أن تنسب جرائم القتل هذه ؟ هل تعلم كم شخص مات في تلك المظاهرة؟ عشرات من رجال الشرطة والمتظاهرين . ليس أشخاص محددون حتى يمكن توجيه اتهام لشخص محدد. إنها فوضى .

صدر صوت من هاتفه يعلن استقبال رسالة تجاهله وهو يتطلع لدموعهما بشماتة وزهو:

- وأنا في السجن وضعت عشرات الخطط وما كنت أتخيل أن أحقق

هذا النصر بهذا اليسر. أنتم الآن بين يدي وكل شخص قد يملك مساعدة لكما، إما قتل وإما بمعتقل لعدة قضايا لن يخرج منها من سجنه أبدا. أي أنك صرتَ لعنة على كل من يحبك يا أستاذ هاني . من يضحك أخيرا يضحك كثيرا. أليس كذلك يا بطل.

صوت رسالة جديدة اختلط بصوت هاني الباكي الذاهل:

- هناك شيء خطأ. هذا كابوس بالتأكيد . أو ....

رفع عينيه لنادر قائلا بمقت وحيرة:

- أو أنكم تتكلمون عن شخص آخر غيري. أنا لم أتزوج وليس لي أولاد لا أعرف عبدالله ولا ناصر ولا مجدي ولا شهاب هذا ولا أنت.

صرخ فيه نادر بغضب:

- دعك من هذه الألاعيب . ما عدت تستطيع خداعي . وما عاد هناك مجال لذلك . لقد انتهيت. لقد انتزعت مني مملكتي وأنا أريد استردادها. لقد أخذت نصفها وراثة من أبي ، وستوقع لي عقد بيع النصف الآخر، وتفتح لي خزينة المملكة لكي أتركك وأصحابك ترحلون.

- ألاعيب ... ربما هذا ملعوب منك . نعم . هذه خدعة . أن تحاول إلهائي حتى تفوز بالبطولة أليس كذلك؟ نعم الأمر كله خدعة.

ركله نادر في صدره بغضب فطرحه أرضا يسعل بقوة وهو يصرخ:

- هل تتظاهر بالجنون؟ سأقتلهم واحدا واحدا أمام عينيك إن لم تفعل ما أريد.

التفت إلى أحد حارسيه هاتفا:

- أحضر ناصر.

خرج الرجل مسرعا وشهاب يهتف بحرقة ومرارة:

- ألم تفهم أيها الغبي ؛ لقد فقد هاني ذاكرته .

- ماذا تقول أيها المخرف؟ إنه يتظاهر بالجنون.

- فقدان ذاكرة نفسي. اقتطع عقله جزئا من ذاكرته ليتفادى أثر الصدمة. حيلة دفاعية من عقله حتى لا يصاب بجنون أو موت من أثر الصدمة . لم يكن ليحتملها. من بداية مشاكله في البطولة حتى لحظة الانفجار .

صاح هاني بانهيار:

- لا تقل أن هذا حقيقي . أنا لم أمر بكل هذا . أنتم مخادعون . أو أمسكتم بالرجل الخطأ. ليس أنا من تتكلمون عنه . أنا هاني عامر في الفرقة الرابعة كلية تربية . ليس بيني وبين أحد أي عداوة ولم

أتورط يوما في أي مشكلة . حتى هذه اللحية لا أعرفها. وإن كنتم تريدون البطولة ، خذوها ، ودعوني أعود لأهلي.

دخل حارس نادر يدفع أمامه تابوتا ذا عجلات وغطاء زجاجي فوقه مكعب معدني. نهض هاني بإرهاق وآلام تعصف برأسه وكل جسمه ونادر يلتقط المكعب. دنا هاني من التابوت وهو يحدق ذاهلا في من يرقد بداخله. فناصر هذا يشبه شهاب إلى حد مذهل إلا أنه بذراع واحدة ، ويستغيث به مرعوبا.

أشار نادر إلى المكعب قائلا بتحد وإصرار:

- الآن ، سترد لي ما سلبته أم أقتل صديقك؟ نواته في هذا المكعب ما أن أضغط هذا الزر حتى تنفجر. ما رأيك؟

ارتبك هاني وسعل بألم وهو يقول بمزيج من الخوف والتوتر والحزن والحيرة:

- لا أفهم شيئا . ما الذي سلبته منك وتريده ؟ ما هي تلك النواة ؟ وما علاقتها بهذا الذي يشبه شهاب؟

رسم نادر على وجهه علامات عدم رضا استعراضية وهو يقول:

- ما زلت تحاول خداعي ولعب دور المجنون.

ضغط الزر بقوة. فصدر صوت انفجار مكتوم داخل المكعب المعدني ارتج

له بعنف حتى سقط من بين يدي نادر . وانتفض جسد ناصر بألم وتهاوى في التابوت كأنه دمية تمزقت الخيوط التي تحركها دفعة واحدة. ازداد هياج شهاب محاولا بلا جدوى التخلص من قيوده حتى سالت الدماء من معصميه وقدميه، في حين قال هاني باختناق وعدم تصديق لما يحدث:

- هل قتلته؟ هل مات ؟

قالها وهو يبحث بعينيه عن أي أثر للحياة في جسد ناصر الراقد في التابوت بلا حراك.

أشار نادر لأحد حارسيه قائلا باشمئزاز:

- ألقه في أي صندوق قمامة بعيدا عن هنا.

تطلع لهاني المنهار لحظات بزهو عظيم. لقد حقق حلمه أخيرا قهر هاني وعلى وشك السيطرة على مملكته كاملة . لم ير هاني ضعيفا منهزما متخاذلا هكذا من قبل، ولم تمر هذه الصورة في خياله قط.

قال نادر بصوت وحشي امتلأ زهوا وثقة اختلط برنين هاتفه:

- لم يبق لك سوى زوجتك رحمة وصديقك شهاب . بمن تحب أن أبدأ؟ أنا أفضل شهاب . فرحمة في غيبوبة في المستشفى تصارع الموت.

أما هو فمازال حيا .

رفع هاني عينية عن تابوت ناصر إلى نادر الذي يلتقط هاتفه من جيبه وقال بتوتر وخوف:

- صدقني . لست من تقصده . لقد اختطفني رجالك وأنا عائد لبيتي من صلاة الفجر . ربما هو مجرد تشابه أسماء أو .....

تابع تبدل ملامح نادر وهو يتطلع إلى شاشة هاتفه المحمول .

سكنت حركة شهاب وهو يرى الغضب يسيطر على ملامح نادر الذي ينصت إلى محدثه عبر الهاتف باهتمام قبل أن يصرخ فيه بغضب.

- وكيف تنقلوها إلى ثلاجة الموتى قبل أن ترجعوا إلي؟ ..... وكيف تسمحوا بذلك؟ أعيدوا الجثة فورا إلى حجرتها. .....لا يهمني أطباء ... كلامي ينفذ.

انهمرت دموع شهاب من جديد. لم يشعر بالهزيمة قط مثل الآن لقد فشل في حماية هاني وعائلته كما وعد . وها هي رحمة زوجة هاني تموت متأثرة بجراحها. وناصر صديقه يموت وهو مقيد كحيوان لا يستطيع التحرك قيد أنملة.

انتبه لغضب نادر الذي تضاعف وهو يقرأ رسائل هاتفه. ترى ماذا فيها أذهب زهو انتصار نادر من ملامحه. ولم يتساءل طويلا إذ قال نادر وهو يرفع عينيه إلى هاني :

- شخص ما لديه هاتفك المحمول وأرسل إلي رسالتان.

بدى هاني وكأنه يصارع الجنون وهو يقول:

- زوجتي رحمة وهاتفي المحمول.. هل انتقلت بالزمن من الماضي إلى المستقبل بطريقة ما؟

لم يسمع نادر عبارة هاني فأردف كأنه يكلم نفسه:

- الرسالة الأولى تقول : ((وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.))

صمت طويلا يفكر في معناها قبل أن يقول عاقدا حاجبيه بغضب مفكرا:

- أما الثانية فتهديد صريح. (لا تحسبن نفسك ناج بما فعلت . سأقتلك بكل نفس قتلتها)

ابتسم هاني وقد وجد ما يوافق اعتقاده فتعلق ببارقة أمل توحي بأن كل ما هو فيه خطأ صغير يمكن تصحيحه:

- ها ... هل صدقتني الآن ؟ أنا لست من تطلبه.

صرخ نادر في وجهه وهو يدنو منه:

- مستحيل .. أنت هاني خصمي اللدود. لم تتوقع خطتي وتعد لها خطة مضادة . مستحيل . كل شيء في قبضتي . ما هذا إلى مخادع يحاول مساعدتكما ولكن هيهات هيهات. أنا أتحكم في كل شيء.

انتزع من جيبه عدة أوراق وقلم وضعهم على التابوت وجذب هاني بعنف صائحا فيه :

- وقع العقود وإلا قتلت شهاب فورا.

قالها وأخرج مسدسا من جيبه، سحب صمام الأمان ثم صوبه إلى رأس شهاب الذي قال بيأس:

- سيقتلنا على كل حال يا هاني. هل تصدق ما يقول؟

أمسك هاني القلم بأنامل مرتجفة، ونقل بصره من وجه شهاب اليائس الباكي إلى وجه ناصر الصريع الذي يشبهه كأنهما نفس الشخص، ثم إلى وجه نادر المقيت رغم وسامته...

أصدر هاتف نادر رنينا جديدا فالتقطه نادر بسرعة ووضعه على أذنه. استمع لمحدثه ثوان قبل أن يصرخ :

- ماذا ...؟ الجثة غير موجودة ؟! من الذي تسلمها أيها المعتوه؟ زوجها من؟ لا أحد يخرج من المستشفى حتى آتي إليك لا مريض ولا عامل ولا طبيب ولا حتى مدير المستشفى.

ألقى الهاتف في جيبه وأحكم تصويب مسدسه إلى رأس شهاب صارخا في هاني:

- هل ستوقع عقود البيع أم .....؟

أسرع هاني قائلا:

- سأوقع لك كل ما تريد. ولكن لا تقتل أحدا.

راح يوقع العقود وهو يتساءل في نفسه : لماذا لا يستيقظ من هذا الكابوس.

خفض نادر مسدسه وأشار لحارسيه وغادر مسرعا وأحدهما يدفع التابوت أمامه وعيون شهاب وهاني متعلقة به بقلوب دامية.

(٢) عَـدَمِ اتِّـزان

وثب نادر من سيارته بمجرد توقفها المفاجئ. فهب الرجلين اللذان كانا مكلفان بحراسة حجرة رحمة مرتجفان وانطلقا خلفه مع حارسيه الشخصيين إلى داخل المستشفى وهو يصيح فيهما :

- ما الذي حدث بالضبط يا حسن ؟

قال الشاب بصوت مرتبك مرتجف:

- أتت المرضتان ليعطياها الدواء كالعادة ، ثم أسرعت إحداهما تنادي الطبيب وتخبره أن المريضة تحتضر . أسرع الطبيب إليها وما هي إلا ثوان حتى خرج يعلن أنها ماتت ويأمر بنقلها إلى ثلاجة الموتى.

تجاوزوا الباب الزجاجي إلى ردهة المستشفى. وحسن يتابع لاهثا:

- اتصلت بك فأمرتني بإعادتها. وعندما ذهبت إلى ثلاجة الموتى، قالوا أنهم اتصلوا بزوجها فجاء وتسلم الجثة.

اتجه نادر إلى حجرة مدير المستشفى مباشرة . فعلى الرغم من أن قدميه لم تطآن أرض المملكة منذ سنوات، إلا أنه لم ينس شبرا فيها، إلا ما بني بعد رحيله. حاول العامل على بابها منعه فدفعه بغلظة قبل أن يقتحمها

صائحا بغضب ثور هائج:

- أنت ما وظيفة سيادتك هنا بالضبط؟

منذ تلك المذبحة ونادر لم يهدأ في الإعلان عن نفسه . أعاد اسم المدينة المملكة بدلا من الرحمة . وكل مبنى حمل اسم الرحمة غيره إلى المملكة. ونشر صوره مع رزمة من القرارات الصارمة ، منها حظر التجوال من الثامنة مساء حتى الخامسة صباحا كسائر الدولة. والتشديد على عقاب المخالف . لم يكتف بذلك بل زار كل مكان عام في المدينة مكررا قراراته وعقوبات المخالف.

نهض المدير بغضب قائلا:

- أنا المدير هنا. كيف تقتحم مكتبي هكذا.

وضع نادر يديه على المكتب صائحا:

- كيف أقتحم مكتبك ؟! تسألني كيف أقتحم مكتبك؟! ما دمت جالس خلفه ولا تدري ما الذي يحدث في مستشفاك فمن حق أي متسول أن يقتحمه بلا حساب.

- ما هذا الهراء؟

- هراء ... أنا لا أقول هراءٍ أبدا. أهم سيدة في المملكة تم اختطافها من مستشفاك وأنت نائم خلف مكتبك هذا. أنا أحملك المسئولية كاملة، أنت وكل من شارك في اختطافها .

دار المدير حول مكتبه صائحا بدوره :

- ومن قال أنها خطفت ؟ لقد استعادت وعيها فاتصلنا بزوجها لنعلمه بذلك فأتى وأخذُها وخرجا يمشيان على أقدامهما في كامل وعيهما وحريتهما أمام الجميع.

صدمت هذه العبارة نادر. تطلع للمدير الذي وقف أمامه مباشرة في تحد وعقله يعمل بكل طاقاته ليفهم ويرتب الأحداث. أخرج علبة سجائره في صمت وأخرج منها سيجارا فاخرا وهو يدور حول المكتب ويجلس على مقعد المدير. أشعل سيجاره ووضع ساقا فوق أخرى وهو يقول بهدوء فيه رنين غضب وعدم اقتناع:

- الساعة الآن الثانية ونصف صباحا. والمكالمة التي أخبرني فيها حارس حجرة رحمة بموتها كانت الثانية وثلاثة عشر دقيقة. أي أن خلال سبعة عشر دقيقة دخلت المرضتان حجرتها، وجداها تحتضر ، أبلغا الطبيب الذي أسرع إليها وحاول إسعافها ، ولكنها ماتت كما قال حارسا الحجرة أو استيقظت كما تقول أنت . ثم تتصلون بزوجها ويصل ويأخذها بدون إجراءات رسمية ويغادر

على الرغم من حظر التجوال . كل هذا خلال ثلاثة عشر دقيقة.....لحظة .....

مال للأمام معتمدا بمرفقيه على المكتب قائلا بنفس الأسلوب:

- بل أقل من ذلك بكثير. كل هذا حدث أثناء مكالمة حارس الغرفة لي. هل تملك سيادتك تفسيرا منطقيا لذلك؟

قال مدير المستشفى بثبات وثقة وكأنه كان يتوقع السؤال أو ينتظره:

- الصورة الصحيحة تخالف قولك هذا . ولا يهمني ما أخبرك رجلاك فثقتي في رجالي والمستندات التي لدي أكبر.

جلس على المقعد المجاور للمكتب ووضع ساقا فوق الأخرى بدوره وهو يستطرد بهدوء :

- كانت حالة السيدة رحمة غير مستقرة في أول يومين ، ثم بدأت في التحسن تدريجيا. ثم استعادت وعيها في اليوم الخامس وعندما صار باستطاعتها المشي اليوم, اتصلنا بزوجها الأستاذ هاني عامر ليتسلمها . فطلب منا أن نجهزها وأوراقها الطبية وعلاجها حين يصل في الثانية صباحا. ووصل في موعده. ولما كان كل شيء جاهز, لم تمض إلا دقائق وكان قد أخذها ورحل. لا أرى شيئا غريبا في هذا.

ساد الصمت لحظات إلا من نقرات أصابع نادر على زجاج سطح المكتب قبل أن يقول بغضب :

- خطة محكمة، وأنت متواطئ .....

- أية خطة؟ وأي تواطئ ؟ أنت تلقي بالاتهامات جزافا.

هب نادر واقفا وكاد يصرخ في وجهة لولا أن طبيبِا شابِا اقتحم الغرفة وهو يهتف:

- حالة خطرة يا دكتور . رجل يحتضر.

أسرع مدير المستشفى مغادرا وهو يقول للطبيب الشاب:

- ابق مع الأستاذ نادر أجب على كل أسئلته ، أحضر له كل المستندات التي يطلبها . وخذه إلى حجرة المراقبة ليراجع ما يشاء من تسجيلات آلات التصوير الخاصة بالمراقبة.

قالها وغادر الحجرة مسرعا نحو الاستقبال واتسعت عيناه دهشة وفزعا. لقد كان الراقد أمامه بلا حراك هو جسد ناصر الشبيه بشهاب ورفيق هاني عامر الذي لا يكاد يفارقه. ترى ما الذي حدث؟ لم يتساءل طويلا . وأقبل عليه يفحصه بعناية .

◆◆◆◆◆◆

- هاني .... هاني حبيبي ..... هيا يا بني . لقد أذن لصلاة الفجر .

هبِ هاني جالسا على فراشه يتحسس صدره ورأسه وعيناه تدوران في حجرته وهو يتمتم بارتياح شديد:

- الحمد لله. لقد كان كابوسا رهيبا . لماذا لم توقظيني قبل أن أتوغل فيه كثيرا؟

ابتسمت أمه بحنان وهي تجلس على حافة الفراش بجواره قائلة :

- وهل كنت أعلم ؟

أزاح الغطاء عن جسمه واعتدل جالسا بجوارها وهو يقول مبتسما بارتياح شديد:

- وأين قلب الأم؟

ربتت على يده قائلة:

- قم صل أولا حتى لا تضيع عليك صلاة الفجر . ثم قص علي ما رأيت ونحن تتناول طعام الإفطار.

نهض بتثاقل وهو لا يكاد يصدق أنه كان مجرد كابوس. ترك والدته ترتب فراشه واتجه إلى الحمام. شعر ببرودة الماء على وجهه وهو يتوضأ . حمد الله للمرة الثانية على أنه عاد إلى حياته الطبيعية .

عاد إلى حجرته وعالمه، تحسس وجهه بارتياح . لا أثر للحية إطلاقا . فرغت والدته من ترتيبها وذهبت إلى المطبخ لتعد طعام الإفطار، بدأ تغيير ملابسه وهو يسترجع كابوسه واضح التفاصيل. مازالت رائحة الحجرة الكريهة في أنفه وبرودتها على جلده. حتى آلام جسمه مازال أثرها ، يستطيع تحديد مواضعها . استرجع كل التفاصيل المحفورة في ذهنه، لو كان الموقف حقيقيا ما تذكر تفاصيله هكذا.

- أين أنت يا بروفيسور؟

كان هذا صوت أخته منار المرح كالعادة. التفت إليها مندهشا . لقد كان جالسا إلى جوار أخيه علاء , ومنار تجلس من الناحية الأخرى وبيدها الخبز وأمه تجلس في مواجهته وتضع طبق الفول في منتصف صحفة الطعام.

انتابته الدهشة . هل صلى الفجر في المسجد وعاد، وشغله شروده عن وعيه لهذه الدرجة ؟ أم أنه لم يغادر أصلا وصلاه في البيت ؟ أم لم يصلِ؟

عاد بذاكرته لدقائق فشعر كأنه مشى في الشارع وصلى في المسجد ثم عاد . هكذا يفعل يوميا. انتزعه شعور بالشفقة على علاء، فوضع يده على ركبته قائلا بحنان وعاطفة قوية:

- أنا أحبك كثيرا يا علاء.

حدِق فيه علاء مندهشا, ثم التقط رغيفا وهو يقول بتهكم:

- لهذا تتشاجر معي يوميا . أليس كذلك؟

ابتسم هاني بحنان ومنار تجيبه :

- من أفعالك يا أخي .

قالت الأم في وجل:

- هل أصابه مكروه في حلمك يا هاني؟

صمت هاني لبرهة جعلتهم يتطلعون إليه بترقب . سقطت دمعة من إحدى عينيه عندما التقتا بعيني والدته. مدت يدها تربت وتحتضن راحته بحنان غامر قائلة:

- لهذه الدرجة أثر فيك هذا الكابوس؟

قال هاني وهو يمسح دمعته:

- أبشع كابوس ممكن تخيله. عام ٢٠١١ تحدث ثورة تقلب كل الموازيين. وتدمر حياتي تدميرا..

هتف علاء مندهشا :

- ولما؟ هل كنت رئيسا للجمهورية؟

تطلع إليه هاني بحنان أب لابنه الذي يعرف ميتته:

- لا . ولكن كنت مديرا لشركة إدارة مدينة سكنية كبيرة وشريكا فيها . وعندما أحاول أنا وشريكي تهدئة الناس في مظاهرة ضخمة . يستغلها رجل خبيث ويشعلها حربا شنيعة بين الشرطة والمتظاهرين يستغلها في قتل أبيه شريكي ، وكل أصدقائي وأهلي حتى من كان بعيدا في محافظة أخرى. لقد كانت مذبحة رهيبة .

ابتسمت أمه بحنان هامسة:

- إنه مجرد كابوس يا ولدي . ها نحن أحياء إلى جوارك.

مالت منار نحوه متظاهرة بالهمس في أذنه وإن بدى صوتها مسموعا:

- وأنا هل كنت منهم.

طوق رأسها بذراعه وضمها إليه طابعا قبلة على رأسها:

- كلا. لقد كنت في الولايات المتحدة الأمريكية.

اتسعت عيناها في سعادة طفولية وهي تهتف :

- حقا يا هاني؟! إذا لماذا تحزن المهم أنا وأنت. والأعمار بيد الله.

قال هاني بحزن عميق:

- الصدمة عظيمة يا منار . أمي وعلاء وزوجتي وابني. هذه ضربة واحدة كانوا في السيارة يحاولون الفرار قبيل اشتعال المذبحة. وكل أصدقائي الذين أعرفهم وآخرين لا أعرفهم.

حاول علاء إخراج هاني من حزنه وتحويل دفة الحوار إلى التهكم:

- وماذا كانت تفعل هذه البرص في أمريكا؟

أجابه هاني وهو يخفض بصره للأرض:

- في مؤتمر طبي, فهي طبيبة .

صفقت بيديها كالأطفال وهي تشير إلى علاء :

- وهذا الفاشل، ماذا سيكون . أكيد .....

قاطعتها أمها بصرامة:

- كفى مزاحا يا منار . ولا تكرري قولك هذا لأخيك مرة أخرى. هاني عنده تمرين ولا يجب أن يتأخر.

التفتت إلى هاني وتبدلت لهجتها إلى الشفقة :

- مجرد كابوس يا بني. وحتى لو حدث ، إنما الموت والحياة فتنة وابتلاء من الله لعباده . وهل تتوقع أن أعيش لك أبد الدهر . لكل أجل كتاب. وأنت رجل مؤمن بالله. سيبتليك بقدر إيمانك وعلى قدر قوتك.

لن يضعك في ابتلاء أكبر من قدراتك.

أكمل علاء كلامها قائلا:

- وإن كان العدد ما يحزنك ارجع إلى غزوات النبي صلى الله عليه وسلم. كم كان يفقد المسلم فيها من أحباب وأصحاب في ساعة واحدة.

تناهى إلى مسامعه صوت ينادي من بعيد :

- هاني ... هاني....

صاحت منار بمرحها المعتاد :

- لقد برد الطعام. وأنتم تحبون اختلاق الأحزان . نحن جمعينا نلتف حول ذات الطبق . هيا ....

بدأ صوتها يتلاشى والصوت الذي يناديه يعلو ويعلو ... رفع بصره ينظر في وجوههم و ..... الحجرة المظلمة الكئيبة ذات الجدران المعدنية الباردة وشهاب المصلوب على الجدار. وهو راقد على الأرض . هب جالسا وهو يهتف في ارتياع:

- كلا ... لا يمكن أن أعود لهذا الكابوس مرة أخرى.

◆◆◆◆◆◆

- لا يمكنني أن أجزم يا سيدي الآن، ولكن كل ما يمكنني قوله أنه على قيد الحياة.

قالها الدكتور رأفت مدير المستشفى وهو يلج حجرة مكتبه .وبدى كالمصدوم عندما رأى نادر جالسا إلى مكتبه يقلب في عدة دفاتر أمامه . تابع حديثه مع محدثه على الهاتف قائلا وهو يرمق نادر بمقت:

- وبخصوص السيدة رحمة كيف حالها الآن؟

توتر نادر وهب واقفا بمجرد سماعه العبارة ورمق الدكتور رأفت بغيظ، إنه يتكلم مع هاني باحترام بالغ، أما هو فيكلمه بازدراء واضح وتعالي. اندفع نحوه وهو يصرخ :

- اعطني هذا الهاتف.

ابعد الدكتور رأفت يده بالهاتف وهو يهتف بحزم:

- حتى يأذن هو.

اشتعل نادر غضبا، وبنظرة آمرة من عينيه تحرك حارسيه ، قبض أحدهما على معصم يد الدكتور رأفت الممسكة بالهاتف والحارس الآخر قيد ذراعه الآخر.

صاح الدكتور رأفت بثورة:

- كيف تجرؤ على فعل ذلك؟

انتزع نادر الهاتف من يده وهو يقول بكبر:

- أنا أجرؤ على فعل الكثير .

وضع الهاتف على أذنه صامتا، فأتاه صوت هاني هادئا واثقا بعد برهة قليلة من الصمت:

- هذا إنذاري الأخير لك. ارحل من المملكة قبل أن أصل إليك.

أطلق نادر ضحكة ساخرة عالية وهو يولي ظهره إلى الدكتور رأفت ويقول:

- وإلا ماذا أيها المحتال... ما الذي يمكنك فعله؟ صحيح أنك نجحت في اختطاف رحمة . ولكن هذا لا شيء . لم تخرج بها من المملكة، ولن تخرج . ورجالي الآن يقلبون المملكة شبرًا شبرًا . وما هي إلا سويعات قليلة حتى تكون أنت وهي في قبضتي ..

جاوبه صمت تام حتى ظن ألا أحد على الهاتف فصاح:

- هل تسمعني؟

أجابه هاني بهدوء أثار أعصابه أكثر:

- مشكلتك أنك لا تعرف مع من تتعامل. ولا تقدر خصمك حق قدره . يا بني إن أردت أن تنتصر على خصمك فيجب أن تفترض ذكاءه ، وتحسب لكل خطوة قبل أن تخطوها. وتحاول توقع كل خطواته حتى

بعيدة الاحتمال ، ثم تعد لكل خطوة ما يقابلها من رد فعل. لا أدري لماذا أنصحك وأنت لا تستفيد أبدا من نصحي .

بدأ نادر يفقد اتزانه تماما وهو يصرخ:

- لا تحاول أن تقنعني أنك هاني . إن هاني بين يدي . أنا واثق من هذا.

لم يرد صوت هاني مباشرة، صمت قليلا قبل أن يقول:

- لا يهمني ما تعتقد . اعتقد ما تشاء . يهمني أن تعرف أن شفرة فتح الخزينة عندي ليست عند الذي تخطفهما. أمامك حتى السابعة صباحا وإلا فلا تلومن إلا نفسك. هذا إن وجدت الفرصة لتفعل.

شعر نادر بصوت غلق الخط كأنه صوت رنين صفعة على وجهه. استدار إلى الدكتور رأفت ووضع كل غضبه في قبضته التي دفنها في معدة الأخير الذي أطلق آهة ألم مكتومة قبل أن يهتف بصوت يحاول الألم تحطيمه:

- تضربني أيها المأفون؟ ستدفع ثمن هذا غاليا . سأبلغ عنك الشرطة أنك تختطف شهاب وشخصا آخر تدعي أنه هاني . أنت .....

أخرسه نادر بلكمة أخرى قبل أن يقول بمقت شديد يشتعل على جنباته الغضب:

- أنت الذي لا تدري ماذا سيفعل بك. لا تعرف ما الذي أفعله في من يخطر بباله مساعدة هاني. ستخبرني الآن أين أجد من ينتحل شخصية

هاني ومن هو؟

قال الدكتور رأفت بألم يهزمه التحدي:

- هو هاني عامر . راجع تسجيلات كاميرات المراقبة .

- راجعتها، والشخص الذي فيها يخفي وجهه بقلنسوة على رأسه مع الإضاءة الخافتة ليلا .هل ستجيبني أم لا؟

قال الدكتور رأفت بثبات :

- من أتى وأخذ رحمة هو هاني عامر.

ابتسم نادر بغيظ قائلا:

- هكذا إذا.

دار نادر حول المكتب وجلس على مقعده. تأمل ما على المكتب لحظات كأنه يبحث عن شيء ما فرأى علبة زجاجية على شكل مكعب بها أوراق بيضاء فانتزع واحدة والتقط قلما وراح يكتب عليها وهو يقول بهدوء من يقوم بعمل تقليدي :

- أنت مطرود يا دكتور من مستشفى المملكة. اذهب ولا تعد ثانية:

قال الطبيب بتحد كأنه كان ينتظر ذلك:

- مستشفى الرحمة ومجمع مدارس الرحمة قد حولهما الأستاذ هاني إلى مؤسسات حكومية.

ألقى نادر الورقة والقلم على المكتب بعنف صارخا:

- المملكة أيها الغبي. المملكة . أنت تتحداني بشكل سافر .المملكة كلها مدينة خاصة، وكل مؤسساته مؤسسات خاصة. الأحمق كان يسعى لهذا الفعل الأخرق، لكن الثورة منعته من اتمام آخر إجراءاته لحسن حظي.

حاول الدكتور رأفت بعصبية التملص من مقيديه صائحا بغضب:

- ليس الأحمق من يحاول مساعدة الناس ، إنما الأحمق هو .....

قاطعه نادر بغلظة وحسم:

- الأحمق هو من يساعد أناس لا يشكرون ولا يقدرون ولا يردون مقابل لتلك المساعدة.

همِ الدكتور رأفت بالاعتراض بقول شيء ما لولا أن اقتحم رجال الشرطة المكتب .

(٣) الصـبر

- كلا ... لا يمكن أن أعود لهذا الكابوس مرة أخرى.

قالها وعيناه تجوبان تلك الحجرة المعدنية بذهول وعدم تصديق. تأمله شهاب بأسى يتمزق به قلبه فقال بصوت تقطِعه الحسرة:

- الصبريا هاني .الصبريا أخي.

يسمعه ولا يكاد يسمعه. صوته كأنما يأتيه من جبٍ سحيق. معلق هو في حافته بحبل يلتف حول عنقه، يغوص فيما فيه من غم وهم حتى أنفه، يجثمان على صدره ولا يكاد يلتقط أنفاسه.

- صديقي اصبر وما صبرك إلا بالله.

ظل صامتا يحاول لمِ شمل نفسه. يحاول التقاط أشلائه المبعثرة و ..... تذكر كلمات أمه:

- (إنما الموت والحياة فتنة وابتلاء من الله لعباده . وهل تتوقع أن أعيش لك أبد الدهر . لكل أجل كتاب . وأنت رجل مؤمن بالله . سيبتليك بقدر إيمانك وعلى قدر قوتك . لن يضعك في ابتلاء أكبر من قدراتك .)

انهار هاني باكيا وهو يقول بصوت يمزقه البكاء:

- آه يا أمي . لقد خسرت . حسبتني أقوى مما أنا عليه ، وما استطعت الصمود أمام أول فتنة . سقطت سريعا .

همس شهاب بصوت يجر أطنانا من الأحزان:

- هون على نفسك يا أخي ؟ من يحتمل ما مررت به ؟ إنه يفوق تحمل أي بشري .

تطلع إليه هاني بوجه أغرقته الدموع قائلا:

- هذا غير صحيح يا صديقي . إن الله لا يبتليك إلا بعد أن يعطيك من المقومات ما يؤهلك لاجتياز هذا البلاء .

- إذا أنت يمكنك تجاوز تلك المرحلة

قال هاني بمرارة:

- إنما الصبر عند الصدمة الأولى. (رأى النبي صلى الله عليه وسلم امرأة تبكي صبيا فنصحها. فقالت: – إليك عني فإنك لم تصب بمثل مصيبتي.

فلما أخبرت أنه الرسول صلى الله عليه وسلم، ذهبت إليه في بيته، فلم تجد بوابا فاستأذنت عليه ، وأخبرته أنها لم تعرفه. فقال لها صلى الله عليه وسلم: – إنما الصبر عند الصدمة الأولى.) وأنا فشلت في ابتلائي . رب اغفر لي وتجاوز عني يا رب وارحمهم جميعا.

قالها وانهار باكيا . فعجز شهاب عن الكلام. هو أيضا حزين بمثل حزنه ويزيد . هاني حزين على فقد أمه وأخيه وابنه ولا يعرف بقية القتلى. حتى ابنه لا يتذكره. أما شهاب فكان يحب عائلة هاني كعائلته تماما. وابنتاه تركهما عند أمه

في قريته عندما بدأت الثورة خوفا عليهما، ولا يعلم عنهما شيئا. وصديقه ناصر وعبد الله وضابط الشرطة مجدي حسين والدكتور إبراهيم وياسر وعادل وغيرهم كثير. وجل ما يقلقه هاني يخشى عليه من الصدمة .

منذ أسبوع كامل وهو يهذي غير واع بما حوله يعيش على حقن جلوكوز يوصلها أتباع نادر له لتبقيه على قيد الحياة حتى يأخذ منه ما يريد . وعندما أفاق وجده قد فقد ذاكرته فقدانا جزئيا ، فقد الفترة التي تحول فيها مسار حياته . عاد إلى نقطة التحول، مفترق الطرق. وكأنه يريد أن يبدأ من جديد. ولكن هيهات . ما مضى قد مضى وما هو آت لا يعلمه إلا المولى .

استلقى هاني على ظهره مغمضا عينيه ، وقد سيطر على بكائه وساد صمت ثقيل كئيب كظلمة الحجرة الصغيرة كقبر. والقلق يتصاعد لهيبه في قلب شهاب وعيناه لا تغادران وجه هاني وصدره حتى تجاوزت احتماله فهمس بوجل:

- هاني..

أجابه هاني بصوت بث الأمل في قلب شهاب:

- نعم يا فتى . ماذا تريد؟ ألا أستطيع أن أغفو دقيقة واحدة في هذه الغرفة الكئيبة دون أن تناديني ؟

تراقص شبح ابتسامة تشق طريقها بصعوبة في صخور الحزن التي صلبت عضلات وجهه على شفتي شهاب وهو يهمس:

- أخشى أن ...

صمت عاجزا عن نطقها. فاعتدل هاني جالسا بوهن وألم قائلا بصوت متماسك:

- تخشى أن أموت أو أفقد عقلي . قلها يا رجل ولا تخجل .

أردف بألم وهو يجاهد ليقف على قدميه:

- أحاول ألا أفعل . تتخيل طبعا أن تنام عام ١٩٩٩ وتستيقظ عام ٢٠١١ كيف يمكن أن تشعر . أضف أن تجد شخصيتك قد اختلفت . لم أتخيل أبدا أن أكون سِنيًا ذو لحية وثياب قصيرة. هل صرت متدينا حقا أم أنها لعبة ما غير هذا.

أجابه شهاب بصوت واهن :

- أنت متدين بطبعك يا صديقي. سواء قبل اللحية أو بعدها.

بدأ هاني يحرك أطرافه في محاولة لتليين عضلاته وهو يقول :

- ما سر هذا التحول ؟ لقد كان هناك حاجز بيني وبين .... أقصد هم في عالم وأنا في عالم آخر ليس لي أصدقاء ملتحين أو متدينين . ما حاول يتقرب لي إلا بعض الزملاء من جماعة الإخوان المسلمين زملاء لي في الكلية. وكنت دائما أنأى عنهم ، لما أسمعه عنهم.

شرد شهاب ببصره وعقله يسبح في ذكرياته حين قابل هاني لأول مرة. عندما كان يسعى وراء رحمة بأمر زوجها ليعيدها إليه. وعندما وصل إلى بيت أبيها اصطدم بهاني . أذاقه هاني الهزيمة لأول مرة رغم مهارته القتالية العالية . ثم سيطر عليه بكلامه المنطقي المرتب الصادق. ثم أصبحا صديقين مقربين لا يكادان يفترقان.

- كان هذا بسببها.

شرع هاني يؤدي تمارين رياضية خفيفة تسمح بها آلامه وثبات عضلاته مردفا:

- بسبب من ؟ رجاءٍ، احك باختصار مفصل .

علت شفتي شهاب ابتسامة واهنة وهو يقول:

- اشتقت لتعبيراتك الغريبة . (اختصار مفصل)!

التقت عيونهما لحظات قبل أن يبدأ شهاب رواية قصة هاني له.

◆◆◆◆◆◆

جلس نادر على مكتبه في مبنى إدارة المملكة كما لو كان ملكا يجلس على عرشه . مواجها للنافذة بمقعده. أخيرا تحقق حلمه، وصارت المملكة كلها ملكه صارت مملكته وحده دون شريك .

وهذا المعتوه جابر يعرض عليه شراء المملكة في عز نصره. أبعد أن تحقق حلمه بالسيطرة عليها والجلوس على عرشها يتخلى عنها بهذه البساطة. حتى لو دفع ضعف ثمنها. هذا الأحمق ظل أكثر من ساعة يحاول إقناعه أن يبيعها وبالمبلغ الذي يحدده ، فالمشتري من الرؤوس الكبيرة في نظام مبارك الساقط ويريد وضع ماله في شيء ثابت تحت اسم غير اسمه. حتى ينقذ ماله من التجميد أو المصادرة. ولم يكن نادر ليفرط في نصره بهذه السهولة. لا يريد إلا قهر هاني وإذلاله .

امتلأ صدره زهوا وسعادة وهو يقول في نفسه:

- لم يبقى سوى مالي الذي في الخزينة . وسأنتزعه منك أيها البغيض هاني . ولسوف أمزقك إربا بعدها.

سمع طرقات سكرتيرته على الباب فأذن لها بالدخول وهو يراقب شروق الشمس الواهن من بين السحب المبعثرة في السماء على مدينته. ويتساءل عن ماهية اللعبة التي يلعبها معه هاني . الذي بين يديه هاني الذي يعرفه فيما عدا فقدان الذكرة المزعوم هذا. والذي كلمه في الهاتف هو هاني ، صوته وأسلوبه وذكاءه . ما حدث في المستشفى يثبت واحد من أمرين.

- الأستاذ مروان يا سيدي . هل من خدمة أخرى؟

أشار لها بيده أن تنصرف دون النظر إليها أو إلى ذلك الشاب الوسيم ممشوق القوام الذي ولج الحجرة معها. ظل كما هو يتأمل شروق الشمس على مباني المملكة الشاهقة. ويسترسل في أفكاره. ما حدث في المستشفى من تهريب رحمة يثبت أن هاني الذي فعلها فلا يمكن لشخص أن يتقمص شخصية هاني ويخدع المدير وكل العاملين في المستشفى ويأخذها من بين أيديهم بهذه السلاسة إلا ياسر، وناصر قبل أن ينتقل إلى جسد سام الشبيه بجسم شهاب. وبما أنه قد قتلهما بيديه فذلك الذي فعلها هو هاني نفسه. ثم إن هاني أذكى من أن يعيد الخدعة مرتين . لقد استخدم خدعة التماثل هذه في لقائهما الأخير.

أشار للشاب أن يجلس دون أن يلتفت إليه وهو يواصل تفكيره. الاحتمال الثاني وهو الأقوى أن هذا الذي أخذها وظهر في تسجيلات المراقبة مخفيا وجهه شخص ما ينتحل شخصية هاني. وأعد خطته بالاتفاق مع المدير نفسه. ولكن لما لا يكون هاني نفسه ويخفى وجهه طمعا في إرباكه وتشتيته . صوته و أسلوبه في التعالي وإلقاء النصائح إفراطا في الغرور والتكبر هو نفسه. من يمكنه أن يتقمص شخصية هاني لهذه الدرجة وهو قد تخلص من الجميع إما بالقتل أو الاعتقال .

التفت إلى الشاب بمقعده كله وتأمله في صمت إنه يشبه أباه كثيرا مع فارق الشخصية التي صبغت الملامح فحولتها في اتجاه آخر. أبوه ذلك الرجل الذي

استأجره يوما لقتل والده وسرقة مال المملكة . وأفسد هاني الخطة واستطاع وحده قتل الرجل وإصابة آخر بشلل. وأنقذ عبد الله والد نادر وكذلك رحمة من موت محقق. وهذا الشاب ابنه يبدو عليه الوقار وعلو الخلق وقوة الشخصية رغم حداثة سنه. لقد التقى نادر بكل العاملين في شركة إدارة المدينة في أول يوم تسلمها. وبناء على هذا اللقاء فصل كل من يوالي هاني أو في منصب حساس. لم يبق سوى ذلك الفتى (مروان) أقربهم إلى هاني على الرغم أنه لم ينهي تعليمه بعد. لماذا وظفه هاني ؟ لماذا يعطيه راتبا ضخما؟ هاني هذا رغم ذكائه إلا أنه له تصرفات غبية . يقرب إليه ابن قتيله؟! ماذا لو علم مروان أن هاني قاتل أبيه؟ لهذا لم يتخلص منه نادر . لأنه يعلم أنه سيقلبه ضد هاني بسهولة وسيستفيد منه كثيرا لقربه من هاني . كان يبدو على مروان الارتباك والتوتر . أكيد يظن أن نادر سيفصله مثل زملائه.

تظاهر نادر بالأسف وهو يقول :

- رحمك الله يا حافظ.

رفع إليه مروان عينين مرتبكتين متسائلتين:

- هل كنت تعرف والدي يا نادر بيك؟

أجابه بسرعة :

- طبعا يا مروان لقد كان من أعز أصدقائي.

تمتم مروان بدهشة كبيرة:

- والدي أنا صديقك أنت ؟! كيف هذا ؟!

رفع نادر بصره إلى السقف شاردا وكأنما يستعيد ذكرى مؤسفة:

- منه لله الذي فرق بيننا.

قال مروان في حيرة:

- لا أفهم شيئا يا سيدي .. هلا أوضحت لي أكثر. من هذا الذي فرق بينكما ولماذا ؟

أعاد بصره إلى مروان بتفحص عميق وهو يقول:

- من وظفك هنا يا مروان؟

- إنه الأستاذ هاني . ما علاقة هذا بوالدي؟

ظلت عيناه تتفحصان ردود أفعال مروان وتأثيرات الكلام على وجهه وكأن عيناه جهاز كشف الكذب وسأله:

- لماذا؟ ومنذ متى؟

- بعد وفاة أبي بفترة قصيرة . كنت أيامها في العاشرة من عمري.

- أليس هذا غريبا؟

صمت مروان مترددا مرتبكا. فتابع نادر بمقت حقيقي على هاني:

- هاني هذا أحقر إنسان يمكنك تخيله. إنه شيطان من لحم ودم.

تضاعف ارتباك مروان وهم بقول شيء ما ولكنه أغلق فاهه مترددا فقال نادر:

- أعلم ما تريد قوله . تريد أن تثني خيرا على هاني، وتخشى أن أفصلك عن العمل مثل زملائك، وأنت تحتاجه بشده. أليس كذلك؟

أوضحت ملامح مروان صحة قول نادر، مما جعل الأخير يواصل بحماس :

- ما رأيك لو عرفت أنه قاتل أبيك؟

اتسعت عيناه دهشة وعدم تصديق. دفع نادر ملفا ضخما أمامه على المكتب ليقربه إليه قائلا:

- اطِلع على هذا الملف وستصدقني.

التقط مروان الملف بأصابع مرتجفة، فتحه يطالع محاضر الشرطة الخاصة بهاني الذي قبض عليه بتهمة تأجير المعتدين للاستيلاء على أموال المملكة ومن ثم قتل زعيمهم حافظ والد مروان وإصابة رجل آخر بشلل نصفي . راح يقرأ التقارير وغضبه يتصاعد في ملامح وجهه ونادر يسكب عليها الوقود قائلا:

- إنه ثعلب ماكر. كنا متنافسين في بطولة الجمهورية في المبارزة عام ٩٩ . كان يحلم بالبطولة وأنا كنت العقبة الوحيدة أمامه. فبدأ يعد خطة غير شريفة للنيل مني بإفساد حياتي خارج حلبة المبارزة فيحطمني نفسيا فأكون لقمة سائغة له في الحلبة . وبدأ خطته بالتحري عني . وعلم بشأن مدينتي هذه فمد خطته للسيطرة على المملكة وليست البطولة فقط.

رأى دمعة تفر من أحد عيني مروان وهو يتطلع لصورة والده وهو قتيل تتناثر بقع الدماء على رأسه المحطم وجسده. شعر نادر بالظفر فازداد حماسه وهو يستطرد:

- وكان رشدي مدخله إلى المملكة. رشدي أحد الشركاء في المدينة . يعيش والد زوجته في منطقة قريبة من حيث يقطن هاني. سعى إلى والدها وضرب صداقة معه. ثم ألقى خيوطه حولها حتى إذا كسب حبها قتل زوجها وتزوجها.

هتف مروان وقد بدأ اشمئزازه ومقته يطغيان على توتره:

- يا له من وغد حقير ! شيطان في زي ملاك.

- كل هؤلاء الملتحين منافقين أفاقين. ألم ترهم في الثورة على كل لون يتلونون؟ كانوا يحرمون الخروج على الحاكم وعندما تأججت الثورة ورأوا ضعف الحكومة أمامها ، هبوا ، فريق منهم يجيزون الخروج على الحاكم الظالم ، وفريق تمسكوا برأيهم بجواز الخروج على الحاكم الكافر ومن ثم قاموا بتكفير الحاكم. يتلونون حسب المصلحة.

بدا الامتعاض والمقت واضحين في ملامح مروان ونادر يستطرد:

- ثم تعرف إلى والدك وكان أقرب أصدقائي إلي . ولما كان يعرف كل شبر في مبنى الشركة بسبب تواجده معي كثيرا، أغراه هاني بالمال ومنصب في الشركة إن ساعده . كانت الخطة سرقة خزينة الشركة مع مسرحية بسالة

هاني في الدفاع عن أبي حتى يتقرب منه. ولكن فشلت الخطة عندما طعن هاني أبيك فسقط من النافذة صريعا.

- وهو الذي ظل يخدعني طوال هذه المدة. ويقنعني أنه صديق أبي.

- هو ماهر في الخداع. بعد أن دخل السجن جعل رجال والدك يغيرون اعترافاتهم فاتهموني أنا باستئجارهم، وأغدق العطاء عليك وعلى صاحب

والدك الذي أصيب بالشلل حتى أجرى له العملية الجراحية وأعاده يمشي على قدميه . بل وخدع أبي أيضا وجعله يشهد ضدي ويدخلني السجن . ثم استولى على مملكتي يعبث فيه كيف يشاء . ولكن لابد أن يعود الحق لأصحابه . وها قد عاد لي حقي.

هتف مروان بثورة عارمة ومقت شديد :

- لكن حقي أنا لم يرجع إلي بعد. ولن يهدأ لي بال حتى أقتله كما قتل أبي.

قال نادر بظفر :

- نعمل سويا إذا . أنا أريد مالي فهو الوحيد الذي لديه شفرة فتح الخزينة. وأنت تريد روحه. المهم نعثر عليه فيأخذ كل منا ما يريد .

- نهض مروان واقفا وهو يهتف:

- العثور عليه ليس صعبا.

- كيف هذا؟ رجالي يقلبون المملكة عليه منذ الثانية ونصف صباحا حتى الآن ولا يستطيعون إيجاده .

نظر مروان إلى ساعته قائلا:

- الساعة الآن السابعة ونصف هو بالتأكيد في المدرسة.

ضاقت عينا نادر بدهشة ورنين هاتفه المحمول يعلن استقبال مكالمة فالتقطه وهو يقول بحيرة:

- في المدرسة ؟! اليوم هو التاسع عشر من فبراير . أعتقد أن المدارس تم تأجيلها إلى الثالث والعشرين من فبراير. أليس كذلك؟!

- صحيح. لكن مجمع مدارس الرحمة أبوابه مفتوحة من السابعة يوميا صيفا وشتاءٍ عدا أيام الجمع. ففيها مكتبة ضخمة , بالإضافة لقاعة رياضية شاملة وقاعة حاسب آلي مزودة بشبكة المعلومات الدولية.

ازدادت حيرة نادر وهو يقول ناظرا إلى شاشة هاتفه:

- أعلم ذلك . أنا أشرفت على تزويدها بذلك بنفسي أثناء الإنشاء. ولكني لم أظن أنها ستعمل في العطلات الرسمية. المهم كيف يدخلها هاني ويختبئ بها دون أن يجده رجالي؟

أجابه مروان بجمود من يبذل مجهودا للسيطرة على مشاعره:

- هو لا يختبئ هناك هو يعمل هناك معلما للغة الفرنسية . ودائما يتواجد الساعة السابعة بها. يمارس مع تلاميذه الرياضة والقراءة وغيرها من الأنشطة.

هب نادر واقفا هاتفا بذهول:

- ماذا ؟! يختطف زوجته من المستشفى ورجالي يقلبون عليه المملكة بحثا عنه. وهو يزاول حياته الطبيعية بلا أي مشاكل؟ ثم لماذا يعمل في المدرسة معلما وهو مدير شركة المملكة؟ أي غباء هذا؟

ضغط زر الرد في هاتفه ووضعه على أذنه:

- أراك ما زلت في مبنى إدارة المملكة ولم تحرر صديقاي . مشكلتك دائما الغرور. تظن نفسك عبقري العباقرة وأقوى الأقوياء.

صمت صوت هاني قليلا . كان كل هم نادر أن يتحقق من الصوت هل هو صوت هاني حقا ؟ عاد الصوت يقول بتحد وصرامة:

- أنا لا أقدم عرضي مرتين . لقد انتهى عرضك . لكن نصيحتي الأخيرة أن تولي هاربا إذا رأيتني . أقسم بالله العلي العظيم لو التقينا فلن يفارق سوادي سوادك حتى يموت الأعجل منا. لقد حكمت على نفسك بالموت. هاني الذي قتلت أمه وأخاه وابنه وأصحابه ليس هو هاني الرحيم مرهف الحس رقيق القلب الذي عرفته يوما.

انطلق صوت هاني فجأة وكأنه زئير أسد جريح ثائر:

- أنا الآن وحش جريح. سأمزقك إربا قبل أن أذبحك ذبح النعاج وأنتزع رأسك من فوق كتفيك.

أشعلت كلمات هاني غضب نادر فضرب المكتب بقبضته الحرة وهو يعتصر الهاتف بيده الأخرى صارخا:

- من أنت أيها الحشرة كي تهددني . أنت لا تملك إلا لسانا يتحرك.

ارتفعت ضحكات هاني لتأجج غضبه أكثر وأكثر قبل أن يقول:

- هذا في عقلك المحدود الذكاء فقط. إنما أملك الكثير ولأني أعرف غباءك المستحكم. وأعرف أن هذا سيكون ردك أرسلت لك هدية صغيرة. ستجدها أمام بوابة مبنى الشركة الآن .

استدار نادر الى النافذة الزجاجية الجدارية واقترب منها ليرى البوابة بوضوح فرأى رجال أمن البوابة يفتحون بوابة بحذر و يخرجون منه جثة مقطوعة الرأس .

اتصل عليه قائد حرس البوابة . وضع الهاتف على أذنه واستمع إليه يقول بفزع شديد:

- إنه سالم يا سيدي . ذبحه شخص ما ووضع على صدره عدة صور. يجب أن تراها.

- أحضرها لي فورا يا غبي. واتصل بالشرطة.

تحرك نادر في الحجرة صارخا :

- كيف فعل هذا ؟ بل كيف جرؤ على فعل ذلك؟

قال مروان بلهفة وتوتر:

- ما الذي حدث يا نادر بيك ؟

تطلع إليه نادر بشرود لحظات كأنه لم يسمعه قبل أن يقول:

- كنت أحسبه غبيا ثرثارا يحاول خداعي وإيهامي أنه هاني حتى أترك هاني وشهاب ولكن ....

صمت لحظات مفكرا قبل أن يستطرد بشرود مفكرا كأنما يحدث نفسه:

- تهريب رحمة وتعاون مدير المستشفى معه ، ثم قتل سالم الذي .....

لحظة ..... أول مرة طالبني بترك شبيهه على حد ادعائه وشهاب وناصر. أما الآن طالبني بهاني وشهاب لماذا لم يطالبني بناصر ؟ هل يعلم أنني .....وحتى لو علم لماذا لم يذكر ذلك.

صرخ عندما سمع طرقات على الباب يأمر الطارق بالدخول، واندفع نحوه يختطف الصور منه طالعها ذاهلا كمن تلقى ضربة عنيفة على رأسه أذهبت صوابه قبل أن يصرخ هائجا:

- من التقط هذه الصور؟ هذا مستحيل.

حاول مروان أن يلقي نظرة على الصور في يدي نادر ولكنه كان يوليه ظهره. ضم نادر الصور بقبضتيه وألقاها بكل قوته صارخا بغضب ثور هائج:

- مستحيل .. الذي التقط هذه الصور ..... هل كان يعلم ؟ مستحيل ... أحتاج أن أفهم .... أستوعب الذي يحدث .

استدار إلى مروان الذي لم يفهم كلمة واحدة مما قال نادر وتطلع إليه طويلا في صمت وشرود يحاول أن يتخذ قرارا بشأنه . هل يستعين به ضد هاني ؟ هل من الممكن أن يثق به؟ لقد كان أحد المقربين لهاني . ولكنه لم يكن يعرف أنه قاتل أبيه . فها قد علم ، فلمن سيكون ولاءه . قرر أن يجرب ولكن بحذر.

- هل يمكنني أن أساعدك يا سيدي ؟ لم أفهم ما يحدث ؟ ولكن كل ما أعرفه أن هاني عدوك ويثير لك المشاكل؟ وهو قاتل أبي . وما أحب إلي في الدنيا الآن سوى قتله.

حاول نادر السيطرة على أعصابه الثائرة . عاد إلى مقعده خلف المكتب جلس عليه صامتا يتأمل مروان بعينين ضيقتين قبل أن يقول بصوت يبذل مجهودا جبارا

ليسيطر على ثورته :

- هو قتل والدي أيضا ليستولي على مملكتي . وهو لديه شفرة خزينة المملكة التي تحوي مال المملكة كله. أريد مالي أولا ، ثم نشترك في تمزيقه بعدها. المهم نحصل عليه أولا.

استرخى في مقعده وأغمض عينيه في محاولة لتهدئة أعصابه وهو يقول:

- هل أنت واثق أنه في المدرسة الآن ؟

- هو لا يتأخر أبدا عن السابعة . لقد كنت يوما أحد تلاميذه.

ظل نادر مغمضا عينيه وهو يقول:

- مع عدم اقتناعي بفكرة أن يكون مليونيرا بل ملياردير‌ا ويصر على أن يكون معلما صعلوقا يعمل تحت إمرة مدير غبي يتحكم فيه و موجه متعنت. يقهره طلاب متخلفون. ويجادله أولياء أمور جاهلون ليل نهار. هل ممكن أن يصل غباؤه درجة أن يتحداني بهذه الدرجة ويذهب إلى مدرسته ويمارس عمله الغبي كأن الأمور طبيعية.

أخرج مروان هاتفه من جيبه وهو يقول :

- أتمنى أن يكون بهذا الغباء .

اتصل برقم هاني وضغط زر الميكروفون ليستمع نادر إلى المحادثة:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته معلمي .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا مروان كيف حالك ؟

- ليس على ما يرام يا معلمي . عندي مشكلة.

أتاه صوت هاني قلقا :

- ماذا جرى يا مروان؟ هل أصابك مكروه؟

- والدتي يا أستاذ هاني أصابها ألم شديد في بطنها أمس. وعندما ذهبت بها للمستشفى قرر الأطباء أنها تحتاج عملية جراحية و .....

قاطعه هاني باهتمام شديد :

- فهمت يا مروان . لماذا لم تتصل وقتها ؟ ألم أشدد عليك أن إذا صادفت أي مشكلة تتصل بي فورا. حسابك معي عسير على هذا .

- لم أرد إزعاجك يا أستاذ هاني فقد كان الوقت متأخرا . و....

- المهم ... الزمها ولا تتركها حتى آتيك . سأتصل بالدكتور رأفت يقوم باللازم حتى أصل.

أشار إليه نادر أنه قبِض عليه منذ قليل فقال :

- لقد قبضت الشرطة عليه منذ قليل.

- ماذا ؟ لما ؟

- لا أدري يا أستاذي . ولكن .....

- لا بأس يا مروان تعال إلي ، أنا في المدرسة الآن . عندما تصلني أكون قد أحضرت لك المال الكافي.

- أشكرك يا أستاذي . عشر دقائق فقط وأكون عندك.

عندما أغلق الخط كان نادر يعتصر ذهنه عصرا . هذه المحادثة بسيطة لدرجة تدعوا للريبة. في نفس الوقت الذي يبحث رجاله عن هاني ويقلبون عليه المدينة يتجول هو في الشوارع ويذهب لعمله ويواعد أتباعه . باختصار حياه طبيعية مائة في المائة . وهذا يعني أن في الأمر خدعه. ما هذا إلا استدراج .

رنا نادر لمروان لحظات في صمت قبل أن يقول:

- سأرسل معك خمسة من أشد رجالي . أريد هذا الحقير بين يدي خلال ساعة واحدة . إن فعلت فلك عندي مكافأة ضخمة وترقية أيضا.

قال مروان بمقت وغضب:

- كل ما أريده يا سيدي أن أريق دمه بيدي، ذلك الذي حرمني من أبي وظل يخدعني كل هذه السنوات ويوهمني أنه يحبني كابنه.

خرج كلاهما من المكتب كل إلى وجهته. وجد مروان خمس رجال أشداء ينتظرونه عند بوابة الشركة فانطلق بهم إلى المدرسة وهو يعد خطة محكمة لاصطياد هاني. أما نادر فاستقل المصعد مع حارسيه وضغط زر الطابق تحت الأرضي .وأجرى أثناء هبوط المصعد عدة مكالمات :

- الأولى لقائد الأمن الخاص لمدينة المملكة الذي يقود رجالها في حملة البحث عن هاني . وطالبه برفع عدد رجال الأمن من مائتين إلى ألفين خلال ساعات قليلة وأنه سيلتقي بهم جميعا الساعة الثانية عشر في ميدان المملكة.

- الثانية لقائد فريق رجاله الخاص عنفه فيه على مقتل سالم القناص ثم أمره بإحضار الدكتور رأفت من قسم الشرطة واحتجازه في مكان آمن. وأمره بالتواصل المستمر بينه وبين رجاله حتى لا يتكرر ذلك الأمر. وأمره بإرسال أحد رجاله يراقب ما سيحدث في المدرسة ويوافيه بتقرير عاجل مفصل. وأن يبحث عن جثة ناصر ويعرف إلى أين ذهبت هل وجدها أحد أم لا.

- الثالثة وهو يغادر المصعد إلى ممر طويل على جانبيه أبواب حجرات كثيرة للمقدم شاكر الذي تسلم العمل في قسم الشرطة بعد العقيد مجدي حسين. وطلب منه الإفراج عن الدكتور رأفت .

ثلاث حراس متحفزين مسلحين بجوار المصعد يراقبون شاشة مراقبة صغيرة تنقل لهم ما بداخل المصعد. تجاوزهم نادر وحارسيه بخطوات سريعة غاضبة.

ثلاث حراس آخرين أمام غرفة الخزينة يراقبون ما يحدث داخل الغرفة على

شاشة مراقبة صغيرة بجوار الباب. فتح أحدهم الباب المعدني بسرعة ليتجاوزه نادر وحارسيه . كان هاني يمارس التمارين الرياضية بحماس وحيوية وجسده يتصبب عرقا وملابسه مبتلة تماما كأنه خرج توا من حوض استحمام . تطلع إليه نادر بدهشة واضحة لم يستطع السيطرة عليها في ملامحه وصوته وهو يقول:

- ماذا فعلت لتغرق في العرق هكذا؟

توقف هاني عن الحركة وهو ينهج بشدة . قال بصوت متقطع من نهيجه:

- يوجد اختراع اسمه الطرق على الأبواب المغلقة. ألم تسمع به من قبل؟

دنا منه نادر وهو يتطلع إلى عضلاته اللامعة بفعل العرق، النافرة بفعل الرياضة وقد خلع ملابسه الشتوية ووقف ببنطاله وفانلته الداخلية الملتصقان بجسمه بسبب العرق ، وقال بتهكم:

- أراك قد استعدت حيويتك وروحك المعنوية مرة أخرى.

مسح هاني عرق وجهه بيديه قائلا:

- وجودك وحده هو الذي يحطم معنوياتي.

وقف نادر أمامه مباشرة وتبادل معه نظرات التحدي لبضعة دقائق في صمت قبل أن يقول بصوت أقرب للهمس:

- ما رأيك أن ننهي هذا الموقف السخيف؟ ألا تريد أن تخرج للحياة وتمارس حياتك أم تريد أن تموت هنا ؟

تحرك هاني في الغرفة الصغيرة بخطوات استعراضية عاقدا كفيه خلف ظهره:

- أي حياة تتكلم عنها يا فتى ؟ لقد قص علي شهاب كل شيء . ومع ذلك لم أتذكر أي شيء مما ذكر .أنت تريد شفرة فتح خزينة أنا لا أعرف حتى أين هي ولا ما تكون ولا كيفية إدخالها. أنا حتى الآن لا أثق أنني الشخص الذي تتحدثان عنه. هذه الخزعبلات لا أعرف عنها شيئا. هناك دلائل أن كلامكما صحيح ولكن لا يستطيع عقلي هضم مصداقية الأحداث نفسها.

كان نادر يتابع حركاته في الحجرة وقد بدأ حارسيه يتوتران ويتحفزان :

- يمكننا أن نتعاون لإيقاف مذبحة جديدة:

توقف هاني عن الحركة وهو يقول :

- عظيم .. يسرني ذلك فعلا. ولكن أخبرني كيف؟ ولكن قبل أي حوار يجب أن تحرر صديقي أولا .

تطلع نادر إلى شهاب وقد ذبل ونحل وبلغ منه الهزال مبلغه ثم تمتم:

- لا بأس . ما عاد يمتلك أي قوى نخاف منها.

أشار نادر لأحد حارسيه بتحرير شهاب . فأسرع إليه وهو يخرج المفتاح من جيبه، وبينما يحرره قال نادر:

- ذلك الشخص في الخارج الذي ينتحل شخصيتك استطاع تهريب زوجتك وقتل أحد جالي وألقاه أمام بوابة الشركة ويهددني بثبات وثقة عجيبة. لكن ليس هذا ما أزعجني بقدر تلك الصور التي أرسلها لي مع الجثة.

- لماذا ؟ هل كانت تحمل وجهك ؟

لم يلتفت لتهكمه وهو يجيب:

- بل كانت ليوم المذبحة . كانت لقناصي وهو يطلق النار على العقيد مجدي و صاحبك عبدالله . وصور لهما وهم يسقطان صريعين . من التقط هذه الصور ؟ هل كان يعرف مخططاتي؟ هذا مستحيل.

- لماذا لا يكون هو هاني عامر فعلا ؟

- ومن أنت إذا؟

- أنا هاني عامر أيضا.

- وأمك أمه وأخوك أخوه وزوجتك وابنك و .....

قاطعه هاني قائلا بجدية وهو ينظر إلى شهاب الذي عجزت ساقاه عن حمله فرقد على الأرض بإعياء شديد:

- سيادتك لم تنتبه لشيء خطير.

ضاقت عينا نادر بتفكير عميق وهو يتابعه .

- وما هو؟

- ناصر أو بدر وأخيه سام .

لم يعلق نادر وهو يحاول أن يستنتج ما سيقوله هاني ولكن عبثا لم يصل لشيء. وتركه هاني يأخذ وقته وهو يتأمل حارسيه باستهزاء قبل أن يسأله الأخير

بحيرة:

- ما لهما وما نحن فيه، كلاهما مات.

قال هاني بأسى:

- نعم كلاهما مات ولكن ....

صمت ليثير فضوله للحظات قبل أن يتابع:

- ألا تذكر أن سام كان يتحكم في جسدي شهاب و هدير في وقت واحد. وكاد يفلح في قتل هاني بهذه الطريقة؟

- بلى.

ألا تذكر أن سام عندما خرجت نواته من جسمك إلى الأرض لتمر بمرحلة النبات ليكون جسمه تحت الأرض كالنباتات الدرنية كونه مطابقا لجسم شهاب؟

- هل تقصد أنك مجرد جسم يتحكم فيه ناصر؟ لكن ناصر مات. وأنت تتصرف بشكل طبيعي.

- هناك احتمالان منطقيان في هذه القصة التي تفتقر للواقعية والمنطقية. إما أنني هاني ولكني فاقد الذاكرة كما يقول شهاب .

- والاحتمال الثاني؟

جثى هاني على ركبتيه بجوار شهاب يمسح على شعره ويقول بحنان:

- هل أنت بخير يا صديقي؟

قال شهاب بصوت واهن:

- لا أقوى على الحراك.

صاح نادر بغضب:

- والاحتمال الثاني؟

تطلع إليه هاني وهو يعتدل واقفا ليواجهه من جديد ويقول :

- الاحتمال الثاني أنني مجرد جسم كونه ناصر ليكون بديلا لهاني حين الضرورة . وهو يتحكم بي كما كان يفعل ناصر مع شهاب وهدير.

قلـب نادر الكلام في رأسه لحظات في صمت ثم قال:

- وإن كان كلامك على شيء من المنطقية إلا أنه توجد به ثغرات . مثلا ، لماذا لم يتحكم فيك ناصر ويحاول إنقاذ نفسه عندما كنت أقتله.

ابتسم هاني وهو يقول لنفسه : – "ما هذا الهراء الذي تتفوه به يا هاني ؟ هل من الممكن أن يقتنع نادر بهذا؟ أنا نفسي غير مقتنع بكل هذا الهراء ." كتم هواجسه بداخله وهو يتابع بجدية ليوهم نادر بحقيقة ما يقول:

- عندما انفجرت السيارة بعائلة هاني اندفعت نحوها بجنون غير مصدق ومع اقترابي انفجرت مرة أخرى فأصابني جزء معدني منها في رأسي . ربما هذا الذي حررني من سيطرة ناصر. خاصة أنه سقط في أيديكم فاقد

الوعي في نفس الوقت وكذلك أنا ولم نستفق إلا اليوم ثم كان ما كان.

تطلع إليه نادر في تمعن يحاول أن يستشف صدقه من كذبه:

- وأين كان هاني ساعة المذبحة ؟ ترك عائلته وأصحابه يموتون واكتفى بالتصوير ليحتفظ بالصور كذكرى؟

- هذا غير منطقي طبعا . لو كان موجودا لما وقف يتفرج على أحبابه يقتلون. هو بالتأكيد كان في مكان آخر.

- وأين كان طوال هذا الأسبوع؟ لماذا لم يتحرك لإنقاذكم ؟

- ببساطة ينتظر تمام شفاء رحمة زوجته . وليبني خطة محكمة ويعد لها العدة. وأيضا لا يعرف مكاننا . وما أن يعرفه حتى يسعى لإنقاذنا.

تطلع إليه نادر بدهشة وحيرة وهو يقول:

- تعطيني تفسيرات محكمة كأنك كنت معهم .

تحرك هاني نحو أحد الجدران يتأمله وهو يقول:

- أولم أكن معهم؟ أعتقد أيضا أني لست فاقدا ذاكرتي . أنا ليس لي ذاكرة خاصة بهذه السنوات لأنني لم أكن إلا دمية يحركها ناصر كيف يشاء. وهذا لا يعني أنني بلا ذاكرة تماما ، فلدي ذاكرة هاني القديمة فقط حتى عام ١٩٩٩ . وبين عامي ١٩٩٩ وهذا العام ٢٠١١ ذاكرة متقطعة متوارية لأنها كالأحلام بالنسبة إلي. فقط تحتاج لإنعاش.

وضع كفيه على الجدار يتأمل الشبكة التربيعية المرسومة كنقش بخطوط رقيقة على الجدران كلها، مساحة المربع الصغير فيها ثلاث سنتيمترات مربعة، وهو يقول معتصرا ذهنه:

- فمثلا، أنا أشعر أني كنت في هذه الحجرة من قبل . وأشعر أن بين هذه المربعات مربعا ذا قيمة.

اقترب منه نادر وهو يتابعه باهتمام ومد يده ليضغط على مربع لا يختلف عن إخوانه شيئا. فتحرك مربع كبير طول ضلعه خمس مربعات صغيره، ليكشف خلفه لوحة مفاتيح تحمل الأرقام من صفر إلى تسعة، فوقها شاشة صغيرة أضاءت مع فتح الباب الصغير الذي كان يغطيها، و تحت الأرقام صف من ثلاث أزرار. أسرع هاني يضغط الزر الأول من اليمين قائلا بلهجة من أثبت صدق كلامه:

- أرأيت ؟

تحرك الجدار الصغير الذي طوله متران المواجه لباب الغرفة صاعدا لأعلى ليختفي في السقف ليكشف عن باب بجواره ثلاجة ضخمة .

التفت إليه نادر قائلا:

- عظيم .. هذا الجزء أنا أعرفه . الآن أريد الشفرة هل يمكنك تذكرها؟

- ما دمت قد جئت هنا من قبل . فلربما أستطيع ولكن هذا يحتاج صفاء ذهن . ويحتاج أيضا اتفاقا .

- اتفاق؟!

قالها نادر باستنكار وهاني يتجه إلى الثلاجة ، فتحها وأخرج منها زجاجة ماء باردة وطبق فاكهة ببساطة من يتجول في بيته ويستمع إلى نادر يحدثه كما لو كانا صديقين:

- أي اتفاق يا قزم. ألا تقدر موقفك . أنت بين يدي الآن . وهذا الغبي الذي يساعدك في الخارج قدم لي روحك على طبق من ذهب لقد أثبت وجوده رسميا في المستشفى ثم اليوم في المدرسة . أي أنني إذ أقتلك الآن أقتل شخصا ليس له وجود.

جلس هاني بجوار شهاب يسقيه الماء . أقبل شهاب على الماء بنهم شديد لكن هاني منعه. أعطاه رشفة صغيرة تبلل شفتيه وفمه بالكاد ، ثم سقاه رشفة أكبر ثم ترك له الزجاجة . اعتدل في جلسته يواجه نادر قائلا بهدوء وبساطة:

- هذا القزم الذي تدعيه يحمل ملامح هاني وشخصيته وكل قدراته. وهاني هذا لم تواجهه قط إلا وتولي عنه تجر أذيال الخيبة والخسارة. أليس كذلك؟

بدى الغضب على ملامح نادر ونبرات صوته وهو يقول:

- ما اللعبة التي تحاول لعبها معي؟ في المرة السابقة عندما تقمص ناصر وياسر شخصيتك ، كان لذلك فوائد كثيرة غير إرباكي. أما الآن ما فائدة ما تفعله؟ تحاول إقناعي أنك لست هو وهو يحاول إقناعي أنه أنت؟ لماذا؟ ولماذا يخفي وجهه عن كاميرات المراقبة في المستشفى ؟ إلا إذا كان مخادعا.

تناول هاني زجاجة الماء، و ارتشف منها رشفة صغيرة بلل بها شفتاه وتمضمض بها ثم بصقها على جانبه و قال بابتسامة تهكم:

- يحب أن يلاعبك. يريدك أن تنفعل فتتخبط كالأعمى لا تدر مع من تتعامل ولا ما خطوته القادمة فتنشغل بمحاولة تحديد ملامح خصمك في حين يتسلل هو إليك ليقتلك.

رفع الزجاجة على فيه وهو يتأمل شهاب ينقض على طبق الفاكهة انقضاضة أسد يموت جوعا على فريسته. في نفس الوقت كان نادر يتأمل هاني بدهشة وتساؤل: هاني يشرح له الموقف مفسرا إياه بكل وضوح ومنطقية. هل يساعده أم يخدعه؟ الراجح طبعا أنه يحاول خداعه، تحليله يبدو منطقيا جدا. ولكن لا يمكنه تخيل أن الذي أمامه ليس هاني . وكذلك أيضا الذي يكلمه في الهاتف. ألقى نظرة على ساعته وهو يشعر باختناق لقد كاد كل شيء تقريبا أن يؤول إليه لولا ظهور هذا الذي يدعي أنه هاني في الخارج. فبدأت الخيوط تتفلت من يده هل سيتمكن مروان ومن معه من القبض عليه. إن كان هو فصعب. وإن كان شخصا آخر فممكن. هذا اختبار لهاني ولمروان أيضا. من المفترض أن يكون مروان في المدرسة الآن . فليتحلى بالصبر لدقائق وسيرى.

همس شهاب في أذن هاني بصعوبة وهو يمضغ التفاح الذي يملأ فمه:

- هل فعلا تحاول التعاون معه ؟ أم يهيأ إلي؟

قبل أن يجيبه هاني رن هاتف نادر فأجابه نادر بسرعة ولهفة وما أن سمع صوت مروان في الناحية الأخرى حتى تهللت أساريره وارتسمت عليها ملامح

الظفر والشراسة:

- أحسنت يا مروان . أحسنت . لك عندي مكافأة عظيمة.

ثم التفت إليهما قائلا :

- لقد سقط مساعدكما الخارجي.

ارتفع صوت شهاب مذهولا:

- مروان ؟! مروان يساعدك ؟

- أتى دوري لأوجه لكما النصح. تعلما كيف تفرقا بين أعدائكما وتوقعا بينهم العداوة.

قال شهاب بمرارة وقد توقف عن المضغ:

- لقد كان هاني يعامله كولده.

- وظيفته في الشركة والراتب الضخم أهم من هاني خاصة عندما يكون هو قاتل والده.

قال هاني وهو يتناول طعامه من الفاكهة بلا مبالاة:

- لا يهمني مروان هذا الذي تتكلمان عنه. ولا يهمني هاني هذا الذي يحاول مساعدتي سواء قبضت عليه أو قتلته. لا يهمني سوى الخروج من هنا. لقد وقعت لك على الأوراق التي تريد. ولديك الآن هاني الحقيقي. ماذا تريد مني؟

ابتسم نادر ابتسامة خبيثة وهو يقول:

- ليس هو الحقيقي يا بطل . هو زائف ، أنت الحقيقي.

تابع وهو ينظر في عيني هاني بشراسة :

- كاد تحليلك يخدعني . سأنصرف الآن , لدي بعض المهام . عندما أنهيها وأعود لن أخرج من هنا إلا بمالي أو رأس صاحبك هذا.

◆◆◆◆◆◆

(٤) المعلّم

وقف نادر بشموخ وعظمة يكاد جسمه يشع زهوا واحساسا بالظفر فوق مبنى لم يكتمل بعد على حدود المدينة - طابق لم تكتمل جدرِه ، تعصف بهم رياح باردة تهب شديدة ، لولا أنصاف الجدر لأطاحت بهم. سحب داكنة تحجب الشمس وتمنعها من إطلاق دفئها . شاب رياضي ممشوق القوام وسيم له لحية هاني بخصلاتها الذهبية وشاربه القصير، مقيد الساقين بإحكام بحبل غليظ وكذلك يديه خلف ظهره في منتصف الغرفة نصف المبنية. مروان خلفه ونادر وحارسيه أمامه. صاح نادر متهكما وهو يتطلع إليه باحتقار:

- أنت ؟! أنت الذي تحديتني ؟! وظننت أن بمقدورك الصمود أمامي؟

انطلقت قهقهات الشاب عالية ترج المبنى كله كأنما فقد عقله دفعة واحدة وطالت مما أشعل غضب نادر الواقف أمامه فلكمه مروان بقوة في مؤخرة كتفه وهو يصيح بصرامة وغضب:

- لم تسمع طرفة أيها المتحذلق.

تظاهر الشاب بمحاولة التخلص من ضحكاته وهو يقول من بينها :

- بل هي كذلك أيها الكلب المدلل.

لكمه مروان لكمة أشد من سابقتها في نفس الموضع:

- ألا تدرك حقيقة موقفك يا صاح؟ لقد انتهت اللعبة.

أشار له نادر أن يهدأ وهو يوجه حديثه الساخر للشاب :

- اهدأ يا مروان. نبدأ حوارنا باللين ربما يتعاون هذا الجميل معنا ولا يؤزم الموقف.

ثم وجه حديثه للشاب بتهديد:

- أنت تعرف طبعا أن القتل صار متاحا في هذه الآونة . تكفي مظاهرة تتحول لمعركة ثم تجمع الجثث ويحصلون على لقب (شهيد الثورة). أو حتى إلقاء جثتك في أي شارع ولن تجد من يهتم إلا الباكين عليك فقط.

لم يجبه الشاب إلا بابتسامة ساخرة على الجانب الأيسر من شفتيه. دنا منه نادر قائلا:

- من أنت ؟ ولماذا تنتحل شخصية هاني عامر؟ وأين رحمة زوجته؟ وأين جثة ناصر أخيه. لقد علمت أنك حملته للمستشفى ، ومع ذلك لا يوجد مستند رسمي واحد يدل أنه دخلها ولا هو فيها ؟

لم تتغير ابتسامة الشاب ولا نظرته الساخرة لنادر. جلس مروان القرفصاء قابضا على عنقه من الخلف بقسوة صارخا فيه:

- ألم تسمع ؟

رغم الألم في عنقه من قبضة مروان القوية إلا أنه بدا هادئا متماسكا مبتسما بتهكم ، أثار ذلك حنق نادر وأشعل نيران مقته في نفس الوقت فدنا أكثر منه وهو يقول من بين أسنانه:

- جميل .. تعجبني يا فتى . أحب هذه الشخصية الثابتة الواثقة .

ثم صرخ في وجهه مباشرة بصوت هادر:

- خاصة عندما أحطمها تحطيما.

انتفض الشاب بعنف ثم تمالك نفسه بسرعة واسترجع ابتسامته وهدوءه وهو يقول بثبات وسخرية :

- اهدأ يا سيد نادر . هذا خطر على أحبالك الصوتية. لا تجعل خصمك يفقدك أعصابك أبدا. فهذه أول خطوة نحو هزيمتك.

ضغط نادر على أسنانه في غضب شديد وهو يقول بصوت مكتوم:

- نفس الأسلوب الغبي. من أنت يا أحمق ؟ لقد نفذ صبري.

بدأت قطرات المطر تتساقط . خفض الشاب بصره لحظات مفكرا ثم قال:

- وماذا بعد أن أتكلم ؟ أنت تدمر كل من يتعاطف مع الأستاذ هاني فضلا عن مساعدته. فماذا تفعل معي وأنا يده التي يبطش بها؟

رفع نادر بصره إلى السماء والمطر يزداد غزارة ثم نظر للفتى لحظات في صمت قبل أن يقول:

- لقد استوعبت نقطتين من جملتك هذه، الأولى أنك تنفذ أوامره . والثانية أنك تريد ضمانا لنجاتك إن تكلمت. أهذا صحيح؟

ضحك الفتى ومياه المطر تنساب على وجهه وقال من بين ضحكاته:

- إلى حد ما .

- ماذا تقصد؟
- في كل الأحوال أنت لا ضامن لك. أنت خائن .من يقتل أباه لا يمكن الوثوق به . من يستغل كارثة بلده لانتهاك الحرمات وتحقيق مكاسب دنيوية على أرواح الأبرياء لا يمكن الوثوق به. لذلك تراني واثقا هادئا. ليست قوة شخصية وثقة بالنفس كما تظن. وإنما يقينا بأنها النهاية، فأتقبلها بصدر رحب، لأني أتوقعها منذ البداية.
- ولماذا ؟ ما دمت تعلم النهاية لما تضع قدميك على البداية؟ أليس هذا حمقا؟

هطلت الأمطار غزيرة والشاب يقول وابتسامته الساخرة تتسع كأنما يستمتع بلسعات البرد والمطر:

- بل الحمق أن تسلك الطريق وأنت لا تعلم منتهاه وتستعد لسيئه قبل جيده . هكذا علمني معلمي. أما أن تضع قدمك على أوله وأنت تحسب كل خطواتك. وتفترض النهايات المتوقعة ، وتستعد لأسوئها قبل أحسنها ، فهذه هي الحكمة بعينها.
- هذا لو كانت النهاية جيدة.
- ما دمت أعلمها وأختارها فهي جيدة.
- موتك من أجل مساعدة هاني جيد؟!
- موتي من أجل ما أؤمن به جيد. وأنا أؤمن أن الأستاذ هاني مظلوم وأنت ظالم . وعلمني معلمي أن أقف مع المظلوم في وجه الظالم.
- لماذا أنت هنا أذا؟ من يؤمن بمثل هذه الخزعبلات هناك في التحرير.

ثم قهقه ساخرا وهو يردف:

- ينادون بشعارات تافهة مثل ذلك. حرية ، مساواة ، وغير ذلك. حتى بعد أن تنحى مبارك و تسليم السلطة للمجلس العسكري كمرحلة انتقالية مازالوا في الميدان . أمس فقط كانت (جمعة النصر) كما يسمونها ، يحتفلون بانتصار الثورة.
- علمني معلمي أنه لا يجوز الخروج على الحاكم المسلم، لا بثورة ولا مظاهرة ولا اعتصام ولا أي شيء مشابه. علمني أنه لا يجوز الخروج على الحاكم إلا بثلاث شروط ، أن يكون كافرا . أن يكون لدي القدرة والعدة التي تؤهلني للنصر، وأن يكون لدي البديل المسلم. ولم يتوفر لدينا شرط واحد هنا.
- أمرك غريب يا فتى .تضحي بحياتك من أجل هاني لأنك مؤمن بنصرة المظلوم ضد الظالم. وترفض الثورة رغم أنها نصرة للمظلوم ضد الظالم. أي منطق هذا .
- ليس منطقي . هو شرع قائم على قرءاننا وسنة نبينا واجتهاد علمائنا المسلمين.
- وكل هؤلاء اللذين خرجوا في الثورة لا يعلمون حقيقة الشرع ، أنت فقط ومعلمك الأحمق اللذان تعلمانها.

تحول وجه الفتى للغضب واكتست به لهجته وهو يقول :

- الأحمق هو الذي يقف مجادلا في قضية شرعية وهو لا يفقه كيف يتوضأ ويصلي . الأحمق هو الذي يجادل بكلمات سمعها لا يدري منبعها ومصبها في علم لم يفتح فيه كتابا ولم يحضر فيه درسا.

هوى نادر بصفعة أودعها كل مقته وغضبه على وجهه فاتقدت عينا الشاب غضبا وهو يصيح بأعلى صوته:

- أمثالك هم آفة مجتمعنا . يستغلون حماس الشباب وقوتهم وجهلهم لتحقيق مطامعهم سواء كانت مادية أو سياسية. هذه ليست ثورة .
-
وما هي إذا أيها المحلل العبقري؟
- هي مكيدة لتحصيل مكاسب دون اعتبار لمن يدفع الثمن ، ثم اتسعت الدائرة ليستغلها كل من له مصلحة .
- أعترف أني واحد من هؤلاء . ولن أسمح بخسارة ما حصلت عليه . وستخبرني الآن أين هاني وإلا .....

كاد الفتى يقول شيئا ما لولا أصدر هاتفه المحمول رنينه المكتوم الذي كاد يتلاشى بين زئير الرياح وصوت ضربات المطر على المبنى غير المكتمل . ولكن أذنا مروان التقطته فأسرع يفتش الفتى حتى استخرجه من جيب سترته الداخلي. حماه بجسده من المطر. وهو ينظر إلى شاشته ويقول:

- إنه هاني يا سيدي، يتصل به.
- لا ترد عليه الآن. لا أريده أن يعرف أن مساعده سقط بين أيدينا.

وضع مروان الهاتف في جيب سترته الداخلي ليحميه من المطر وقال موجها حديثه لنادر:

- لدي اقتراح بعد إذنك يا سيدي.

نظر إليه نادر نظرة تعني قل ما تريد. فاستطرد مروان:

- حاليا لن يمكننا الحصول على معلومة من هذا الفتى. أنا أعرف هذه الأرواح الغبية . لكن أعدك أنني سأحصل من هاتفه هذا ومنه أيضا بعدها كل ما تريده. يمكننا تركه هنا الآن لهذه الأمطار وهذا البرد ينهشا في جسمه حتى نقرر العودة له. ويجب أيضا أن تعود سيادتك للبيت لتغير ملابسك هذه تقية من البرد.

صمت نادر لبرهة وهو يرمق الفتى بغضب ثور هائج وهو يقلب كلمات مروان في رأسه وأطرافه ترجف بردا. ثم تمتم بحنق:

- معك حق يا مروان . هيا بنا .

قالها وأشار لحارسيه كأنما تذكر البرد أو كان ينتظر مثل هذه الكلمة. استقل الأربعة سيارة نادر بعد أن أكد الأخير على الذين تركهم لحراسة الفتى أن يقتلوه عند أدنى محاولة للفرار، أو أية محاولة لإنقاذه. وبينما مروان يتفقد الهاتف وما يحتويه من بيانات. كان نادر يتصل بقائد رجال الأمن ليتأكد من كونه يجمع العدد الذي طلبه فبعد قبضه على الشاب الذي ظنه هاني أو منتحل شخصيته اكتشف أنه مجرد مساعد . وهذا يضاعف حجم المشكلة فبعد أن كان يظن أن خصمه فرد اتضح أنه اثنان وربما أكثر. وأخبره الرجل أنه جمع العدد المطلوب وبدأ في عملية النقل بالفعل. بعدها أجرى مكالمة أخرى لقائد رجاله ليطمئن على اختطافهم للدكتور رأفت فأجابه صوت هاني قائلا بتهكم:

- أشكرك على هذه الهدية القيمة .

صعق نادر من المفاجأة وتجمد لسانه فتابع هاني :

- هل أكل القط لسانك أم عنق زعيم عصابتك الإجرامية؟

لم يستطع نادر التعليق وعقله لا يقوده إلا إلى استنتاج وحيد.

- كانوا أربعة سقط اثنان ويتبقى اثنان.

كان يعلم ما يقصده ، أربعة هم الذين اشتركوا في القتل في ذلك اليوم الذي تخلص فيه من كل خصومه . واضح أن هاني هذا أو منتحل شخصيته التقط أو حصل على صور تلك المظاهرة بطريقة ما ، وتعرف فيها على شخصية الأول أو الاثنين وقبل أن يقتلهما جعلهما يعترفان على الآخرين. انطلقت قهقهات هاني تمزق أي إحساس بالظفر والثبات في قلبه . انقطع الاتصال ولكن أمله لم ينقطع . خلال ساعتين فقط سيكون لديه جيشا من ألفي رجل. سيقلب المملكة رأسا على عقب . سيقلبها حجرا حجرا وسيعثر عليه ويمزقه بعد أن يحصل على ماله. أوقف السيارة وترجل منها هو مروان الذي قال:

- أستأذنك يا سيدي في العودة لبيتي حتى أغير ملابسي و.....

قاطعه نادر بإشارة صارمة وهو يسرع مرتجفا من البرد:

- تعال معي يا مروان . لا يمكنك أن تمشي هكذا.

اعتدل حراس الفيلا واقفين في توتر وتحفز فقليلا ما يرون نادر في الأيام القليلة الماضية ، ودائما يكون عصبيا صارما غاضبا شديد القسوة. كأنه يريد أن يملأ قلوب رجاله بالخوف منه حتى يضمن ولاءهم وتنفيذهم لأوامره. أسرع أحدهم يفتح له باب الفيلا في توتر. خطى إلى الداخل ومروان وحارسيه يتبعونه ويقول :

- هذه فيلا والدي رحمه الله. انتقلت للعيش فيها بعد مقتله . ليست هي التي بنيتها وصممتها فلقد بنى والدي في موضعها مسجدا . بعد أن حاول شخص ما قتله بتفجيرها. هذه مجرد فيلا عادية كسائر فيلل المملكة.

كانت الردهة واسعة يبدو أنها كانت نظيفة جدا ولكن سادها الإهمال وعدم التنظيف منذ رحل عنها مالكها الأصلي وآلت إلى نادر.

- تشغلني أمور كثيرة كما تعلم عن الاهتمام بها . كما أني لا أتواجد هنا كثيرا . حتى النوم مع قلته غالبا يكون في مبنى شركة المملكة.
- لا تقلق يا سيدي. ستقر عينك قريبا جدا .
- كيف يا مروان ؟ ألا ترى هاني هذا كالسراب كلما وصلت إليه لا أجد شيئا. تعالى معي إلى الطابق الثاني نأخذ حماما دافئا ونغير ملابسنا بأخرى جافة ثقيلة . لقد ابتعت الكثير الذي لم أستخدمه بعد .

بدءا صعود السلم ومروان يقول بغلٍ شديد:

- صدقني يا سيدي لن يستمر الحال هكذا. لقد توصلت إلى الكثير من هاتف ذلك الفتى الذي قبضنا عليه.
- وما الذي يمكنك الحصول عليه من هاتفه؟ قائمة أسماء؟ كيف نتعرف منها على مبتغانا؟ أم رسائل قد تكون من أرقام وهمية أو بشفرة ما لا نستطيع فهمها؟

ولج نادر حجرته وخلفه مروان وظل حارسيه خارجها، ومروان يجيبه :

- هناك فارق كبير بين هواتف اليوم وهواتف عام ٢٠٠٠ . هواتف اليوم أكثر في إمكاناتها من حواسيب تلك الفترة.

أسرع نادر إلى الحمِام قائلا :

- عندما أرتدي ملابسي وأشعر بالدفء نناقش هذه الاختلافات.

◆◆◆◆◆◆

- هاني.

أجابه هاني بنفاد صبر.

- لقد مللت هذا الاسم. هل يروق لك؟ هل له مذاق طيب في فمك تحب أن تجربه كل فترة؟
- أنت تتأمل لوحة المفاتيح هذه منذ أكثر من ساعتين دون أدنى حركة كأنك تمثال .

بدا شاردا تماما وهو يقول:

- أحاول أن أتذكر تلك الشفرة التي يتكلم عنها ذلك المجنون.

يحاول شهاب التحرك في الحجرة الضيقة ليستعيد نشاطه وإن بدا له ذلك ضربا من الخيال. كأن المسافة بينه وبين صحته صارت ببعد الشمس عن الأرض. قال من بين أنفاسه المتلاحقة وآلام مفاصله وعظامه وأنين عضلاته:

- وهل توصلت إلى شيء ؟

أجابه هاني دون تردد ودون أن يلتفت إليه:

- مطلقا. كأني أبحث في المكان غير الصحيح . أشعر أني أبحث في عقل غير الذي وضعت فيه تلك المعلومة. لماذا لا تحاول مساعدتي؟
- وكيفَ لي أن أساعدك؟ هذه الغرفة لم يدخلها أحد إلا أنت وعبدالله والد نادر. ولم يكن يعلم الشفرة السرية غيركما.

التفت إليه هاني متسائلا :

- زوجتي، قلت لي أن اسمها رحمة وابني اسمه عبدالرحمن أليس كذلك؟
- بلى يا صديقي.
- هل تعرف تاريخي ميلادهما؟

راقب هاني تعبيرات وجهه بتعجب. هناك شيء غامض في ملامحه. كساها الحزن لمجرد ذكر اسم عبدالرحمن وأيضا قلق شديد، رغبة في البوح بشيء ما ولكنه يحجم عنه .

- تريد أن تخبرني شيئا ما . أليس كذلك؟

دنا منه شهاب وهو يهمس:

- توجد كاميرات مراقبة .. إنهم يراقبوننا طوال الوقت.

تلفت هاني حوله بدهشة قائلا:

- حقا... ماذا ؟ كاميرات مراقبة؟

توقف شهاب أمامه مباشرة وهو يقول :

- لماذا أنت مندهش هكذا ؟ كاميرات المراقبة منتشرة.....

قاطعه هاني:

- تنسى يا صديقي أنني جئت لزمنكم هذا منذ سويعات قليلة. كاميرات المراقبة والهواتف المحمولة والكمبيوتر ... كل هذا بالنسبة إلي خيال علمي ، وبالنسبة لكم واقع تعيشونه. رجاء لا تنس ذلك مجددا. المهم ما الذي تريد أن تخبرني به؟

مال شهاب نحوه وهمس في أذنه مباشرة:

- لقد كان لك ولدان عبدالرحمن و عبدالله. أعتقد أن عبدالله مازال حيا. لم ينقل لي نادر اسمه ممن ماتوا . هو لا يعلم بوجوده أصلا. لم أرد أن يعلم حتى يبحث عنه ويقتله أو يهددك به.

همس هاني بدوره :

- وأين يمكن أن يكون وحده؟ لقد مات كل من كان قد يهتم لأمره ؟ كم عمره؟
- كان هو وعبدالرحمن توأمان في العاشرة من عمرهما؟ أما أين هو الآن فالله أعلم بذلك . ولكن فهمت من نادر أن شخصا ما يحاول مساعدتنا ويلجأ لنفس خدعتك القديمة فهو يحاول إقناعه أنه أنت . وهذا الشخص خلص زوجتك رحمة من قبضته . أعتقد أن عبدالله معه أو مع والدته الآن.
- أين كان أثناء المذبحة ؟ من الطبيعي أن يكون مع أخيه وأمه .
- وهذا ما أنقذ أمه. بعد أن ركبت السيارة تذكرت أنك تركته في المسجد فوثبت منها لتدركه قبل أن تنفجر السيارة بلحظات.

ساد بينهما الصمت لبرهة من الوقت سالت فيها دموع هاني على وجنتيه لتبلل لحيته وهو يهمس:

- لا أدري هل هذا خبر سعيد أم حزين؟

لم يجبه شهاب. هو فعلا لا يدري. كونه حيا هذا جيد. وكونه وحيدا في هذا الوقت الذي انعدم فيه الأمن. انسحبت الشرطة ليس من الشوارع فقط بل من المراكز والأقسام نفسها. هذا الوقت الذي خرج مجرموا السجون إلى الشوارع, وظهر فساد كان دفين الصدور فيمن كان يظن فيهم الصلاح. وكثرت الاعتداءات بشتى أنواعها ولم تعد تتوارى حياء.

تراجع هاني وهو يفحص الجدران بعينيه ويتساءل والحزن ينهش قلبه:

- وكيف لا يعلم نادر بأن لي ولدان.

تضاعف حزن شهاب وهو يخفض صوته أكثر:

- أخفض صوتك. إن عبدالله لم يكن يظهر معك مطلقا. قليلا جدا ما يغادر البيت . ولم يكن يغادر إلا معي أو ياسر. فالجميع يعرف عبدالرحمن ولا يعرف عبدالله إلا المقربين فقط.

توقفت عينا هاني على كاميرا المراقبة فوق باب الغرفة وهو يقول مندهشا:

- غريب ذلك . ترى ما السبب لذلك؟

خفض شهاب رأسه وهو يزدرد لعابه بمرارة وألم ودفع الحروف دفعا من حنجرته وهو يقول بصوت لا يكاد يسمع:

- لقد كان أعمى . ولد بغير عينين.

اتسعت عينا هاني ذهولا وشفقة :

- لا إله إلا الله. وكيف يتدبر هذا المسكين أمره الآن؟
- ربما .....
- ربما ماذا يا أخي ؟ طفل أعمى عمره عشر سنوات وحيدا في وقت ينهش الأخ لحم أخيه. الفوضى صارت هي القانون الحاكم الوحيد . وتقول لي ربما؟ لابد أن نخرج من هنا. وإن كنت لا أذكر ولكن هذا لا يحجب حقيقة أن زوجتي وابني في خطر . في يد شخص لا أعرفه ولا أعرف مآربه وإن ادعى أنه في صفنا.

رفع بصره لكاميرا المراقبة مرة أخرى قبل أن يندفع إليها في حزم.

◆◆◆◆◆◆

تناول مروان السترة باهظة الثمن التي ما حلم أن يرتدي مثلها يوما, ونادر يسأله متعجبا:

- Fdsk ؟! وما الـFdsk هذا؟!

أجابه بحماس وهو يرتدي السترة الغالية:

- إنه موقع على الإنترنت للتواصل الاجتماعي بين الناس من شتى بقاع الأرض . يتمكنون من خلاله تبادل الحوار والصور أو حتى كتب كما يتيح نشر منشورات عامة على صفحاته.

- مثل الـ و ؟
- تقريبا . وهو من أسباب نجاح ثورة يناير حيث أعطى الفرصة للتنسيق بين المتظاهرين ليوحدوا لحظات خروجهم على نطاق الجمهورية فتعجز قوات الأمن عن التصدي لهم.
- حقا ؟ ..... وما الذي توصلت إليه من حساب ذلك الفتى؟
- الكثير يا سيدي . أولا هذا الفتى واسمه (يحيى خليل) ومعه آخرون تلاميذ للأستاذ هاني. وهو يوجه لهم الأوامر عبر حسابهم على الـ Facebook أو بالهاتف .
- ألا يمكنك حصرهم؟
- الذين كان يتعامل هذا الفتى معهم فقط . ولكن كما فهمت من الرسائل هناك آخرون يتعاملون مع هاني مباشرة. ربما يكونون مجموعات لكل مجموعة قائد يتلقى أوامره مباشرة من هاني ثم ينقلها إلى أفراد مجموعته.

قال نادر بعدم تصديق:

- مستحيل. متى استطاع تكوين هذا التنظيم؟ ولماذا يطيعونه بهذه الطريقة؟ ما المقابل الذي يجنونه؟

تأمل مروان شكله في المرآة بإعجاب وزهو وهو يقول:

- ليس تنظيما يا سيدي. هو فقط معلم مرتبط بتلاميذه وهم يحبونه ، ولا يترددون في تنفيذ طلباته.
- لدرجة التضحية بحياتهم من أجله.

- هو علمهم أن الحياة لا قيمة لها مقارنة بالآخرة . لذلك هانت عليهم ما دامت في سبيل ما يؤمنون به ويعتقدون أنه يقربهم من الله .

- لماذا لم يشاركوا في الثورة إذا؟ لا أستطيع أن أفهم هذا التضارب.

شرع في تصفيف شعره وهو يقول ببساطة:

- لا يوجد تضارب . هو علمهم أن الخروج على الحاكم محرم شرعا لأنه فتنة كبيرة . تراق فيها دماء زكية بريئة من أجل الوصول للسلطة تحت قناع الوصول للعدل والمساواة والحرية. أما ما يفعلوه الآن ما هو إلا محاولة إنقاذ لمعلمهم من الخطر الذي يحدق به . وينتقمون من مِن تسبب في المذبحة التي حدثت لأهلهم وأصحابهم.

تأمله نادر بتفكير عميق للحظات قبل أن يقول بريبة:

- كل هذا عرفته من الـ[illegible] ؟ !

استدار إليه مروان وهو يقول بثقة وثبات :

- أنا واحد من تلاميذه. وكلامي هذا من خلال معرفتي بالأستاذ هاني وأسلوبه وعلاقته بتلاميذه. وأيضا من محادثات يجي مع أصحابه.

- لماذا لم تنضم إليهم إذا؟ تبدو معجبا به مقتنعا بأفكاره.
- ليس كل تلاميذه بالضرورة مقتنعين بأفكاره. من تلاميذه من يحبونه ويقتنعون، ومنهم من يحبون ولا يقتنعون، ومنهم أيضا من لا يحبونه.
- وأنت من أي نوع ؟

- أنا عندما دخل هاني حياتي كنت يتيما ، ولا أملك أنا وأمي قرشا نقتات به. فأخذني ووظفني رغم صغر سني بمرتب ضخم غير العطايا التي بلا مقابل. وأعطانا شقة هنا . فكيف أبدي اعتراضا على أفكاره؟ ما كان يهمني لا أفكار ولا حب ولا كره . فقط يهمني ألا أفقد راتبي وعطاياه. أما وقد علمت أنه قاتل أبي فلا يهمني الآن إلا أن أنتزع روحه.

بدا الشك في ملامح نادر وصوته وهو يقول:

- وكيف سنصل لذلك الآن ؟ بهذه المعلومات قد تعقد الأمر أكثر.
- المشكلة الحقيقية ليست في تلاميذه الذين يساعدونه. المشكلة الحقيقية أنهم يخططون لثورة كاسحة يتخلصون فيه منك ومن رجالك تماما، ويعيدون هاني إلى الشركة . لقد استقطب عدد رهيب يكاد يكون سكان المملكة كلها.

اتسعت عينا نادر ذهولا وقد نسي شكه وهو يهتف:

- ماذا؟ ثورة ؟ كيف فعل ذلك ؟ كيف استقطب الناس ؟ ألم تقل أنه ضد الثورات؟
- لقد نشر صور للقتلة الذين أشعلوا الحرب بين المتظاهرين والشرطة وادعى أنهم رجالك، وأنك المسؤول عن كل الدماء التي أريقت في ذلك اليوم.

هب نادر واقفا وهو يهتف بغضب:

- هذه الصور نفسها تؤكد أنه هو المسؤول. كيف التقطها إن لم يكن هو المخطط لكل هذا.

بدا المقت واضحا في حروف مروان:

- أتفق معك . وسوف أقلب المنضدة على رأسه . سوف أنشر تلك المستندات التي تثبت أنه مدبر المكيدة الأولى التي قتل فيها والدي، ثم وجهة نظرك هذه فأحيل أتباعه أعداء. لابد من القضاء على هذا المخادع الأفاق.
- هيا بنا يا مروان . لقد اقتربت الساعة من الثانية عشر . ولدينا مفاجأة لم تخطر على بال الأستاذ المبجل .

◆◆◆◆◆◆

(٥) الثورة

كأنه قائد حربي يعد جيشه لمعركة حاسمة تكلم نادر مع جيشه . يغريهم بمكافأة ضخمة لمن يقبض على هاني. ويتوعد من يتوانى. أمرهم بتفتيش المدينة حجرا حجرا ، والقبض على كل ذي لحية صغيرة كانت أو كبيرة ، عن اتباع للسنة كانت أم اتباع لأحدث صيحات الموضة. كما شدد على حظر التجول من الثامنة مساء حتى الخامسة صباحا على الرغم من تخفيف المجلس العسكري من حظر التجول على مستوى الدولة فصار من الثانية عشر حتى الخامسة صباحا. وأمرهم بالقبض على كل من يخالف مهما كان كبيرا أو صغيرا رجلا كان أو أنثى. ثم أطلقهم في المدينة يقلبونها بحثا عن هاني ورحمة وناصر والدكتور رأفت. لم يستطع مروان اخفاء عدم رضاه عن هذا التصرف الأهوج فقال معبرا عما يجيش في صدره بعد أن ركبا سيارة نادر:

- أرى يا سيدي أن هذا التصرف مبالغ فيه . ألفي رجل للبحث عن رجل واحد في مدينة صغيرة كمدينتنا هذه .

أجابه نادر بهدوء ومقت :

- لا يمكنني أن أغامر بالخسارة هذه المرة. هذه فرصة عمري ولن تتكرر . لو ضاعت هذه المرة أنتهي معها.

- يا سيدي هو في موقف ضعف وأنت في موقف قوة. هو هارب يتوارى خوفا. وأنت تجلس على عرشك في مملكتك. ثم أن تكلفة ألفي رجل كبيرة جدا. وبعضهم مسلح وهذا في ذاته خطر كبير. سيثير الناس ضدك أكثر.
- ينتهي كل شيء بالقبض عليه هو وأعوانه. لا يغرنك تواريه عن الأعين. هذه مجرد ألاعيب. هو يحاول أن يشعرني أني أعمى أتخبط لا أدري من هو ولا أين يضرب ضرباته. في الظلام حيث لا أراه يتحرك ويخطط وينفذ. ولو أراد الظهور لظهر. ما الذي يخيفه ليختفي؟ ولماذا يخفي جثة ناصر ؟
- هل ناصر مات ؟
- بلى.
- سمعت أساطير عنه. كانوا يقولون أنه لا يموت.
- لا أحد لا يموت.
- ولكن كيف؟

صمت نادر قليلا وهو ينظر إلى الأفق الملبد بالغيوم. لا يريد أن يخبر مروان بكل التفاصيل. هو يعتمد في خطته على خداعه وإيهامه أن هاني هو الشرير وأنه هو الطيب. وفي نفس الوقت يريد أن يستفيد منه لأقصى حد. قال وهو يزن كلماته قبل أن يتفوه بها:

- لقد حسبه أحد رجالي شهاب فطارده حتى سقط من فوق مبنى عالي. وعندما فحصه وجده قد فارق الحياة. وجده ذلك الشاب الذي قبضنا عليه ونقله إلى المستشفى وهناك اختفى. لم يعد له أثر ولا مستند يثبت دخوله المستشفى أو خروجه.

- هذا يعني أنه حي لو كان ميتا ما حاول هاني إخفاء موته ماذا يجني من ذلك . بل على العكس كان من الممكن أن يتهمك بقتله وينشر قصصه وصوره على الـ[illegible] ليستثير الناس ضدك أكثر . فمدام يخفيه فهو حي .

كان التحليل منطقيا لولا أنه واثق من تدمير نواة ناصر التي هي مصدر حياته . كيف ينقل هذا لمروان دون أن يفصح أنه هو الذي فعلها :

- أخبرني مصدر في المستشفى أن نواته تدمرت من أثر السقوط . هل تعرف شيئا عن موضوع نواته هذا .
- هذا من ضمن الأساطير التي قيلت عنه . أنه يملك نواة تتحرك في جسمه هي العقل المدبر وسر حياته حتى أنه إذا تعرض لهلاك محقق تتحوصل حول نفسها مثل نواة الحيوانات وحيدة الخلية تماما وعندما تستعيد الظروف المحيط صلاحية الحياة يتم تكوين الجسم من جديد ولكن في حالته ينبت جسمه مثل النباتات الدرنية تحت الأرض ثم يخرج عند اكتمال نموه مثل الجنين من بطن أمه . ولكن أنا طبعا لم أصدق هذا الكلام . أظنه ضربا من الخيال , أنت تعرف كيف تتطور الشائعات .
- صدقه إنه الحقيقة .

تطلع مروان إليه بدهشة فتابع :

- لقد خبرت هذا عن قرب . وهذه ليس قضيتنا الآن ، المهم أن تثق في كلامي . أنا واثق أن نواته تدمرت من أثر السقوط . قد تكون مجرد صدفة ولكن مصدري في المستشفى أكد لي ذلك وأنا أثق فيه .
- إن كان موضوع النواة هذا صحيحا . لا يعني هذا أيضا أنه مات .

حدق فيه نادر في اهتمام شديد وهو يوقف السيارة ويسأله:

- كيف؟!
- سمعت مرة أن هذه النواة تستطيع أن تتحكم في أكثر من جسد في وقت واحد . وأن أخ لناصر فعل ذلك ولكني لعدم تصديقي القصة برمتها فلم أهتم بالتفاصيل وقتها. ظننتها مبالغات من العاملين في الشركة.

تذكر نادر ذلك الموقف حين كان سام في هيئة شهاب و يسيطر علي جسم هدير وشهاب الحقيقي في نفس الوقت وهو جالس بين المشاهدين وهاجم بهما هاني وكاد فعلا يقضي عليه وقتها. سأله بتفكير عميق:

- وكيف يعني ذلك أن ناصر حي؟
- الجسم الذي تعيش النواة فيه وتتحكم به إنسان كامل، فماذا إن اختفت أو تلاشت هذه النواة ؟ هل يعني هذا ضرورة موته؟ الجسم كامل والمخ يعمل والقلب وكل الأجهزة فلماذا يموت؟ ولماذا لا يستيقظ العقل ويعيد سيطرته على جسمه.

استرجع نادر كلام هاني الذي برر به كونه فاقد الذكرة نفس الكلام تقريبا وهذا يعني أنه قد يكون محقا. ويعني أيضا صدق توقع مروان أن ناصر حي. وأن هاني هو الذي يواجهه. كأن شمعة أضاءت في الظلمة التي صنعها هاني حوله فبدأ يرى على ضوئها الخافت خصمه . لقد أوشكت أن تقع يا هاني.

ارتفع رنين هاتفه المحمول . إنه قائد الحرس المكلف بحراسة هاني وشهاب . أجاب على الهاتف في توتر :

- ماذا هناك يا فارس؟
- لقد حطم هاني كاميرات المراقبة يا سيدي .

تحفز نادر وتوترت عضلات جسمه كلها هو يقول:

- هل حاول الخروج من الغرفة؟
- ليس بعد يا سيدي كان يتكلم مع رفيقه في همس لا يصل صوتهما إلى أجهزة المراقبة ، بعدها انقض على كاميرات المراقبة وحطمها أو مزق الأسلاك الموصلة فانقطع بث الصوت والصورة ، فأسرعت بالاتصال بسيادتك قبل أن أتخذ أي خطوة.

صاح نادر في الهاتف :

- مر رجالك بالاستعداد ولا يهجمون هو يحاول استدراجهم إلى داخل الغرفة. ولو حصل على سلاح واحد .....

قاطعه الرجل في توتر:

- لقد انقطعت الكهرباء يا سيدي ..

صاح نادر بأعلى صوته وهو ينطلق بالسيارة بأقصى سرعة:

- لو هرب منكم أقسم بالله أن أقتلكم جميعا. إن تخلص من الستة حراس في الممر واستقل المصعد فجره به . لا يخرج منه حيا .

قالها بعصبية شديدة وهو يغلق الخط ويلقي الهاتف أمامه ويزيد من سرعة السيارة. فسأله مروان باهتمام:

- من هذا يا سيدي ؟ أكيد ليس الشاب المدعو يحيى الذي قبضنا عليه.

صمت نادر لبرهة كأنه لم يسمعه، كان يفكر كيف يعلن له عن وجود هاني في قبضته إن كان هو ثم قال بعد تردد قليل:

- هو شاب آخر ينتحل شخصية هاني أو هو هاني ويحاول خداعي. لا أستطيع أن أحدد . ولكني أظنك تستطيع . أليس كذلك يا مروان؟
- لا يمكنني أن أخطئه يا سيدي لو بين مليون شخص يحملون وجهه وهيئته.

قال نادر وهو ينحرف بالسيارة بحده مصدرة صريرا عنيفا وإطاراتها تنزلق على الأرض المبللة بماء المطر:

- عظيم يا مروان.

ساد الصمت بينهما حتى أوقف نادر سيارته داخل مبنى الشركة وأسرع منها كالصاروخ وخلفه مروان وحارسيه وقد عادت الكهرباء. من رعب نادر كانت دهشته تسابق خطواته إذ يرى كل شيء كما تركه ، الموظفون على مكاتبهم يرمقونه بتوتر ورهبة وهو و تابعيه الثلاثة يتسابقون في الوصول إلى المصعد وإن لم يجرؤ أحدهم على تخطيه. لم يستطع نادر إخفاء توتره وهو يلكم قبضته في المصعد ويهتف:

- ما كان ينبغي أن أتركهما بدون قيود.

مرت عليه الدقائق كدهور حتى صعد منه إلى مكتبه وما أن توقف حتى اندفع من الباب قبل حتى أن يفتح. ووثب ليعبر المكتب إلى المصد الآخر وشيء من الارتياح يصل إلى ملامحه وفارس يثب خارج غرفته المجاورة هاتفا:

- لقد سيطرنا عليهما يا سيدي وقيدناهما.

صاح فيه نادر وهو يلج المصعد والأربعة خلفه:

- ما سبب انقطاع الكهرباء؟

قال فارس لاهثا:

- لقد استخدم قطعة سلك انتزعها من كاميرا المراقبة ودسها في ثقبي القابس المخصص للثلاجة فأفسد الدائرة الكهربية ، ومن ثم استطاع فتح باب الغرفة يدويا وهاجم الثلاث حراس على الباب في الظلام . كسر ساق أحدهم ولكن الآخران سيطرا عليه وقيداه هو ورفيقه.

توقف المصعد في الطابق السفلي فأسرع نادر بالهرولة خارجا وهو يهتف:

- بهذه البساطة ؟ لقد تخيلت أن أجده قد سيطر على مبنى الشركة.

هتف فارس باستنكار :

- كيف يا سيدي ؟ إنه رجل واحد. وزميله لا يقوى على الحراك فضلا عن القتال . فلن يمكنه وحده من السيطرة على الثلاثة بجوار الباب وإن فعل فالثلاثة في نهاية الممر لن يمهلاه حتى يصل إليهما . وإن فعل وهذا مستحيل فلن يغادر المصعد لأنني أراقب كل ذلك من غرفة المراقبة ويمكنني تفجيره بمجرد دخوله.

توقف نادر أمام باب الغرفة وهو يتطلع إلى الدماء القليلة المتناثرة على الأرض وباب الغرفة ثم تمتم:

- ولكن انقطاع الكهرباء يفسد كل ما تقول . كان يمكنه في دقائق معدودة أن يتجاوز كل ذلك ويصل إليك في مكتبك قبل أن تتخيل أن هذا ممكن .

ابتسم فارس باستنكار واستخفاف قائلا:

- ماذا تقول يا سيدي ؟ لقد سيطر عليه الرجلان قبل حتى أن تعود الكهرباء؟ ثم إنه مجرد رجل أعمال ثري . مهما مارس الرياضة فهو ليس محترفا ليفعل ذلك.

رمقه نادر بغضب ويده تضغط على زر فتح الباب وعقله يستعيد كلمات

مروان، هذا يؤكد أنه ليس هاني الحقيقي. فهاني يملك عقلا يعد لكل خطوة حساباتها ومثله لا يبدأ تنفيذ خطة تفشل بهذه البساطة . هذا تخطيط شاب أهوج مندفع. دخل الغرفة لتتصاعد دهشته وتعلو. كانت رائحة الغرفة نتنة إذ مكث فيها هاني وشهاب أسبوعا بلا حمام مما جعل رائحتها كقبر. أما الآن فقد تبدل الوضع . الغرفة نظيفة جدا تنبعث منها رائحة عطرة . حتى هاني وشهاب صارا نظيفين تماما وملابسهما وإن ظل كل شيء مبللا. اقترب نادر من هاني وشهاب المقيدين . كلا منهما ذراعيه خلف ظهره جالسان ممددان أرجلهما أمامهما مقيدتين. قال هاني وهو يتطلع إلى مروان وفارس ساخرا:

- أرى هنالك وجوها جديدة . أول مرة أرى فيك جانبا مشرقا يا سيد نادر. جئتني بوجوه تخفف علي كآبة وجهك.

تفحصه نادر كثيرا قبل أن يقول :

- ما دمت قد نظفت المكان هكذا ما الذي جعلك تحاول مغادرته سريعا.

- وجهك الوسيم . كنت أحاول فقط الفرار منه . الفرار من الكآبة السامة التي تتسلل إلى قلبي كلما رأيته .

توقف نادر على بعد خطوة واحدة منه يتأمله في صمت فتابع هاني ساخرا:

- يبدو أنك لا تبادلني هذا الشعور . فوجهي يسعد قلبك . لا تنكر يا صاح أنا أعرف نفسي لقد أخبرني معجبي بهذا كثيرا .

التفت نادر إلى مروان قائلا بجدية:

- ما رأيك يا مروان ؟

اتسعت ابتسامة هاني وهو يقول ساخرا:

- غير معقول . لا تقل لي أنك جئت لي بعروس . آسف يا جماعة قال لي صديقي شهاب أني متزوج من امرأة أحبها كثيرا و ....

قاطعه مروان يقول واثقا:

- هذا ليس هاني يا سيدي .

تطلع إليه نادر قبل أن يعيد بصره إلى هاني متسائلا:

- هل أنت واثق من ذلك ؟

حدق شهاب في مروان بدهشة كيف ينكر هاني هكذا؟ ألم يعرفه ؟ أم .....

- لقد عملت مع هاني عشر سنوات تقريبا . لم أره يوما يتكلم بأسلوبه الساخر هذا ولا ملامحه بمثل هذا الاستهتار .

شعر شهاب بالإحباط. لقد تسلل بصيص أمل إلى صدره عندما أنكر مروان أن هذا هو هاني الحقيقي، ظن أنه يحاول إنقاذهما. ولكن هذا التعليل امتص بصيص الأمل، وأعاده إلى الظلمة الحالكة. فمروان لم يعرف هاني إلا في فترة إدارته المملكة مع عبد الله والد نادر في البداية، ثم وحده بعد أن قرر عبدالله التقاعد وترك كل شيء في يد هاني. الذي فقد روح الدعابة والمزاح إلى حد كبير في هذه المرحلة من حياته . لم تكن شخصيته القديمة تطفو إلا في لحظات قليله ودائما مع أهله فقط . لذلك فمروان لا يعرف هذا الجانب من شخصية هاني. أما من يعرف هاني قبل هذه المرحلة ، يعرف أن هذا هو هاني قبل وصوله لمدينة الرحمة أو المملكة كما يسميها نادر.

ضحك هاني بصوت عال ثم أردف متهكما:

- وهذه العبقرية محض صدفة ؟ أم ابتعتها من تاجر اللبن أسفل بيتك قبل أن تأتينا هنا.

التفت نادر إلى مروان مرة أخرى قائلا:

- تعتقد أنه مجرد جسد كان ناصر يتحكم فيه قبـ....

قاطعه رنين هاتف يحيى الذي قبض عليه مروان فالتقطه الأخير قائلا:

- إنه هاني يا سيدي.

أشار له نادر أن يجيب . وعندما ضغط على أيقونة الميكروفون ليبدو الصوت واضحا للجميع، أتاه صوت هاني غاضبا:

- لم أتوقع أن تأتيني الخيانة منك يا مروان.

ارتجف صوت مروان انفعالا ومقتا وهو يهتف:

- وأنا لم أتوقع أن تخدعني كل هذه السنوات. تعميني عن حقيقة قتلك لأبي.
- لقد كان حادثا وهو .....

صرخ مروان :

- لا تحاول . لقد كشف لي الأستاذ نادر كل شيء . كل ما ينبغي عليك محاولته الآن الهرب لأني .....
- لقد قتلت أبيك خطأ . ولكني سأقتلك عمدا إن ظللت بجوار نادر .

انتزع نادر الهاتف من يد مروان صائحا:

- هدد وتوعد كما تشاء . فلم تعد تملك غير ذلك . فلن تغرب شمس اليوم إلا وأنت وكل أعوانك بين يدي .

انطلقت قهقهات هاني تصم أذنيه وتعلو وتعلو قبل أن يغلق الخط في وجهه كصفعة جعلته يصرخ في جنون:

- من أين يأتي هذا المتحذلق بكل هذه الثقة؟

بدت الحيرة واضحة على وجهي شهاب وهاني والأخير يقول بذهول:

- هل تلك القصة التي كنت أحكيها حقيقية . هذا غير معقول ... هذا ....

التفت إلى شهاب يستنجد به ولكن ملامحه قالت بوضوح : – " أنا أغرق في بحر الحيرة. "

صاح مروان بقسوة بالغة وهو يرمق هاني بمقت:

- أنت مجرد دمية .. لحسن حظك.

◆◆◆◆◆◆

- انظر إلى هذا وقل لي ما رأيك.

التقط منه نادر الهاتف بحنق في حين تابع مروان بضجر واستياء:

- لقد أشعلت بجيشك هذا فتيل الثورة التي لا ينقصها سوى شرارة الانطلاق من بين أصابع الأستاذ هاني لتنفجر في وجوهنا وتطيح بنا جميعا.

تابع نادر صفحة الفيسبوك الخاصة بالفتى يحيى الذي استولى مروان على هاتفه. كانت تعج بالمنشورات المتأججة غضبا . توقف عند مقطع فيديو له وهو يلقي أوامره لجيشه. راح يتابعه ويقرأ التعليقات التي تنادي بتمزيقه إربا، ومروان يتابع بسخط:

- لقد غربت الشمس وماذا جنى رجالك؟ لم يعثروا على هاني ولا زوجته ولا ناصر ولا رأفت وحتى يحيى الذي قبضنا عليه ساعده شخص آخر متخفي بنفس طريقة القلنسوة التي تنسدل على وجهه
لتخفيه على الهرب.

قال نادر بجمود وهو يتابع مشاهدة المنشورات الساخنة ضده:

- ولكننا قبضنا على كل الملتحين ومنهم ذلك الـ (يحيى). كما أن رجالي في كل شبر من المدينة. لن يستطيع الخروج من مخبئه إلا ويكون في قبضتي.

الغباء يشعرك بالاختناق ويطبق على صدرك كالجاثوم عندما ترى الحقيقة جلية جلاء الشمس وتجد من ينكرها ويدافع عن الباطل بقوة وحماس . هكذا شعر مروان ونادر يتكلم حاول كتمان غيظه وهو يقول :

- يا سيد نادر من قال أن أتباع هاني كلهم ملتحين؟ اللحية شعيرة من الدين وليست هي كل الدين هناك من هم أشد تدينا وتشددا من هاني نفسه ولكنهم ضعفوا عن إطلاق لحيتهم لسبب ما. وهناك من يحبونه وعلى استعداد لإلقاء أنفسهم في التهلكة من أجله مع عدم اقتناعهم بعقيدته واتجاهاته الفكرية . فهاني هذا لا يسيطر على الشباب بمجرد لحية أو حتى تدينه وعلمه الذي هما أقوى جوانب شخصيته. ولكنه يمتلك أسلحة أخرى أبسط مما تتخيل. حب فطري يجذب كل من يعرفه. حسن خلق وأدب جم وشهامة ندرت في هذا الزمان. بساطته واهتمامه بالصغير قبل الكبير والفقير قبل الغني حتى مع التافه. ما رأيت في حياتي رجل يجتمع على حبه البر والفاجر، الشيخ والطفل مثله. تراه يلعب الكرة مع الأطفال في الشوارع. يتسامر مع الشيوخ في المقاهي . يخطب الجمعة بالناس على المنبر ويؤمهم في الصلوات. يتناقش في العلوم الشرعية والدنيوية بمهارة وعلم. تجده قائدا مخضرما ومديرا فزا لشركة المدينة يديرها بحكمة ونشاط جم. وأنت ترى كيف تضاعف حجمها في تلك السنوات. يا سيدي أتباع هاني ستجدهم تحت كل حجر في هذه المدينة. أنت تقدم له السلاح الذي سيدمرك به على طبق من ذهب .

تحرك مروان في الحجرة بغضب ونادر يلقي بالهاتف على المكتب أمامه ويغمض عينيه محاولا الاسترخاء في مقعده خلف مكتبه للسيطرة على أعصابه الثائرة .

تابع مروان بنفس الغضب:

- ليست هذه الطريقة التي نسيطر بها على مثل هذا الرجل الذي يتلون كالحرباء على كل لون.

فتح نادر عينين يتفجر فيهما الغضب وقد صارتا جمرتين من تأجج غضبه رغم محاولاته السيطرة عليه:

- نسيت نفسك كثيرا يا مروان. وتمدح هاني كثيرا، وما أبغض مثله في حياتي؟

بكلمات تغلي غضبا قال مروان:

- أحب أن أقدر خصمي وأحيط علما بكل امكاناته وقدراته حتى أتمكن من تدميره.

هب نادر واقفا :

- هل لديك شيئا غير هذا التقريع الذي لا أحب سماعه، وأخشى أن يفقدني صبري عليك.

ابتلع مروان ريقه محاولا ابتلاع كل انفعالاته. واقترب من المكتب قائلا بهدوء متوتر:

- لماذا لا نستغل أول سلاح في أيدينا في حين نواصل البحث عن الثاني ونستعد للاستيلاء على الثالث .

- ماذا تقصد؟
- شهاب ورفيقه، هاني يريدهما لماذا لا نساومه عليهما. فإن فشلت نكون قد قبضنا على زوجته وأصحابه فإن فشلت ، أخته منار وابنة زوجته هدير. ستصلتان غدا من أمريكا.
- وكيف سنحصل على زوجته وناصر ورأفت قبل أن تفشل مساومته على شهاب؟

صمت مروان مفكرا لبرهة قبل أن يقول:

- الفكرة في إخفائهما ليست بالتأكيد في صعوبة الوصول لمكان الاختباء ولكن عدم توقعه.
- لم يترك رجالي أي مكان في المملكة إلا فتشوه ، ولا شخصا إلا تحققوا من شخصيته.
- بالتأكيد تركوا مكانا لا يتوقعه أحد وإلا لوجدوهم .

صمت نادر مفكرا بعمق قبل أن يقول باستنكار:

- مكان واحد لم يفتشوه .... ولكن مستحيل ... لا يمكن أن ....

برقت عينا مروان بظفر قائلا بلهفة:

- أين هو؟ أكيد سنجدهم هناك.
- مستحيل؟
- إنه بيتي.
- هيا بنا لنتأكد. لن نخسر شيئا .

فكر نادر قليلا ثم بتردد تمتم:

- لا بأس هيا بنا.
- التقط مروان الهاتف من فوق المكتب وأخرج هاتفه بيده الأخرى وهو يقول :
- نبدأ خطتنا إذا. سأساومه على تسليمنا شفرة الخزينة مقابل رفيقيه.

◆◆◆◆◆◆

- تبكي يا هاني ؟! لم أعتدك منهزما هكذا أبدا.

همس بها شهاب بصوت متفطر حزنا وحسرة. فأجابه هاني بصوت يحمل دموعه :

- ليس انهزاما يا صاحبي. إنما تذكرت أمي وأخي. ثم إننا لم ننهزم بعد.

كان اليأس هو الشعور الأطغى على وجه شهاب وصوته:

- لم ننهزم؟! وما هذا الذي نحن فيه ؟ لقد عدنا إلى سجننا مرة أخرى بل وصرنا مقيدين بعد أن كنا أحرارا. لقد فشلت خطتك للهرب.

ارتسمت ابتسامة شاحبة على وجه هاني فرسمت لوحة عجيبة، تعانق فيها الحزن مع الحنان، خلفيتها الآلام، وهمس بنفس المزيج العجيب:

- خطتي لم تفشل يا صاحبي العزيز المتشائم ولم تكن للهرب .

انتبه شهاب ونظر إليه بدهشة متسائلا :

- ماذا تقصد ؟

انتزع يده اليمنى من قيوده ورفعها أمامه فاتسعت عينا شهاب بذهول:

- كيف فعلت هذا . لقد حاولت مرارا وفشلت.

ألقى هاني الحبل جانبا وقال وهو يجفف دموعه:

- وهل سويت نفسك بي يا فتى ؟ أنا بطل القصة ها هنا وأنت مجرد صديق البطل.

تراجعت قتامة اليأس من وجه شهاب وقال مراقبا هاني يفك قيود قدميه:

- تخيل أنني لا أريد ذاكرتك أن تعود إليك . أتمنى لو خرجنا من هنا أن تظل هكذا هاني الذي عرفته أيام الجامعة.
- لكل شيء ثمن أو ضريبة لابد من دفعها . الثراء له ضريبة والمكانة لها ضريبة والشهرة لها ضريبة . لا تتخيل أن تفوز بشيء ما دون دفع المقابل.

انتهى هاني من فك قيوده ونهض بحماس يحرك أطرافه في حركات رياضية وشهاب يقول وقد انتعش الأمل في صدره الواهن :

- أعلم ذلك ولكن ما لا أعلمه هو حقيقة ما حدث . لقد حطمت كاميرا المراقبة وانتزعت سلكها ، ثم بقطعة منه وضعتها في ثقبي القابس المخصص للثلاجة فقطعت الكهرباء . بعدها فتحت الباب يدويا وهاجمت الحراس ولكنهم هزموك وأعادوك مقيدا وقيدوني أنا أيضا. ثم تقول لي أنك لم تهزم.

أشرق وجه هاني بابتسامته التي بددت يأس شهاب تماما ومال نحوه قائلا:

- نجحت أن أضرب. لم يضربني أحد منذ زمن فأردت أن أجرب شعور المضروب.

- لا تمزح بالله عليك وأخبرني.

مد هاني يده في جيب بنطاله وأخرج شيئا ما وهو يقول بنبرة نصر:

- خطتي كانت ترمي للحصول على هذا.

مال شهاب بجذعه نحو هاني ينظر فيما في يده قائلا بدهشة:

- هاتف محمول ؟! كيف حصلت عليه ؟!
- لا تعرف حقا ؟! صنعته بنفسي توا.
- لا تكن سخيفا.
- سؤالك أذكى من اللازم. هاجمت ثلاث حراس وعدت به. من أين أكون قد حصلت عليه ؟
- انتهينا يا سيد العباقرة . ماذا ستفعل به الآن؟

شرد هاني ببصره للا شيء وعادت الدموع تسيل من عينيه فناداه شهاب مرة فلم يرد، وعندما هم أن يناديه الثانية انتبه هاني قائلا وهو يجبر شفتيه على الابتسام:

- آسف يا شهاب. لقد تذكرت علاء كان يغضب كثيرا عندما أمازحه هكذا وكنت أحب أن أثير غضبه. ماذا كنت تقول؟

صمت شهاب قليلا يحاول السيطرة على مشاعره قبل أن يقول بهدوء:

- كنت أقول..... ما الخطوة التالية ؟ ستتصل بمن ليساعدنا.

نظر إليه بتفكير صامت لبرهة صغيرة ثم قال:

- هناك شخص يدعي مساعدتنا فعلا والمفترض أن زوجتي وربما ابني أيضا لديه. هل هناك أهم منه ؟
- ومن أين سنحصل على رقمه؟ من المستحيل أن يكون مسجلا على هاتف الحارس.
- كنت أحسبك تحفظه؟
- أحفظه؟ ! وكيف لي أن أعرفه؟
- من الواضح أنني لست الوحيد الذي فقد ذاكرته هنا؟ ألم يقل ذلك المدعو نادر أن ذلك الشخص لديه هاتفي وينتحل شخصيتي.
- آاااااه ... حقا . طبعا أحفظ رقمك. إنه .....

أملاه الرقم وراقبه بلهفة وهو يضعه على أذنه ينتظر الرد يتفحص ملامحه يقيس ردود أفعاله.

- أنا هاني عامر الحقيقي ولست أنت. قد يمكنك خداع الجميع إلا أنا ، ببساطة لأنني أنا . فمن أنت ؟ !

لم يأته من الجانب الآخر إلا صوت أنفاس مضطربة .

- لابد أن أعرف من أنت. وما الذي تريده مني؟ وأين زوجتي وابني؟

جوابته الأنفاس المطربة من جديد . فاكتست ملامحه قسوة وصرامة انطلق بهما صوته:

- لماذا لا تجيبني ؟ هل .....

قاطعه صوت يخالف صوت الجملة الأولى الذي كان مطابقا لصوته. صوتا تلاشت القسوة والصرامة لدى سماعه. واجتاحت ملامح هاني عاصفة من المشاعر المتضاربة، رياح عاتية من الأفكار، أعاصير من الخوف تضرب جنبات روحه، وأمطار من الأحزان كالسيول هطلت في أعماقه وفاضت من عينيه غزيرة.

صاح شهاب بقلق:

- هاني ... هاني .... من هو ؟

لم يسمعه هاني لقد كان غارقا في بحر ذكريات تفجر فجأة من العدم . لكن عقله كان رافضا للغرق فيها صار يقاوم الغوص . يجاهد صعودا للسطح حيث كان قبل كل هذا . ولم يستسلم بحر الذكريات، فاض وفاض وثار وهاج وارتفعت أمواجه تلطمه كلما برز إلى السطح، تسحبه دواماته إلى الأعماق. والعقل يقاوم ويقاوم.

حاول شهاب التملص من قيوده بكل قوته وهو يصرخ بلوعة:

- هاني .. انتبه .. ما الذي يجري؟ ماذا أصابك؟

أجابه صوت اصطدام الهاتف بالأرض الصلبة وتحطمه ثم صوت ارتطام جسم هاني فاقدا وعيه.

◆◆◆◆◆◆

- محاولاتي لتشويه صورة هاني أمام أهل المدينة وإقناعهم بحقيقته كلها ذهبت سدى . بددها رجالك الجدد الذين اجتاحوا المدينة . تراجع عن تأييدي كل من اكتسبتهم في الساعات الأخيرة.

قالها مروان وهو جالس في المقعد المجاور لنادر الذي يقود سيارته في شوارع المملكة الخالية من سكانها الأصليين يتحرك فيها رجاله كجنود احتلال.
بعضهم يحمل بنادق آلية والبعض مسدسات وآخرون يحملون سنجا طويلة أو قصيرة و الأكثر قبضاتهم سلاحهم . كان التشبيه الأمثل لهم رجال عصابات سيطروا على مدينة وصاروا يرتعون فيها كما يشاءون.

- لا يهمني هذا الهراء الذي تقول يا مروان. لا يهمني سوى القبض على هاني ، أسترد مالي ثم أنتقم لأبي وأبيك وسنوات عمري التي قضيتها في السجن بسببه.
- ليس هراء يا سيدي . أغلب هؤلاء الرجال لصوص وقتلة مجرمين. انظر ، عشرات مقاطع الفيديو والصور لعنفهم في مواجهة الناس وتفتيش بيوتهم قسرا وضرب وسجن كل من يعترض. هذا لا يحتاج لمحفز مثل هاني ليقودهم في ثورة ضدك، فما بالك وهو خلفهم من البداية . ثم إن السلاح الأقوى الآن هي التكنولوجيا تتقدم الأسلحة الأخرى. إن .....

لم يلتفت نادر للهاتف وانعطف في شارع جانبي بالسيارة ناثرا مياه المطر على المارة من رجاله مقاطعا بلا مبالاة واستهزاء:

- فليقوموا بثورة كما يشاءون وسأذبحهم جميعا كالشياه ، لقد اتفقت في صفقة أسلحة نارية ستصل غدا . سأبذل كل ما أستطيع لاسترداد مالي وقتل هاني .

توقف نادر بسيارته بصرير عنيف إذ شاهد جمعا من الناس في مظاهرة كبيرة ورجاله يحتشدون لتفرقة الناس بالعنف والناس يصرخون بصوت واحد بثورة عارمة:

- أولادنا أولادنا ، لن نرحل دون أولادنا.

هم نادر بالترجل من السيارة مترددا، لكن مروان قبض على معصمه بقوة وحزم قائلا:

- انتظر يا سيدي دعني لهم . لا يمكنك توقع الخطر في جو كهذا .

قالها ووثب من السيارة مندفعا نحوهم وهو يصرخ في أحد رجال الأمن الجدد بكل ما يمكنه من غضب وقسوة:

- أنت ، توقف أيها الأحمق.

لم يسمعه الرجل من الضجيج وهوى بقبضته على صدر الشيخ الكبير أمامه فطرحه أرضا وهو يسبه بسباب غليظ. انتبه الجميع لمروان وهو يثب نحو الرجل وجذبه من كتفه بغلظة وهوى على فكه بلكمة قوية دفعته للخلف وصرخ في وجهه بغضب هادر:

- كيف تضرب رجلا في سن والدك أيها الأحمق ؟

شهر رجال الأمن المسلحون أسلحتهم في وجهه ولكنه تجاهلهم وهو يهرع للرجل يساعده على الوقوف قائلا برفق:

- أنا آسف يا والدي . سيعاقب هذا الرجل على فعله هذا.

خفضوا أسلحتهم لما تعرفوه إذ كان إلى جوار نادر عندما ألقى عليهم خطابه وأوامره في الظهيرة. وساد صمت مترقب بين المتظاهرين غير مستوعبين لما يحدث. توجه مروان إليهم من جديد هاتفا بصرامة وبصوت جهوري غليظ :

- اجمعوا جميعا هنا بسرعة.

أسرع رجال الأمن جميعا أمامه والجميع بلا استثناء يحدقون فيه بترقب لا يفهمون ما الذي يفعل . وأكثرهم انتباها واهتماما وترقبا هو نادر وقد وقف بجوار سيارته وبجواره حارسيه المتحفزين وأسلحتهما في يديهما.

صاح مروان بصرامة قائد شديد المراس:

- هذا الذي حدث اليوم تجاوز للحدود . لقد استعملناكم لحفظ الأمن في

هذه المدينة وليس لترويع الناس. لقد قدم مواطنون كثر بلاغات تعدي ضد الكثيرين منكم. وأغضب ذلك نادر بيك كثيرا. وتوعد بسوء العقاب والطرد لكل معتد.

ثم استدار إلى جموع المتظاهرين وأزال التهديد من لهجته وحافظ على الصوت الجهوري الثابت القوي:

- نادر بيك يتقدم ببالغ أسفه لحضراتكم عن كل ما حدث ويعدكم بعدم تكرار ذلك.

صاح أحدهم بغضب:

- لا نريد اعتذارات . نريد أبناءنا المخطوفين.
- ليس اختطافا يا سيدي. لدينا في المملكة سفاح هارب وله عصبة تعاونه. هو السبب في المذبحة التي حصلت هنا. وقتل رجلي أمن آخرين ويهدد بقتل المزيد ليتخلص من نادر بيك في النهاية ويستولي على مدينة المملكة وحدة.

صاح رجل آخر:

- الأستاذ هاني ليس سفاحا. الأستاذ هاني هو الذي بنى مدينة الرحمة على أكتافه .

وصاح ثاني :

- هذا تدبيركم.

وصاح ثالث :

- نريد أبناءنا.

قال مروان:

- الليلة فقط . نريد مهلة الليلة فقط . ولن تمس في أحد أبنائكم شعرة واحدة.

هاني مخادع كبير، حرباء تتلون على كل لون..

ثم صبغ صوته بنبرة حزن:

- خدع والدي ودفعه للاعتداء على والد نادر كمسرحية يكسب بها ثقته ثم غدر به وقتله لتكون المسرحية أكثر واقعية وليضمن عدم فضحه لأمره.

ولقد نشرت المستندات التي تؤكد ذلك على نفس مجموعة الـFake التي يديرها هاني وينشر فيها كذبه كخدعة جديدة ليستخدمكم كأداة لقتل نادر. كما يستغل بعض أبنائكم. كل هدفنا من أخذ أبنائكم حمايتهم من هاني ومن أنفسهم. أيريد أحدكم أن يجد ابنه مقتولا أو محكوما عليه بالإعدام.

هتف أحد المتظاهرين:

- كذب . كل هذا كذب.
- اذهب إلى قسم الشرطة وراجع المستندات بنفسك.
- لقد تم تبرئة الأستاذ هاني وإدانة نادر هذا.
- هاني له وجه خفي لا يعلمه إلا أقرب المقربين له. شيطان متحرك من لحم ودم. يقتل ويسرق ويزني ويرشو لكي يستر هذا الجانب . المال يفعل كل شيء . وإن فشل فالقتل.

ازدرد لعابه قبل أن يتابع :

- أمهلوني الليلة فقط وأعدكم أبناؤكم في أحضانكم غدا وسأثبت لكم ذلك.

لم ينتظر تعليقا والتفت مباشرة لرجال الأمن محذرا:

- للمرة الأخيرة أحذركم أنتم رجال أمن ولستم رجال عصابات. إياكم والمساس بأحد . حتى المعترض اقبضوا عليه دون ضرار . حتى نتمكن من عدونا.

استدار إلى نادر والعرق رغم برودة الجو يلمع على جبينه. واتجه إليه بخطوات ثابتة سريعة. وما أن ركب السيارة وركب نادر وحارسيه حتى قال نادر بانبهار حقيقي:

- لقد كنت رائعا يا مروان . لم أتخيلك بهذه القوة والذكاء. لقد ورثتهما عن والدك رحمه الله. كما ورثت جرأته وإقدامه.

تابع قبل أن يجيبه مروان:

- هل تعتقد أنهم سيرحلون.

كان المتظاهرون يتجادلون بشدة وتعلو أصواتهم. لقد ألقى مروان وسطهم قنبلة الفتنة، فانقسموا إلى مصدق ومكذب وآخر تائه لا يدري أين يضع قدميه.

- انتظر خمس دقائق إن لم ينصرفوا تحرك بالسيارة.
- صمت نادر لدقائق يراقب اختلاف الناس ورأى بالفعل البعض يغادرون والبعض يتجادلون و ....
- الآن يا نادر بيك شغل السيارة.

أطاعه نادر في صمت. ولم يتحرك بها حتى قال مروان:

- الآن يا سيدي ولكن بهدوء شديد وحذر.

ثم التفت إلى حارسيه في المقعد الخلفي آمرًا بصرامة:

- أخفضا سلاحيكما.

نظرا الرجلان لنادر فأشار لهما بطاعته ففعلا.

تسللت السيارة بين الجمع الباقي تكاد تخترقها نظرات المقت والشك حتى تجاوزتهم . وأخيرا تنهد نادر بارتياح وهو يرى الكثير يغادر في مرآة السيارة وقد ارتفع أذان العشاء بصوت طفولي عذب. اتسعت ابتسامة نادر وهو يزيد من سرعة السيارة هاتفا بحماس:

- أنت عظيم يا مروان . أنت تستحق أن تكون رجلي الأول . لا يمكنك تخيل قدر النعيم الذي ستكون فيه عندما تنقضي هذه الأزمة.

ابتسم مروان ببهجة وزهو قبل أن يقول بغل شديد:

- لن يهدأ لي بال حتى أرى قاتل أبي مدرج في دمائه.
- هل سنتمكن حقا من القبض عليه الليلة ؟ لا أثر له حتى الآن.
- إن شاء الله يا سيدي . لقد دنت ساعته.

◆◆◆◆◆◆

على مائدة كبيرة تراصت أشهى المأكولات من مشويات وفواكه وغيرها.. وحولها التف هاني وعائلته ، والدته وأخيه علاء وأخته منار وطفلين جميلين رائعي الوسامة. جمع وجهاهما ما بين وسامة وجه الأم ورجولة وجه الأب . لكن أحدهما أعمى . بلا عينين على الإطلاق ، مجرد كهفين مظلمين. رائحة الطعام شهية تشعر مم تلئ البطن بالجوع. حجرة الطعام واسعة فخمة . مزاح عبدالله وعبد الرحمن جعل هاني يناديهما باسمهما بصرامة ليتوقفا . فوكزه علاء الجالس على يمينه قائلا:

- دعهما يمزحان . إنهما فاكهة هذا البيت.

ارتفع صوت الأم تنادي:

- هيا يا رحمة أسرعي . لن نأكل حتى تأتين.

أقبلت من بعيد بنقابها كجوهرة مكنونة، تسبقها نفحات تملأ قلبه عطرا يسبح قلبه في بحر من السعادة تعلقت عيناه بعينيها الباسمتين كشمسين في ظلمة. أسير بحريهما لا يملك فكاكا منهما . جلست إلى جواره وأمه تقول :

- قبل أن تبدأوا في تناول الطعام يجب أن تتذكروا كيف كان طعامنا منذ بضعة سنوات وكيف صار الآن . تذكروا قول الله عز وجل : (ثم لتسـئلن يومئذ عن النعـيم) .

صمتت برهة تمنحهم تدبر المعنى. فبدى الملل على وجه علاء وكاد يعبر عن تنمره لولا وكزه هاني بمرفقه ليصمت. فتابعت هي دون أن تنتبه لهما:

- وغدا ... ماذا سيكون طعامنا؟ وكيف سيكون جمعنا ؟ غدا من سينقص ومن سيزيد. وليكن قولنا واحد ، كما قلنا في الماضي الحمد لله ونقول الآن الحمد لله وسنقول غدا مهما كان الحال الحمد لله.

هتف علاء بضجر مازحا:

- هل يمكننا أن نقول الآن بسم الله؟

خرج صوت رحمة عازفا على أوتار قلب هاني :

- الحمد لله أنك تذكرتها هذه المرة.
- هاني .... استيقظ يا أخي ... استيقظ ..

انتفض هاني فزعا جالسا يلهث :

- يا ذا الذراع الواحدة دعني أكمل حلما واحدا لمرة واحدة. دائما تنتزعني من اللحظات الجميلة في هذا الكابوس البغيض.

سالت دموع شهاب مع ابتسامة بهجة وهو يقول بصوت تحشرج انفعالا:

- ماذا قلت ؟ لقد ناديتني بـ .... هل ....

أسرع هاني إليه بنشاط وقد تبدلت ملامحه تماما حتى لتظنه رجلا آخر. اكتست صلابة وصرامة وغضب وإن ظل الحزن متربعا على عرش ملامحه.

حل قيوده بسرعة وهو يقول بجدية :

- لم أستعدها كاملة ولكنها لم تعد بعيدة.

حرك شهاب ذراعيه أمامه بألم قائلا:

- هل تذكرت شفرة الخزينة؟
- سوف أفعل إن شاء الله.

وثب نحو لوحة المفاتيح الخاصة بالشفرة تأملها لحظات قبل أن يضرب عدة أرقام بسرعة ثم زر الإدخال. نهض شهاب واقترب منه ببطء لا يقوى على تحريك أطرافه وكل حركة تصرخ بها عضلاته ومفاصله ألما. رأى بابا صغيرا

يفتح بصوت معدني . أسرع هاني يفتحه بسرعة وينتزع من داخله سيفا في جرابه. فقال شهاب مترددا :

- لقد قلت لي أن محاولة الفرار من هنا ما هي إلا انتحار وأن نادر قاتل فقد حِس الرحمة من قلبه، وبالتأكيد أعد كل الاحتياطات لكي لا نخرج من هنا أحياء.

التقط هاني مسدسا من تلك الخزينة الصغيرة ناوله لشهاب قائلا :

- نادر نوع من البشر غبي يظن نفسه ذكيا. لا يصلح قائدا ولا يستطيع وضع خطة ذكية أبدا. كل ما يملكه القوة. لذلك فالخروج من هذا الباب انتحارا لأنه سيضع من مظاهر القوة ما يجعل من المستحيل على ذبابة مغادرته حية. وإذا بقينا ، ننتظر الموت. ونترك من بقي لنا في الخارج في خطر كبير.

قلب شهاب المسدس في يديه قائلا بحيرة:

- وماذا سنفعل بهذه الأسلحة إذا؟ ننتحر أم ننتظر الموت؟

أشار إلى الجدار المواجه للجدار الذي يحتوي على لوحة المفاتيح قائلا:

- سنغادر من هنا.

ألقى شهاب نظرة حيرة على الجدار ثم أعاد بصره على هاني الذي يضرب المفاتيح بسرعة وما أن فهم ما يعنيه هاني حتى تناهى إلى مسامعه صوت رنين معدني خافت . التفت إلى الجدار ليرى الباب وهو يفتح فقال بأمل كبرعم ينبت بين حروف كلماته:

- وإلى أين يقودنا هذا الباب؟

جذبه هاني من يده برفق بعد أن ضغط أحد المفاتيح الكبيرة فانغلق باب الحمام والثلاجة وكذلك باب الخزينة الصغيرة. وقاده إلى الباب المفتوح برفق قائلا:

- إنه مصعد كهربي. يقود إلى السطح.

ولجا المصعد وشهاب يقول بتردد :

- وماذا سنفعل بعد أن نصل للسطح؟

ضغط هاني زر المصعد الوحيد لينغلق الباب ويتحرك صاعدا وهو يقول:

- أرى أن استنشاق الهواء البارد والنظر للسماء لهو أكبر غنيمة الآن . بعدها نفكر في الخطوة التالية.

◆◆◆◆◆◆

(٦) وضاقت الحلقة

- ألم تحسم قرارك بعد يا سيد هاني بخصوص الصفقة التي عرضتها عليك.

قالها مروان وهو يقف إلى جوار نادر في فيلا الأخير في الطابق الثالث حيث المكتبة. مكتبة تحتل الطابق كاملا رغم اتساعه. تحتوي على آلاف الكتب. دخلها نادر مرة واحدة عندما دخل الفيلا لأول مرة بعد مقتل والده وهو يجوب مرافقها بظفر. ثم اقتصر مروره بعد ذلك على المرافق الرئيسة في البيت . وهذه المرة الثانية ، لكنها كانت تختلف. كان يبحث عن خصومه. ولآخر لحظة كان يظن أن مروان مخطئا. لذلك لم يستطع أن يخفي صدمته عندما رآهما ، ناصر راقد على فراش صغير متصل بأجهزة طبية يقوم الدكتور رأفت برعايته. كيف تم نقله هو وتلك الأجهزة إلى هنا دون أن يشعر بذلك حراس الفيلا الذين يحيطون بها من كل جانب. النوافذ القليلة مغلقة فيسود ظلام حالك إلا ضوء شمعة بدا فيه الدكتور رأفت في ملابسه التي تشبه ملابس الفتى الذي استولى شهاب على هاتفه المحمول. كأن هاني يتحداه . زي موحد لأتباعه كما يتخذ هو زي موحد لرجال أمن المملكة .

لم يبالي الدكتور رأفت وواصل عمله في حقن العقاقير في عبوة الجلوكوز المثبتة في أحد أرفف المكتبة كأنه شيء معتاد أن يزوره نادر وحارسيه ومروان ، وإن أعلن المسدسان المصوبان إلى صدره أن الزيارة ليست ودية.

- عرضك ليس مغريًا يا سيد مروان. الشفرة مقابل شهاب وشبيهي ليست صفقة جيده. هل تعلم كم المال الموجود في الخزينة؟ إذا فأنت غبي. من يشتري مجهولا بمعلوم فهو غبي. ألا يمكن أن تكون خاوية أو كل ما بها بضعة جنيهات.

ارتفعت ضحكات مروان الساخرة قبل أن يقول:

- لو كانت كذلك لكنت أنت صاحب الصفقة من البداية. وبما أنك تماطل الآن فهذا يعني أن المبلغ فوق ما أتخيل. انظر يا سيد هاني.

صمت لحظات ليحرك فضوله قبل أن يقول بظفر:

- صديقيك ناصر ورأفت بين يدي الآن أصبحت الصفقة أربعة مقابل مال الخزينة.

جاوبه الصمت لفترة حتى ظن أن محدثه قد خرج من المحادثة فرفع صوته قائلا :

- هل تسمعني يا سيد هاني؟
- طبعا .. لكنك فاجأتني ، فأعيد حساباتي .
- علامة جيدة على التفاهم .. متى نتقابل لإتمام صفقتنا. ولا تقل أنك سترسل إلي أحد أعوانك فكلهم في سجن خاص بالسيد نادر.

- لقد علمتني قاعدة سيكولوجية مهمة توا يا أيها المروان .

ضاقت عينا مروان بتفكير عميق فيما يقصده هاني فتابعه في صمت وهو يتابع بثبات دون أن تهتز نبرات صوته ولا تتوتر:

- هي أن الغباء يمكن أن ينتقل بالعدوى كالإنفلونزا . يبدو أن فيروس الغباء انتقل إليك من السيد نادر. ولأنني طيب القلب فأحب أن أوجه لك ولصاحبك نصيحة . أنتما وجيشكما كله بكامل قوته وعتاده شرذمة من الأرانب تحاولون اصطياد أسد جائع جريح وغاضب. فكلما ظننت أن الحلقة ضاقت حولي اعلم أنها تضيق حول عنقك أنت .
- صدقني أيها الأسد الجريح أنا في غاية انبهاري بثقتك التي لا مبرر لها. أنت تتوارى كفأر، أصحابك وتلاميذك كلهم بين أيدينا ، جنودنا في كل شوارع المدينة ، لن يجرؤ فأر على أن يخطو في شوارعها دون أن نقبض عليه.

ارتفعت ضحكات هاني الساخرة الواثقة قبل أن يقول بكلمات تتخللها ضحكات:

- لم تنصت لنصيحتي جيدا . الحلقة تضيق حول عنقك أنت وسيدك.

ارتفعت ضحكاته الساخرة مرة أخرى قبل أن يردف:

- تريد تأكيدا ؟

صمت برهة يعطيه فرصة للتفكير في كلامه قبل أن يقول:

- أنت الآن في مكتبة صديقي عبدالله ونادر إلى جوارك وحارسيه خلفه.

وعادت ضحكاته الساخرة فقال مروان بلا مبالاة :

- كونك تراقبنا أو أرسل لك رأفت صورتنا لا يعني أنك في مركز قوة . القوة بين يدي.
- أما أنا فالعقل والقوة بين يدي. تريد أن تراني لا بأس أنا لست جائعا الآن و لا أريد طعاما. يمكنك أن تنتظر حتى الثانية عشر . إن لم أصل إلى الصيد الرابع يمكنني أن ألقاك.
- ماذا تقصد من هذا الكلام الفارغ؟

ارتفعت ضحكات محدثه الساخرة من جديد قبل أن يجيبه:

- آسف ... نسيت أن فيروس الغباء انتقل إليك. أنا أتابع الآن مقطع فيديو جيد يروقني كثيرا . حالما أنتهي منه أنشره على الـ Fabk وعندما تراه تفهم. نصيحة أخيرة لا تجلس مع نادر كثيرا ، ربما تشفى من مرضك.

قالها وأغلق الاتصال. تحرك نادر في المكتبة جامد الملامح وهو يقول :

- لا يخيفك أسلوبه. لو كان يملك شيئا لفعله فورا.

قالها وجلس إلى مكتب والده في وسط قاعة المكتبة وهو يراقب جسد ناصر الذي يبدو كأي رجل نائم. كم يبغض هذا الوجه . والطبيب رأفت الذي جلس على مقعد مجاور لفراش ناصر وتابع قراءة كتاب كأنما لا يشعر بوجود صحبة معه.

سمع صوت مروان يتكلم في الهاتف من جديد :

- السلام عليكم. هل تمكنت تحديد موقعه ؟ عظيم يا أخي. أين؟ طبعا ... المبلغ الذي وعدتك سيكون بين يديك غدا. أين هو الآن ؟

أنصت نادر باهتمام عظيم ومروان يقول وعلى شفتيه ابتسامة زهو واسعة :

- مسجد الرحمة؟ أشكرك يا رجل . إن كللت المهمة بالنجاح ستكون لك مكافأة غير اتفاقنا.

هب نادر واقفا وهو ينتزع هاتفه صائحا :

- أنت رائع يا مروان .

◆◆◆◆◆◆

ظهر الغضب في أعتى صوره على ملامح نادر وهو يشاهد الفيديو الذي يظهر فيه رجله فارس الذي كان يراقب هاني وشهاب في سجنهما وهو مقيد إلى مقعد خشبي في شقته . الغرفة مظلمة إلا من ضوء شمعة، تتراقص ظلالها على وجهه المذعور وشبح واقف إلى جواره يخفي وجهه بإسدال قلنسوته وخفض رأسه. في البداية كان كصنم لا يتحرك يسدل ذراعيه إلى جانبه. وفارس يصرخ ويتوسل كالنساء ثم يعترف بأن نادر هو الذي أمره وثلاثة رفاق له بالمذبحة التي حدثت في المملكة يوم المظاهرة الكبرى. رفع الشبح الذي يرتدي الزي المميز لأتباع هاني إن لم يكن هو يديه وراح يسن سكينه والرجل يبكي تسيل دموعه ويصرخ. دار الشبح خلفه وجذبه بيسراه من شعره، ثم وضع سكينه على عنقه وذبحه كبقرة ببطء وأعصاب باردة. وظل واقفا خلفه يتراقص ضوء الشمعة الخافت على هيئته وجسد فارس الذي ينتفض والدماء تتدفق من عنقه على صدره حتى خمدت حركته تمام .

صاح بكل ما يجيش في صدره من غضب:

- كيف فعل ذلك ؟ من الذي يساعده؟

أوقف مروان السيارة وهو يقول :

- قلت لك من قبل يا سيدي لن يمكنك حصر مساعديه . يمكنني أن أحقق في الأمر وأصل للفاعل وأحضره إلى هنا وأقتله إن أردت. هناك ظل فتاة ظهر للحظات واختفى . معنى هذا أن فارس تم استدراجه بفتاة. وقام هاني أو تابعه هذا بالباقي . ولكن ما النتيجة؟ ثورة هاني ضدك ليست كثورة المصريين ضد الحكومة. فالأولى ضد غاصب كما يقولون وليست ضد رئيس أو حكومة وهي ثورة تطهير وانتقام وتأمين لمدينتهم وحفظ الأمن الذي زعزعته أنت إنقاذ مختطفين ، إعادة الحق لأصحابه. تتشابه الثورتان في أن محركهما مجموعة من الشباب المتحمس الطامح في الحرية والأمن . وتختلف أن لها قائد يطيع الجميع أمره يثقون فيه ويحبونه. حتى الفئات الأخرى كلها تسير خلفه. وهذا يجعلها ثورة منظمة لا تراق فيها الدماء هباء. ألم تسأل لما يتوارى الناس جميعا في بيوتهم لا يخرجون حتى نهارا؟ هو أمرهم بذلك. لماذا لا يحاولون التصدي لرجالك إلا قليلا بسبب انفلات الأعصاب فقط. هو أمرهم بذلك . هو لا يريد خسائر. ولا يقتل إلى القتلة.

ترجل نادر من السيارة وقال وهو ينظر إلى مئات الرجال الذين يحاصرون المسجد:

- وأيضا الثورة ذات القائد لها عيب جميل؟

نقل بصره إلى مروان الذي ترجل من السيارة بدورة وتابع:

- بقطع رأسه تموت.

- ربما . لهذا لم تمت ثورة يناير بتحقيق أهدافها بل استمرت لأن لكل فئة ممن شاركوا وممن لم يشاركوا وممن عادوا ثم انحازوا إليها بعدما انتصرت مطالبهم الخاصة. لذلك هي فوضى. أما الثورة التي لها قائد خاصة عندما يكون الشباب الذين هم وقودها على علم شرعي ينظم حركاتهم . يعرفون ما يجوز لهم وما يحرم. أمر مختلف. فهي تنتهي بتحقيق أهدافها ووضع الأمور في نصابها الصحيح. و لن تموت إلا بتحقيق أهدافها حتى إن تم قطع رأس قائدها كما تظن. فالقائد مجرد رمز يلتفون حوله ويطيعون أوامره. ومع شخص مثل هاني أنا واثق أنه أعد لكل خطوة وافترض حتى موته وجهز البديل حتى تستمر ثورته إلى نهايتها.
- وهذه نهايتها.

أشار له بالتحرك نحو المسجد وهو يردف:

- رغم ثقتي فيك إلا أني أشعر أحيانا بإسرافك في مدح هاني هذا.

تبعه مروان قائلا:

- ليس مدحا يا سيدي ، مجرد تقرير للواقع ونقل لما يرددوه على موقعهم لتكتمل الصورة ونعرف كيف نتصدى له وأتباعه.
- ربما.

قالها نادر وهو يشق طريقه بين رجاله حتى وصل للمسجد . وعند باب المسجد رأى قائد قواته يصوب مدفعه إلى شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، يرتدي جلبابا أبيض ويجلس على الأرض بوضعية جلوس التشهد في الصلاة. ولا يبدو

عليه أي أثر للخوف أو التوتر فقط لا مبالاة ذكرته بالشاب يحيى. وخلفه تكومت رحمة متشحة بالسواد تبكي بحرقة.

صاح نادر بغضب:

- أين هاني ؟ المفترض أنه كان هنا.

أجابه قائد رجال الأمن:

- لم نجد سواهما يا سيدي وطفل أعمى في العاشرة من عمره ما زال في الداخل .

صرخ نادر :

- وأين هاني؟

أجابه قائد الحرس :

- هذا الشاب كان معه كمبيوتر محمول وهاتف محمول عليهما فيديو ذبح فارس. أظن أنه هو الذي نشره.

تقدم مروان وتناول منه الهاتف وضرب عدة مفاتيح عليه قبل أن يقول:

- إنه هاتف هاني يا سيدي.

انحنى نادر ليواجه الشاب قائلا :

- أين ذهب هاني ؟ كيف استطاع الهرب قبل أن نصل؟

أجابه الشاب بابتسامة ساخرة قائلا:

- أنا هاني .
- هل أنت مجنون أم أحمق ؟ ما الذي تحاول فعله بالضبط؟

قال الشاب بثبات وتهكم وابتسامة الاستهتار على وجهه:

- أنا هاني عبدالفتاح إمام مسجد الرحمة.

ضغط نادر على أسنانه يكتم غيظه ويقول من بينها:

- أسأل عن هاني عامر صاحب هذا الهاتف الذي كان يستخدمه منذ دقائق. لا تتذاكى علي . لا تستنفذ الدقائق الباقية من عمرك بسرعة.
- عمري ليس بيدك يا محترم. الأعمار بيد الله وحده. لو كانت نهايتي الآن ما تقدمت لحظة بتعاوني معك وخيانة أخي هاني عامر. ولو كان في عمري أيام أخر، ما قدرت على نزعها قبل ميقاتها.

صفعه نادر بكل قوته على وجهه صارخا :

- أين هاني عامر؟

لم تتغير لهجة هاني عبد الفتاح ولا ابتسامته الساخرة وهو يجيبه:

- أنا أقول الحق ولا أكذب. هاني عامر لم يدخل هذا المسجد منذ غادره يوم المظاهرة المشؤومة .
- من الذي كان يستخدم هاتفه هذا منذ قليل؟
- أنا.
- والصوت؟ صوتك لا يشبه صوته.

- تطبيق على الهاتف لتغيير الأصوات. أنا وضعته وبرمجته على صوت هاني.

انتصب نادر ملتفتا إلى مروان الذي يفحص الهاتف بالفعل:

- هو صادق يا سيدي .

التفت إلى الشاب وركله في بطنه بقوة هاتفا:

- وأين هاني ؟ وكيف تتلقى منه الأوامر؟

قال بصوت كتمه الألم:

- لا أعلم . ولو أعلم ما أخبرتك.
- كيف تتلقى منه الأوامر؟

اعتدل الشاب وهو يجاهد للسيطرة على ألمه وصوته:

- لا أتلقى أوامرا من أحد. لسنا عبيدا هنا ولا نعمل تحت إمرة أحد. نحن أخوة نتعاون لتطهير مملكتنا من النجاسات التي هبطت عليها بذنوبنا. ومستعدون للتضحية بأعمارنا من أجل ذلك.
- كذلك إذا. لا بأس .. ما دمت تريد ذلك وتحبه.

تراجع وهو يشير إلى قائد رجاله الذي يصوب مدفعه إلى صدر هاني عبد الفتاح. وتراجعت رحمة في ذعر وقد انحبس بكاؤها وصراخها .

- اقتله يا مازن. أريد كل رصاصة في مدفعك في جسده.

اعتدل الشاب بشجاعة وابتسامته تتسع. وفتح صدره أكثر في ثبات وثقة. توترت عضلات مروان ووجهه وهو يتراجع خطوة للخلف. وجذب مازن إبرة الأمان في مدفعة وهو يحكم التصويب ويشد عضلاته في تحفز. وشخصت الأبصار والآذان في ترقب . وشق الآذان صوت خافت كصوت رفرفة أجنحة طائر فوق رؤوسهم. ارتفع الصوت بسرعة والجميع يرفع رؤوسهم لأعلى و ... صوت ارتطام مكتوم وآهة ألم لم تكتمل. ثم ارتطام جسد مازن على الأرض جثة هامدة وسهم قد اخترق عينه ليبرز من الخلف. وفي مؤخرة السهم قطعة من الجلد مثبتة مكتوب عليها (الرابع).

ارتفعت الأبصار والأسلحة إلى مصدر السهم شبح لفتاة تمسك قوسا وجعبة سهام فوق المبنى المقابل .

صاح مروان بأعلى صوته :

- حاصروا هذا المبنى بسرعة. إياكم أن تفلت منكم.

انطلق نحو المبنى بعد أن التقط مدفع مازن الآلي :

- إن فلتت هذه المرة لن نتمكن منها ثانية .

◆◆◆◆◆◆

- لم نعثر له على أي أثر يا سيدي. كأن هذا السهم نزل من السماء. أو أن مطلقته ذابت واختلطت بماء المطر.

تأمل نادر الجالس في سيارته الرجل بنظرة يتطاير منها الشرر كما لو كان انعكاسا للبرق الذي يومض في السماء ثم صرخ فيه بصوت كهزيم الرعد:

- وأين مروان؟

قال الرجل بصوت مرتجف كأوصاله والمطر ينهال على رأسه:

- جمع كل سكان المبنى على السطح ويستجوبهم ، يصر أن مطلقة السهم واحدة منهم.

التقط نادر هاتفه بغضب ليتصل به، فإذا برنينه ينطلق. المتصل قائد حرس مبنى الشركة. ترى ماهي المصيبة هذه المرة. هل هاني يحاول الهروب مجددا؟

- شخص ما داخل مبنى الشركة يقاتل بضراوة .
- داخل؟! من أين أتى هل اقتحم أم تسلل ؟ أم هو أحد السجينين؟
- لا أدري . فقط سمعت صرخات وطلقات نارية.
- أين أنت أيها المغفل؟
- في حجرة مكتبي يا سيدي.
- اخرج أيها المغفل وأوقفه بنفسك. إن وصلت إليك قبل أن تسيطر على الوضع أو تقتله . سأقتلك أنت. بل لا أريد سيطرة . اقتل ذلك الشخص. مر رجالك بقتله فورا.

تطلع من نافذة السيارة لمروان القادم بخطوات سريعة غاضبة غير شاعر بهطول المطر فوق رأسه . وخلفه يجر رجاله خمس شباب وفتاتين مقيدي الأيدي. أشار إليه نادر أن يسرع وأدار المفتاح ليدير محرك السيارة .

انطلق نادر بالسيارة قبل حتى أن يكتمل ركوب مروان وهو يصيح فيه:

- هناك هجوم على مبنى الشركة . لقد استغل هذا اللعين وجودنا هنا ويحاول تخليص رفيقيه.

قال مروان مندهشا وهو يغلق باب السيارة والغضب يزأر في كلماته:

- مستحيل .. هل كان يتوقع هجومنا على المسجد ؟ وكيف عرف أصلا أنهما في مبنى الشركة ؟

سيطر الإحباط والإحساس بالفشل على صوت نادر الموشك على البكاء:

- أشعر كأني أعمى لا أرى خصمي. وهو يدور حولي ويوجه إلي الضربات؟
- هذا شأن الجبناء الضعاف. يضرب ثم يتوارى. لكن هذا لن يطول . يوشك أن يسقط.
- هل تعتقد أنه هو الذي يحاول إنقاذ شبيهه وشهاب؟
- غالبا . لا يجرؤ على مهاجمة مبنى الشركة بكل من فيه من حرس غيره.

ساد الصمت بينهما لحظات ونادر يفكر في ذلك الشخص الذي يهاجم المبنى . هل سيتمكن رجاله مع عددهم المبالغ فيه من القبض عليه،

أم .....؟ لا يريد أم هذه . صار يومه طويلا جدا. لا يريد أن ينتهي. يشعر بالاختناق رغم برودة الجو والأمطار الغزيرة. ألقى نظرة على مروان ليجده يتفحص هاتف هاني باهتمام شديد فسأله :

- هل توصلت منه لشيء جديد؟

أوحى صوته بخطورة الأمر وهو يجيب:

- الأمر خطير يا سيد نادر لدرجة أني أظن أن كل ما نحن فيه ما هو إلا لهو، مجرد إلهاء عن الهدف الأكبر.

وقع الكلام على قلب نادر كمطرقة . هل يعبث به هاني لهذه الدرجة ؟

- أي أمر هذا؟

قال مروان وهو يواصل تصفح الهاتف:

- يستغل كونه مدير الشركة ومعه توكيل عام من السيد عبدالله والدك بالتصرف فيها ببيعها لرجل كبير في الجيش . فهمت من سياق الرسائل أنه رتبة كبيرة. ولكني لم أحصل بعد عن أي معلومة عن هذا الشخص.

توقف نادر بالسيارة بصرير نافس هزيم الرعد . وانزلقت السيارة ودارت حول نفسها وكادت تخرج عن الطريق لولا أن توقفت. انتزع نادر الهاتف من شهاب وطالع الرسائل بذعر وهو يتذكر عرض جابر عليه ببيع المملكة لرجل ذو منصب كبير في الجيش .

مفاوضات حول السعر وشروط العقد . ثم مفاوضات عن موعد توقيع العقود وتسليم المدينة والمقابل . قال بعدم تصديق:

- مستحيل ! هل هذا حقيقي ؟!
- هل نظرت في صورة العقد؟ إنه بتاريخ قديم ، العام الماضي ٢٠١٠.

انطلق نادر بالسيارة بصرير عنيف وهو يدور بها وتنزلق ثم يدور و تنطلق وهو يصرخ ملقيا الهاتف إلى مروان :

- لا بد أن أمزقه قبل أن يوقع هذا العقد.

اقتحم نادر بوابة السور العالي المحيط بالمبنى بسيارته اقتحاما وأوقفها بصرير عنيف بجوار المبنى . وقد تحول سكون الليل إلى فوضى عارمة. سيارة إسعاف تغادر وأخرى تدخل ، وثالثة واقفة والممرضين مع بعض رجال الأمن يتعاونون في رفع مصابين إليها. قال مروان بذهول وفزع وهو يثب من السيارة:

- ما الذي حدث ؟ هل اشتعلت الحرب؟

أسرع نادر إلى سيارة الإسعاف يفحص المصابين بسرعة قائلا:

- إنه يقاتل بسيف. هو هاني بالتأكيد. أتى لإنقاذ صديقيه.

اندفع إلى داخل المبنى وخلفه مروان وحارسيه شاهري سلاحيهما بتحفز يراقبان كل متحرك وساكن. استوقف نادر أحد الرجال في مدخل المبنى يساعد آخر في حمل مصاب لسيارة إسعاف يسأله عن المعتدي من هو وأين فأجابه بتوتر أنه لا يعرف . اتصل بقائد رجال أمن المبنى وهو ينطلق إلى المصعد وصرخ فيه بغضب بمجرد أن سمع صوته:

- أين أنت أيها الأحمق؟ وأين ذلك اللعين ؟ ألم تفز به بعد ؟
- لم أره يا سيدي بعد إنه يضرب بسيفه كل من يره ثم يختفي فجأة. ويظهر في مكان آخر وأحيانا في طابق آخر .
- كيف أيها الغبي؟ هل يختفي مثلا ؟ أم أنتم عميان؟ كيف يغلب سيف عشرات المسدسات؟

تلعثم الرجل وقال بارتباك:

- لم أواجهه بعد يا سيدي ؟

- هل لا يزال في المبنى ؟
- بالتأكيد .. لقد أصاب أحد الرجال من دقيتان أو ثلاث فقط . ولقد استدعيت الكثير من الرجال الجدد لحصار مبنى الشركة. من المستحيل أن يخرج.

قال مروان بغضب :

- سيدي هل يمكنني أن أقول شيئا؟

تطلع إليه نادر لحظات مرتجفا. لم يدر مروان أخوفا أم بردا أم توترا. فأسرع يقول:

- نصعد إلى حجرة مكتبك . ونأمنها جيدا حتى لا يصل إليك وأنا سأطارده وأعدك أني سآتيك به حيا مكبلا .

ظل نادر يتطلع إليه بصمت مرتجفا حتى ظن مروان أنه لم يسمعه فحاول أن يقول شيئا ما لولا أن تكلم نادر أخيرا بصوت مرتجف:

- لا بأس يا مروان . لا بأس.

ضغط مروان زر طابق مدير الشركة وهو يقول:

- وبعد إذنك ، زوجته وناصر ورأفت وهاني عبدالفتاح إمام المسجد نحتجزهم في غرفة المكتب . فهؤلاء هم الورقة الرابحة التي ستحضره إلينا راغما.
- أحسنت . مر الرجال بذلك.

ما أن انتهى مروان من أمره للرجال عبر هاتفه حتى توقف المصعد فخرجوا جميع متحفزين وحارسي نادر شاهري سلاحيهما يتقدمان بحذر شديد . تحركوا بسرعة

في الممر الذي يزيد رجال نادر فيه عن العشرة حتى وصل إلى باب غرفة مكتبه الضخمة المغلقة.

ارتجفوا جميعا لدى دخولهم الغرفة وازدادوا تحفزا إذ كان هاني ساجدا يصلي في خشوع . يرتدي بذلة بيضاء فخمة أنيقة ، اشتركت مع شعره المهذب بعناية اللامع ببريق ذهبي من أثر وضوئه الذي لم يجف بعد في الإيحاء بأنه يستعد لحضور حفل رسمي هام.

تجمد الجميع في مواقعهم في توتر صائدي أسود يحاصرون أسدا على مسافة تتيح له اقتناص أحدهم على الأقل. في حين حدق فيه نادر بمزيج من الذهول والمقت ، وحدق حارسيه بمزيج الرعب والتحفز يترقبان أوامر نادر أو أية حركة مريبة من هاني ليطلقا النار عليه، كان هاني يرفع من سجوده كأنه لا يشعر بوجودهم على الإطلاق. تراجع الحارسين استجابة لإشارة نادر الذي جلس إلى مكتبه يراقب هاني وهو يؤدي صلاته بخشوع غير منتبه لوجودهم أو غير مبال به. التقط مروان سيف هاني من جواره بخفة وسرعة متوقعا أن يقطع هاني صلاته ليدافع عن سيفه . لكنه لم يبد أي اهتمام أو حتى انتباه. خيم الصمت والرهبة على غرفة المكتب الواسعة.

انتهى هاني من صلاته وجلس يتلو أذكار الانتهاء من الصلاة دون أن يرفع بصره إليهم . فصاح نادر بصوت عال ساخر:

- ألن تنتهي من هذه الصلاة؟

نهض هاني بهدوء وثقة ونادر يرمقه بتوتر مصحوب بشعور من الزهو بانتصاره مع الكثير من المقت . مروان شاهرا سيف هاني في وجهه في مزيج من الرهبة والتردد والتحفز .

- من يضحك أخيرا ، يضحك كثيرا. أليس كذلك ؟

ابتسم هاني بسخرية وهو يقول متهكما:

- حقا.

ثم أردف بتحد دون التخلي عن ابتسامته:

- ولم يحن ذلك الوقت بعد.

أطلق نادر قهقهة زهو وتهكم عالية لم تطغ على توتره وهو يدور حول مكتبه ملقيا نظرة على رجاله الذين يصوبون أسلحتهم إلى صدر هاني على مسافة كافية للتصرف إذا ما حاول هاني التحرك بعنف. يحيطون به من كل جانب. طمأن نفسه وهو يسترخي في مقعده الوثير وكأنه يستمد

منه الثبات وهو يقول بتعال وزهو :

– لقد أخطأت يا أيها المعلم ، لقد آن الأوان لتعترف بهزيمتك . لن تشرق شمس الغد إلا على جثتك أو .....

صمت برهة يتبادل مع هاني نظرات التحدي قبل أن يستطرد بتشفي:

- لقد استقرت هزيمتك أخيرا على الشاطئ.

اتسعت ابتسامة هاني الساخرة وهو يقول:

- وها هو نصرك يغرق وسط الأمواج المتلاطمة يستغيث وما من مغيث.

قرأ نادر في عيون رجاله التوتر الذي يجتاح صدره. فقهقه ضاحكا بسخرية وهو يسترخي في مقعد مكتبه الوثير واضعا ساقا فوق أخرى قبل أن يقول بتهكم يحمل لهجة تعجب استعراضي:

- لا أدري من أين تأتي بكل هذه الثقة والثبات . لقد وقعت في قبضتي وفشلت في انقاذ صديقيك. وكل من بقي من أصدقاءك في قبضتي وحتى كل تلاميذك الذين اعتمدت عليهم في خطتك ضدي ومن ثم قد فسدت خطة بيع المملكة ذلك المشتري الذي سيأتي غدا لتوقيع العقود لن يجدك .

لمن النصر إذا الآن ولمن الهزيمة.

ابتسم هاني ابتسامة تهكم وهو يقلب بصره بين الرجال بلا مبالاة ثم توقف بعينيه يقتحم عيني مروان الذي لا يزال شاهرا سيفه في وجهه وقال موجها حديثه إلى نادر دون أن يتوقف عن اقتحام عيني مروان الذي أصابه الارتباك:

- كم تثير شفقتي أيها المسكين ! أنت أعمى تماما عن الحقيقة. أنت تراني قد ضاقت الحلقة حول عنقي وزمامها في يديك تستطيع القضاء علي في لحظة وأنا مسكين لا حيلة لدي.

عقد نادر حاجبيه في تفكير عميق وهو يقول:

- أليست هذه الحقيقة؟!

نقل هاني بصره إليه بثقة ثابتة كالجبال قائلا:

- تريد أن تعرف ؟

تطلع إليه نادر بصمت يحاول السيطرة على توتره فأردف هو :

– صديقاي اللذان تظنهما في قبضتك ليسا في القفص. لقد طارا بعيدا. وأنا ما قبض علي أحد كي تشعر بالنصر. أنا كنت أنتظرك بكامل إرادتي كي نسوي ما بيننا .

– ما تقوله هراء. لم يغادرا حجرة الخزانة.

اتسعت ابتسامة التهكم على شفتي هاني. فالتقط نادر هاتفه من جيبه واتصل بحرس الخزانة واتسعت عيناه بذهول . الغرفة خاوية . أسرع بتشغيل الحاسوب على مكتبه وراجع كاميرات المراقبة والكل يتابعه في توتر. تزايد أضعافا وهو يهتف بغير تصديق :

- كيف فعلت هذا ؟! هذا مستحيل.. باب الغرفة لم يفتح مطلقا وهي خاوية الآن . كيف هذا ؟! هل تبخرا ؟ كيف فعلتها ؟

هز هاني رأسه بإشفاق مصطنع :

- ألم أقل لك أنك مسكين .

هب نادر واقفا وهو يضرب سطح مكتبه بقبضته بكل قواه صارخا:

- هذا لا يغير من حقيقة الأمر أنت بين يدي. وها هي زوجتك و أصحابك .

عقب جملته، دفع أحد رجال نادر الدكتور رأفت إلى الداخل حاملا جسد ناصر على كتفه تبعه الشيخ هاني . ثم رحمة باكية في صوت خافت ترتعد كعصفورة بللها المطر يعصرها الرعب . قلبت عيناها الذاهلتين المرتجفتين بين الرجال كأنهم وحوش جائعة يتأهبون لالتهامها ترتجف في ارتياع وتحدق فيهم بعينين

زائغتين . ثم توقفت على وجه هاني الذي يقترب منها. حدقت فيه بذعر أولا تحول إلى ذهول ثم شك غير مصدقة ثم ألقت نفسها بين ذراعيه. لم تشعر كيف قطعت المسافة بينهما ، وانهارت في بكاء حار. تدفقت دموعها كسيول. كان الرعب يعترض طريقها وقد تحطم وتلاشى بمجرد رؤيتها لزوجها. ضمها إلى صدره بدفء وحنان وهو يربت على ظهرها قائلا :

– الحمد لله .. الحمد لله الذي جمع شملنا. الحمد لله على أنك بخير.

حاولت أن تقول شيئا فلم تستطع من بكائها وارتجافها، فضمها أكثر وهو يربت على ظهرها قائلا بحنان :

– اهدئي يا حبيبتي .. أنا هنا الآن . لن يستطيع أحد أن يؤذيك.

ارتفع صوت نادر المقيت بأسلوبه الاستعراضي المتحدي :

– بيدك أن تنهي كل ذلك الآن وتخرج أنت وأصحابك آمنين لو أعطيتني مالي الذي في الخزينة وتلغي بيعك للملكة مع ذلك الشخص الذي تتعاقد معه. وإن لم تفعل فلا تلومن إلا نفسك .

ألقى هاني نظرة فاحصة على رفاقه دون أن يتخلى عن زوجته بين ذراعيه. والجميع يتأمل وجهه بصمت الذي تحول من الصرامة والحزم واللامبالاة إلا حزن يحتاج لأنامل فنان مرهف الحس بارع في التحكم في أنامله ليصوره . دموعه كأن سدا منيعا كان يعوق طريقها وانهار فجأة عندما رآها ففاضت وتدفقت تغرق وجهه في صمت وتتساقط على رأس رحمة . قال بصوت متهدج متقطع تغيرت نبراته بفعل الحزن:

- لماذا تحمل جثة أخي ناصر يا دكتور رأفت؟

ازدرد لعابه بصعوبة ثم أردف بمرارة:

- لماذا لم يتم دفنه؟

قال رأفت مندهشا:

- إنه لا يزال حيا .. ولكنه في حالة غيبوبة غريبة... وأنت تعرف ذلك. لقد أخبرتك بعد أن أحضرته لي في المستشفى وفحصته.

على الرغم أن ملامح هاني لم تتبدل إلا أن نادر التقط الكلمة . هذا معناه أن هاني هذا ليس هو من نقل ناصر إلى المستشفى واتصل يطمئن عليه عندما كلمه وليس هو من كان في الغرفة سجينا مع شهاب . الشخصية مختلفة تمام . وحتى الملابس.. من هو إذن ؟

رفع نادر عيونه المترددة إلى مروان يطلب منه حسما لهذا الارتباك . فوقع بصره على وجه مروان الذي يتطلع لوجه هاني بحيرة بالغة وتفكير عميق. يبدو بوضوح أنه غارق في نفس حيرته لا يستطيع أن يجزم أهاني هو أم لا.

ضم هاني رحمة إلى صدره بقوة كأنه يخشى إن تهاوت يداه ضاعت منه للأبد. والذكريات تنهال على عقله وتعتصر قلبه اعتصارا.

قال وذكرى أول لقاء معها تطوف بقلبه:

- هل هو بخير الآن؟

أجابه الدكتور رأفت بأنفاس متقطعة من حمله:

- يحتاج فقط للغذاء .

صرخ نادر بكل ما يعتمل في قلبه من توتر وارتباك:

- لقد مللت من كل هذا. آن الأوان لكي ننهي هذه اللعبة.

لم يعره هاني اهتماما وهو ينصت لصوت رحمة الواهن المتقطع من البكاء:

- لقد مات عبدالرحمن يا هاني . مات ابننا . مات حلمنا .

ربِت على ظهرها بحنان ودموعه تزداد غزارة وحاول جاهدا أن يخرج الكلمات من حلقه وحزن قلبه يفيض على حلقه فيمنعها من الخروج:

- كيف عبدالله ؟ هل رأيته؟

تراجعت تحملق فيه بفزع وقد توقفت عن البكاء فجأة هامسة بصوت مختنق:

- ماذا ؟! لقد أخبرني أنك ستعود إليه . لقد قال لي أن أخرج مع رجال نادر أنا والشيخ هاني ونتركه وحده وأنك ستعود إليه .

جفف هاني دموعه بأنامله وهو يقول :

- وكيف أخبرته بذلك ؟

أجابه الشيخ هاني بأدب زاد من تأجج نيران نادر:

- لقد اتصلت به قبيل وصول رجال نادر وأخبرته بقدومهم وأخبرته أنهم سيأسرونني والسيدة رحمة . وطلبت منه أن يبق هو ولا يقلق وأنك ستعود إليه.

عقد هاني حاجبيه في دهشة وتفكير عميق وهو يسأل:

- من أين أتى بالهاتف ؟ وكيف يستخدمه وهو أعمى؟

أجابه الشيخ هاني بارتباك:

- أنت أعطيته إياه . وضبطه له بحيث يستطيع الرد عليه بسهولة واستخدامه بالصوت فقط.

استدار هاني بغضب شديد هذه المرة اختلط بحزنه وقلقه على ابنه وصرخ بكل انفعالاته في وجه نادر:

- أنت أغبى شخص قابلته في حياتي.

تحفز رجال نادر بتوتر وأحكموا تصويب أسلحتهم وأصابعهم تتوتر على أزندتها وعيونهم تدور بين نادر وهاني الذي تابع بنفس المزيج من المشاعر وإن تصاعدت حدة الغضب فيها:

- لا يمكنني تخيل كيف لم تفهم اللعبة حتى الآن وأنا قد فهمتها من بضعة كلمات .

ضم رحمة إلى صدره أكثر وهو يدنو خطوة من المكتب جعلت رجال نادر يسحبون صمامات الأمان في أسلحتهم:

- شخص ما يستطيع تقليد صوتي ويختطف ابني ويستغل حالة الفوضى التي تعم البلاد والفوضى التي سببتها في مدينتي ويوهمك بأنه أنا حتى يشغلك عن بيعه للمدينة .

هبِ نادر واقفا وهو يضرب مكتبه براحتيه صائحا بصوت أعلى من صوت هاني متظاهرا بأنه سيد الموقف:

- أنت الذي تحاول خداعي. أنا لا أعرف أصلا من أنت .
- هذا من غبائك . أنا هاني عامر الذي هزمك في بطولة الجمهورية في المبارزة رغم كل فعلته لتحول بينه وبين ذلك . أنا هاني عامر الذي أفسد خطتك الأولى في الاستيلاء على المملكة . أنا هاني عامر الذي أدخلك السجن من قبل وسيدخلك القبر ممزقا إن شاء الله .

قال مروان بصوت حاول أن يجعله قويا لكنه كان مملوءٍ بالارتباك والحيرة:

- أين هاني وشهاب اللذان كانا في حجرة الخزانة؟

التفت إليه هاني بنظرة نارية دفعته خطوة للخلف فزعا رغما عنه:

- لم أكن أظنك بهذا الغباء؟ أم أن عدوى الغباء انتقلت إليك من صحبتك لنادر باشا عبقري العباقرة. أنا طبعا يا عبقري وأخي شهاب خارج مبنى الشركة الآن.

هتف نادر :

- مستحيل. كيف خرجتما دون أن ترصدكما كاميرات المراقبة؟

هدأ صوت هاني وطرح عنه مشاعره وحمِله بالتهكم من جديد ممزوجا بالغضب:

- جميل .. نتناقش هنا في هذه التفاهات ونترك خصمنا يبيع المدينة ويقبض ثمنها ويقتل ابني ويرحل . إذا كنتم بهذا الغباء فلست مثلكم أريد ابني.

قال مروان بحيرة وشعور بصدمة زلزلت كل أرجاء روحه:

- مستحيل أن أخطئ فيك. من المستحيل أن أخدع هكذا"

حاول نادر جعل صوته قويا ثابتا صارما وهو يقول:

- يمكننا حسم الأمر. اعطني شفرة الخزانة واتصل بذلك المشتري والغ الصفقة. ثم تخرج تبحث عن هذا المنتحل شخصيتك وتسترد ابنك.

بدى صوت هاني خاليا من المشاعر تمام وهو يقول بهدوء:

- وكيف أتصل به؟ لا أعرفه، ولا أعرف رقمه.

أخرج مروان الهاتف من جيبه وقدمه إليه بأنامل مرتجفة وهو يقول بصوت حائر ذاهل:

- الرقم هنا والاسم.

قبل أن يمد هاني يده للهاتف أصدر هاتف نادر رنينه. تطلع نادر إلى شاشة الهاتف الموضوع على المكتب بدهشة لفتت انتباه هاني ومروان فتطلعا إليه بدورهما لتنتقل إليهما الدهشة.

نقل مروان بصره إلى هاتف هاني بين يديه قائلا بحيرة:

- كيف هذا ؟

رد عليه نادر بحيرة وعدم فهم:

- ألم تقل لي أن هاتف هاني هو الذي معك؟

أجابه هاني:

- إنه بالفعل هاتفي.

هتف مروان بحيرة:

- وأنا تأكدت من أن الشريحة بداخلة تحمل نفس رقمك بالفعل بمجرد أن أخذته من ذلك الطفل الأعمى في المسجد.

ساد الصمت لبرهة لا يقطعه إلى رنين الهاتف والأنفاس المتوترة.

التقط نادر الهاتف واستقبل المكالمة وهو يضعه على أذنه ليأتيه صوت هاني ساخرا :

- لماذا لم أسمع منك كلمة تهنئة ؟ بئس الصديق أنت.

قال نادر بصوت مرتبك متحشرج:

- من أنت؟
- ظننت هذا واضحا. الصوت ، رقم الهاتف والأسلوب نفسه. ما بك يا أخي؟ نسيتني بهذه السرعة؟ توقعت أن تسألني عن سبب التهنئة.
- لا يهمني.
- يهمك كثيرا. لقد بعت المملكة وقبضت ثمنها.

أشار مروان لنادر أن يطيل المكالمة بقدر المستطاع وأجرى مكالمة لصديقه ليحدد موقع المتحدث .

تابع نادر:

- أنت لست هاني عامر لتتم هذا التعاقد. يمكنني أن أطعن في التوقيع و....

قاطعته ضحكات صوت هاني في الهاتف بسخرية لاذعة قبل أن يقول :

- طبعا لست أنت من توصل لهذا الاستنتاج العبقري. صاحب هذا الاستنتاج العبقري هو هاني عامر الواقف أمامك الآن.

ألجمت الصدمة لسان نادر فتابع محدثه:

- إليك الصفقة الجديدة.

لم يجبه نادر فقط امتقع وجهه ولم يدر بما يجيب . فتابع محدثه بصوت هاني :

- تأخذ ما معي من مال حصلت عليه مقابل المملكة وتعطيني هاني عامر وزوجته وأصحابه.

انفجر نادر صارخا :

- من أنت أولا؟ أريد أن أعرف مع من أتفاوض.

تقدم هاني خطوة وهو يشير إليه قائلا بصرامة:

- اعطني هذا الهاتف. أريد أن أعرف من هذا ، وماذا يريد مني ؟

عقد نادر حاجبيه باستنكار تحول إلى تردد عندما أشار إليه مروان أن نعم. مرت برهة غير طويلة دون أي لمحة على الموافقة ثم قدمه له على تردد بعد أن قام بتشغيل السماعة الخارجية.

صاح هاني في الهاتف بغضب:

- من أنت ؟ وماذا تريد مني ؟

أجابه الصمت ، فقط أنفاس متوترة. فتابع هاني وقد خفتت حدة غضبه قليلا:

- ابني ليس له ذنب في شيء . وأنا بعد ما خسرت لم أعد أريد غير زوجتي وابني.

سالت دموعه وهو يقول بصوت تبخر كل أثر للغضب منه:

- خذ كل ما تريد ودع لي كل ما بقي لي.

لم يجبه إلا الصمت من جديد. فصاح بغضب :

- لماذا لا تجبني ؟ قل أي شيء. اطلب أي شيء.

أتاه الصوت نفس صوته ولكنه مليء بمقت لم يزر صوته يوما:

- اقتل نادر تأخذ ابنك.

ولم يعطه فرصة للتعليق. أنهى المكالمة عقب كلمته. حدق هاني في الهاتف بحنق. هاتف نادر بلهفة موجها حديثه لمروان:

- هل استطاع صاحبك تحديد موقعه؟

أومأ برأسه إيجابا وهو يضع الهاتف على أذنه هاتفا:

- إنه في فيلا هاني عامر . خذ كل من تستطيع من رجال وحاصر المكان بأقصى سرعة . لا أريد أن تخرج منه ذبابة واحدة.

◆◆◆◆◆◆

(٧) الشيخ

حافظ شهاب على تظاهره بفقدان الوعي وهو يستلقي على المحفة داخل سيارة الإسعاف مرتديا زي رجال الأمن الخاصين بشركة المملكة. والسيارة تنطلق وسط مياه الأمطار التي تغرق الطريق . يتناهى إلى مسامعه صوت المرض وهو يحادث شخص ما في الهاتف . لم يتابع شهاب المكالمة كان تركيزه مع رفيقه في السيارة يسمع صوته يئن ألما. استرجع كلمات هاني الأخيرة ، (لا تحاول الفرار أمام أحد من رجال نادر. حاول التواري عنهم أولا ثم تخلى عن ملابس الأمن .)

- ولماذا أحاول إسعافهما ؟ فليذهبا إلى الجحيم . أتمنى لو أقتلهما بيدي. إنهما رجال ذلك السفاح نادر...

كان ذلك المرض يكلم صاحبه على الهاتف .

انتبه شهاب للعبارة .هذا الرجل قد يساعده إنه يكره نادر ورجاله . طرأت له فكرة أن يطلب منه المساعدة ولكن ذلك الرجل بجواره.

- ذراعي ....

قالها رجل الأمن بجواره متألما :

- هلا أعطيتني شيئا مسكنا للألم حتى نصل.

صاح فيه الممرض بغلظة:

- اصمت . أنا أتكلم في الهاتف.

صاح الرجل بألم يصارعه الغضب:

- وأنا أتألم و أنزف.

- ولا يوجد هنا مِسكِن. تحمل حتى نصل . ألست رجلا.

وتابع محدثه على الهاتف:

- سأتركك الآن وأعاود الاتصال بك حالما أصل للمستشفى.

قال الرجل بغضب :

- الألم شديد .

صاح الممرض بمقت وغضب:

- من فعل بك هذا ؟ هل يمكنك أن تخبرني؟
- إنه شخص ما هاجم مبنى الشركة يقولون عنه سفاح.

صاح الممرض بغضب:

- بل سيدك هو السفاح. إن الذي هاجم مبنى الشركة هو الأستاذ هاني عامر لينقذ رفيقيه اللذان يحتجزهما سيدك السفاح . كل سكان مدينة الرحمة يعلمون ذلك . هذا منشور على صفحة المدينة على الفيس بوك.

اعتدل الشاب رغم ألمه جالسا وهو يمسك ذراعه المصاب بقبضته السليمة صائحا:

- وما ذنبي أنا وما شأني . شخص ما يحمل سيفا ويقاتل رجال الأمن مقتحما مبنى الشركة التي أعمل لحمايتها . هذا عملي.

هب المرض واقفا وهو يقول :

- إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين.

جذبه الشاب بقوة من ذراعة ليسقطه على ركبتيه بين الفراشين :

- ستعطيني المخدر الآن وإلا سيكون هذا آخر عملك في مستشفى المملكة، فسأخبر نادر باشا بكل ما قلت.
- فلتخبره كما تشاء. إن أيامه في الدنيا معدودة لا بل ساعاته . لن تغرب عليه شمس الغد إلا وهو ذبيح على قارعة الطريق.

استل الشاب مدية من جيبه وضغط على زر فيها فبرز نصلها بدوي معدني مرعب اتسعت له عينا المرض بارتياع وقال بتهديد :

- ستعطيني المخدر وإلا .....

انتفض شهاب لصوت المدية المعدني وهب واقفا بنشاط وفزع رغم آلام جسده وضعف عضلاته . وهتف بغضب كل من قتلهم نادر في يوم المظاهرة، بغضب الأيام السوداء التي قضاها في القبر الذي سجنه نادر فيه مع رفيقه هاني:

- ماذا تظن نفسك فاعلا يا صاح؟

ارتجف الشاب بفزع وتخلى عن المرض لا إراديا وهو يتراجع قليلا على فراشه ملتفتا إلى شهاب يتأمله بدهشة وفزع ارتبك به صوته:

- من أنت؟! أنت لست أحد رجال الأمن.

شحوب وجهه وشعره الطويل غير المهذب ونحوله الشديد مع اللحية القصيرة يجعل شكله مميزا. يصعب أن لا يلفت انتباهك في وسط مجموعة. بالإضافة إلى الغضب والشراسة اللذان يتطايران في ملامحه يجعلك توقن أنه خصم لا صديق.

اعتدل الشاب بقليل من الثقة عندما قارن بين قواه العضلية وقوى شهاب فلوح بمديته في وجهه وهو يتمتم بتردد:

- سيارات الإسعاف خدعة ليتم تهريبك من مبنى الشركة ولكن .....

وثب شهاب متخطيا المرض المنكمش بين الفراشين. واشتبك الخصمان.

لوكان شهاب في كامل لياقته ما استطاع هذا الشاب أن يلتقط نفسا واحدا وهو في كامل وعيه . لكن ضرباته هزيلة حركاته بطيئة وخصمه لا يعوقه غير ذراعه المصاب . ومع ذلك نجح أخيرا في التغلب عليه. ووقف يلهث يتصبب عرقا رغم برودة الجو .

فتح الباب الخلفي فجأة فانتفض شهاب بفزع ملتفتا إليه فاختل توازنه وسقط جالسا على الفراش الذي كان مخصصا له .

تأمل سائق سيارة الإسعاف شهاب الذي يلتقط أنفاسه بصعوبة ورجل الأمن الملقى على فراشه بالعرض ورأسه على الأرض بين الفراشين والمرض الجالس القرفصاء برعب بين الفراشين وظهره لكابينة القيادة وقال ذاهلا:

- ما الذي حدث هنا؟

نهض المرض قائلا بمقت مشيرا لرجل الأمن:

- هذا حاول قتلي.

ثم أشار إلى شهاب قائلا بامتنان:

- وهذا أنقذني .

قالها ثم تحسس جسم شهاب قائلا:

- هل أنت بخير؟ هل من إصابات؟

قال شهاب من بين أنفاسه المتلاحقة وهو يضع يده على صدره من الألم معتمدا بالأخرى على الفراش:

- الحمد لله . أنا شهاب صديق الأستاذ هاني عامر وحارسه الشخصي. هو الذي فعل هذا بهم ليهربني من رجال نادر.

قال السائق بلهفة قلقة:

- وهل هرب هو أيضا أم .....

انتقل القلق إلى صوت شهاب وهو يقول:

- ظل هو لينهي مشكلة نادر.

ضرب السائق باب السيارة بقبضته بغضب قائلا:

- ألم يفهم بعد ما يرمي إليه هذا السفاح؟ إنه لا يعرف التفاهم إلا بالدم. فلا تفاهم معه إلا بإراقة دمه . هذه هي لغته. وهاني لا يفهم لغة الدماء

وإن فهم فلن يستطيع مواجهتهم وحده . ها هم رجاله ينتشرون في كل خطوة في المدينة كرجال الاحتلال . ما الذي .....

- أنت هناك . ما مشكلتك ؟ لماذا توقفت؟

زمجر الرجل بمقت وحنق:

- ها هو أحدهم .

هتف الممرض:

- هيا بنا بسرعة لو رأوا الأستاذ شهاب يقتلونه. هيا .

قالها وأسرع يغلق الباب دافعا السائق بسرعة . وراح يعدل وضع الرجل

فاقد الوعي على فراشه وهو يقول لشهاب بتوتر شديد:

- استلق يا سيدي على فراشك بسرعة. قد يأتي إلى هنا.

انتفض برعب عندما دوت ضربتان على جانب السيارة وصوت غليظ يصيح:

- هيا انطلق.

تنهد بارتياح والسيارة تنطلق بالفعل ثم التقط نفسا عميقا وهو يلتفت إلى شهاب قائلا:

- الحمد لله. لن يمكنك الترجل من السيارة في الشارع فرجال نادر كالنمال في الشوارع. ولكن لدي خطة.

تطلع إليه شهاب بصمت وتساؤل وهو يسترخي على فراشه . نهض الرجل وأسرع يجهز حقنة مخدر قوي وهو يقول بحماس:

- عندما نصل إلى المستشفى سأحضر لك ملابس التمريض وتخرج معنا في سيارة العاملين بالمستشفى . ويمكنك بعدها أن تأتي معي إلى بيتي حتى نفكر في الخطوة التالية.

أغمض شهاب عينيه وهو يقول بجمود وقد هدأت أنفاسه كثيرا:

- هذه خطة هاني.

انتفض جالسا وهو يقول بلهفة:

- هل معك هاتف محمول؟ لقد سمعتـ .....

لم يكمل عبارته وهو يلتقطه من يده التي امتدت به على الفور.

بدأ الممرض يحقن رجل الأمن بالمخدر وهو يقول:

- للأسف هذا هو المخدر الذي طلبت . ما كنت أرغب في ذلك ولكن ...

لم يلتفت إليه شهاب وهو يسأل أخيه الأكبر في الهاتف على ابنتيه ليطمئن عليهما ويطمئنه على نفسه. وسالت دموعه حارة وهو يسمع أصواتهما واحدة تلو الأخرى.

- هيا يا بطل لقد وصلنا المستشفى.

أنهى الاتصال والسيارة تتوقف بالفعل. والتفت إلى الممرض ليشكره فوجده عاقدا حاجبيه في قلق يقول في ارتياب:

- لماذا توقف على البوابة . لا ينبـ .....

فتح باب السيارة الخلفي ليكشف عن خمسة أسلحة نارية مصوبة إليهم وبضعة رجال بغير أسلحة . أحدهم يقترب متأملا شهاب بظفر صائحا في الهاتف الذي على أذنه :

- فعلا يا أستاذ مروان ها هو أمامي في سيارة الإسعاف الأخيرة .

أتاه صوت مروان وهو يقول بصرامة :

- أريده حيا . إياك أن تصيبه بأي أذى . والحق بي بكل من تستطيع من رجال على فيلا رقم (3) القطاع (1).

انتزع نادر الهاتف من يده وهو يصيح بغضب :

- لماذا تريده حيا ؟ أنا لا أريده حيا .

ثم صاح في الهاتف :

- اقتله يا رجل . أنا نادر عبدالله مالك المملكة . هيا اقتله فورا .

وظل ينصت حتى سمع دوي الرصاصة ثم القى الهاتف إلى مروان . الذي امتقع وجهه بغضب شديد حتى شعر نادر بالخوف . فصاح بصوت عال يخفي به خوفه :

- هل يمكنك أن تفسر لي رغبتك في عدم قتله ؟ هل يمكنك أن تفسر لي غضبك هذا؟ هل يمكنك أن تفسر لي موقفك عندما رأيت هاني في حجرة مكتبي ؟ كنت أتوقع أن تقتله بمجرد رؤيته . ولكني وجدتك في غاية الحيرة والتردد ولم أجد في ملامحك أي ذرة غضب .

تجمدت ملامح مروان و كذلك صوته صار جامدا باردا كطقس هذه الليلة الطويلة :

- هل يمكنك انت أن تجزم أن الذي رأيناه في مكتبك هو نفسه الذي كان في غرفة الخزانة؟ إن قلت هو كيف خرج ؟ وإن قلت لا، كيف دخل ؟ وأين من كان في الداخل؟ شهاب وحده يعلم ذلك . من يكلمنا في الهاتف؟ لم يجزم مرة أنه هاني ولم ينف. ما أدراك أنه هو الحقيقي ويريدنا أن نتخبط كالعميان لا نرى خصمنا وهو يرانا بوضوح كأنه معنا خطوة بخطوة أو كأنه شبحا. وربما يكون آخر يلعب بنا جميعا . ما هو إلا نصاب يستغل صوت هانيَ والوضع الحالي ليبيع المملكة ويقبض ثمنها. وبالفعل نجح . سواءٍ كان هاني أو غيره لقد باع المملكة وقبض ثمنها وأرسل إلينا صور توقيع العقود واستلام الأموال . ولقد اختار المشتري بذكاء . اختار رجلا من رجال الجيش . الشخص الوحيد القادر على السيطرة على مقاليد الأمور في هذه الفوضى التي تعم الدولة هو رجل في الجيش. غدا ستجده هنا مع قوة من الجيش بل بجيش حقيقي كامل . كيف ستتصرف حينئذ؟

ارتبك نادر من هول المفاجأة. إن كل شيء يضيع من يديه، يتبخر حلمه من بين أنامله :

- وما العمل الآن ؟ ما الذي يمكننا فعله؟

لم يتغير جمود مروان في ملامحه وصوته وإن ظل وجهه ممتقعا بغضب:

- الكثير.

قالها وهو ينعطف بالسيارة غير مبال برجال نادر الذين يثبون أمامها فرارا منها بغضب . ثم أردف وهو يتجه إلى فيلا هاني المحاصرة بمئات الرجال :

- أولا نقبض على هذا النصاب أو الشبح أيا كان. ونستولي على ثمن المملكة الذي بحوزته . ثانيا نبيع المملكة الليلة لشخص آخر ونقبض ثمنها . ثم نحصل على مال الخزينة . ونقتل هاني و ..... نتبخر.
- أنت عبقري يا مروان . أنت عبقري بحق. ولكن من أين نحصل على مشتري يمكنه شراء مدينة المملكة ويدفع ثمنها الليلة وفي ظروف كهذه؟

قال مروان وهو يوقف السيارة بين عشرات الرجال المحاصرين لفيلا هاني:

- كل من يمكنني الوصول إليهم من معارف هاني . ولا أظنهم قد يفعلون شيئا يضره هذا إن لم يسعوا لمساعدته.

ترجل نادر من السيارة وهو يتذكر آخر مرة رأى فيها جابر وقتها سخر منه لأنه عرض عليه شراء المملكة. الآن جاء دوره هو ليسخر منه هو وهاني وصاحبهما الثالث رجل الجيش بعد أن يبيعه المملكة ويقبض ثمنها ويتبخر كما قال مروان . قال وهو يتأمل رجاله الذين يطوقون المنزل كالسوار بالمعصم:

- عندي أنا المشتري يا مروان. المهم الآن نضرب الأولى ثم نتفرغ للثانية والثالثة.

تطلع إليه مروان بمقت شديد لحظات ثم أشاح بوجهه بسرعة قبل أن ينتبه لنظراته وهتف بأحد الرجال:

- أين قائدكم؟

التفت إلى أحدهم يتقدم نحوهما بسرعة ويقول:

- أنا القائد يا أستاذ مروان.
- متى تم حصار الفيلا؟

توقف أمام مروان وهو يقول :

- بمجرد أن أنهيت اتصالك معي. فرجالي يقفون عند كل بيت بلا استثناء . فبمجرد مكالمتك, كان كل من في الجوار يحاصرون الفيلا. مستحيل أن يكون قد خرج منها.
- والسطح؟
- لقد أخبرتني في الهاتف. رجالي فوق السطح وعند كل منفذ لا يقل عند خمسة رجال . وكل المنطقة المحيطة تحت الحصار والتفتيش الدقيق.
- أحسنت يا رجل.

اندفع نادر نحو بوابة المنزل وخلفه حارسيه متحفزين كالعادة ومروان يسأل الرجل وهو يتحرك بدوره:

- هل حاولتم اقتحام المنزل أو شعرتم بأي شيء غريب؟

تبعه الرجل قائلا:

- كلا يا سيدي . والبيت كالمهجور لا صوت ولا حركة ولا ظل فقط ضوء ثابت ينبعث من الردهة.

هتف مروان في نادر الذي صار أمام البوابة مباشرة :

- انتظر يا سيد نادر ، لا تدخل أولا . لا ندري ما الذي ينتظرنا في الداخل ولربما يكون الباب مفخخا أو أي شيء من هذا القبيل.

توقف نادر والتقط نفسا عميقا وهو يقول في نفسه:

- لم أعد أستريح لك أيها المروان . ولا أعتقد أن أمرك خارج عن اثنين: إما أنك تؤازر هاني وتؤدي دورك بإتقان بالغ، أو أنك وهذا هو الأرجح، تلعب لحسابك الشخصي وترسم على المال الذي سأحصل عليه. لقد استخدمت ضمير الجمع وقلت نحصل على المال ونتبخر. من أنت حتى تجمع نفسك معي؟ ما أنت إلا حشرة أستخدمها للوصول إلى هدفي .

تأمل الرجال وهم يقتربون من البوابة الخارجية بحذر ويحاولون فتحها قبل أن تفتح إلكترونيا وحدها فارتجف بعضهم فزعين ثم دخلوا على حذر. تابعهم وتبعهم وهو يواصل حديث نفسه رامقا مروان بنظرة جانبية :

- ثم سأسحقها تحت حذائي. لقد كاد دورك أن ينتهي.

ما أن وصلوا إلى باب المنزل الداخلي حتى فتح بدوره ببطء مرعب جعلهم يتراجعون بفزع حتى نادر الذي يخطو أولى خطواته داخل الحديقة تسمر في مكانه. كان رجال نادر ينتشرون في كل أرجاء الحديقة . الكل تسمر يرمق الباب والنور المنبعث منه بحذر وتوجس. ساد صمت مرعب إلا من صوت إلكتروني مصاحب لفتح الباب حتى توقف . ازدرد الجميع لعابهم برعب إلا مروان الذي تقدم بجرأة مشيرا للرجال أن يصحبوه . ولكن على الرغم من جرأته تجاوز الباب بحذر شديد وتحفز متوترا وعيناه تمسحان الردهة بترقب .

كان واقفا هناك، في نهاية الردهة أمام باب حجرة المكتب المواجهة لمدخل المنزل. يضع يديه في جيبي جاكيت ملابسه الرياضية الشتوية الثقيلة .

مطأطئا رأسه تغطيه قلنسوة كبيرة تخفي وجهه تماما خاصة مع الإضاءة الخافتة. تطلع مروان إليه بدهشة ، طفل لا يتجاوز العاشرة يقف بهذا الثبات العجيب كأنه ينتظرهم . يقف بلا أدنى خوف أو حركة كأنه تمثال قد من صخر . تلفت حوله لا أحد مطلقا في الردهة الصمت تام إلا من حركة نادر وحارسيه وبضعة رجال يدلفون إلى الداخل في صمت وتحفز يتطلعون بدورهم إلى الصبي الصامت الساكن بدهشة.

أشار مروان بإصبعيه الوسطى والسبابة إلى باب غرفة على اليمين فانطلق رجلان بسرعة وتحفز نحوها وفعل المثل مع الغرفة على اليسار. وحينما أشار إلى السلم الصاعد للطابق الأعلى قال نادر:

- أنت ابن هاني الأعمى. أليس كذلك؟

لم يجبه الصبي . انطلق رجلان نحو السلم ومروان يشير إلى مدخل المطبخ والحمام المواجه للسلم من اليسار قائلا:

- أين خاطفك يا غلام ؟

ظل الصبي كما هو كتمثال لا يسمع ولا يرى ولا يتحرك ، حتى أنفاسه لم يبد لها أثر حتى بدأ الظن يتسرب إليهم من كونه دمية . قال نادر بصوت عال :

- لماذا لا تجيبنا؟

لم يرفع عبدالله رأسه ولكنه رفع صوته بصرامة وغضب يفوقان سنه بمراحل وإن ظل صوته محافظا على رزانة عجيبة:

- دخلتم بيتي بلا استئذان. تتحركون فيه وتنتشرون وتفتشون بلا استئذان. وأيضا تسألني وتريدني أن أجيب ؟ ألا ترى هذا كثيرا يا ذا العيون الزرقاء؟

ضاقت عينا نادر بعجب تردد صداه في صوته:

- تعرفني وتعرف لون عيناي أيضا وأنت أعمى؟

تقدم عبدالله خطوة وهو يقول بكراهية متخذا ذات الوقفة:

- صوتك.
- وهل سمعته من قبل؟
- يتقطر منه الدم . فكيف لا أعرفه.

صمت ليسمح للدهشة اختراق قلوب كل من سمعه وصمت برهة أخرى ليسمح لأبصارهم بتفحصه بعناية ثم قال بنفس الكراهية تتزاحم معها شراسة تفوق أضعاف عمره:

- ذلك الذي قتل جدتي وعمي، قتل صديقي عبدالله وأخي .....

تقدم خطوة أخرى ازداد صوته فيها ارتفاعا وقوة وشراسة جعلت الكل يتوتر ويحدق في الصبي الضئيل المطأطئ الرأس واضعا يديه في جيبيه:

- أخي الذي كان هو عيناي.

عاد لسكونه وهدوئه وهو يتابع بصوت قد هدأ كليا:

- كيف لا أعرفك؟

صرخ نادر بغضب:

- أين أبوك يا ولد ؟ أو ذلك الذي يدعي أنه أبوك ؟ أنت تحاول أن تشاغلني حتى يتسنى له الهرب . أين هو ؟

صدرت من عبدالله ضحكة طفولية رغما عنه اهتزلها جسمه الصغير ولكنه حافظ على وضعه وقال مغالبا ضحكاته:

- أبي وأمي والدكتور رأفت وصديقي الشيخ هاني إمام مسجد الرحمة وعمي ناصر الذي دمرت نواته وتركته لا حيا ولا ميتا عندك في مبنى الشركة. ولكنك محق أنا حقا أشغلكم حتى يتسنى له إنقاذ أصحابه وزوجته.

تقدم مروان قائلا بفضول :

- كيف عرفت هذا؟ هل أخبرك ذلك .....
- كلا يا مروان.
- تعرفني أنا أيضا؟
- كلاب الحراسة دائما لهم أصوات مميزة لا تخطئها أذن خبير.

صاح نادر في حارسيه الشخصيين بغضب شديد:

- أحضرا لي هذا الولد ؟ لقد فشل أبوه في تربيته. يحتاج درسا قاسيا.

تقدم الشابان مفتولي العضلات نحو العصفور الصغير ودارا حول المقاعد والأريكة في وسط الردهة وعبد الله يقول:

- أنت الذي فشل أبوك في تربيتك ولكن للأسف لم يعد هناك وقت إلا لنهايتك.

انتبه مروان لحركة داخل جيبي عبدالله . إنه يمسك في يديه جهاز ما في جيبه . ثم ساد الظلام فجأة و .....

- كنت أتمنى أن أراكم وأنتم تموتون ولكن كما تعرفون أنا أعمى ثم أني لا أريد أن أموت الآن .

ابتعد صوته وهو يقول ضاحكا:

- رحلة سعيدة مع الغاز السام.

أصدرت الأبواب صوتها الإلكتروني الذي يعلن إغلاقها تكاتف مع صوت فحيح أسطوانة غاز تنفس ما فيها من غاز لتبث الرعب في قلوبهم.

◆◆◆◆◆◆

بمجرد أن غادر نادر ورجاله مكتب إدارة الشركة وتلاشت أصواتهم حتى التفت هاني إلى الثلاث رجال المكلفين بحراستهم داخل الغرفة وقال :

- كيف حالكم يا شباب؟

ابتسم الثلاثة بتهكم وتقدم أحدهم نحو هاني المقيد القدمين والمعصمين خلف ظهره بحبل سميك وقال ساخرا:

- وما شأنك أنت بحالنا؟ هل أنت سيدنا الذي نعمل عنده مثلا؟ أم صديق قديم؟

تأمل هاني رفاقه وزوجته المقيدين بنفس الطريقة وناصر الملقى بلا قيود وبلا حراك بجوار أحد الجدران. ثم رسم على شفتيه ابتسامة عصبية وهو يقول ملتفتا إليه من جديد:

- صدقني أنت تتمنى هذا فعلا لو كنت تعلم الحقيقة. ولكن أنا لا أتمناه.

جلس الشاب على مقعد قريب من هاني ورفيق له يقول بتوتر :

- لا تتحدث معه يا سرحان . لقد أمرنا الأستاذ نادر ألا نتحدث معهم.

لم يلتفت إليه سرحان وقال وهو ينظر في عيني هاني مباشرة بتهكم:

- الليل طويل يا صاحبي و لا بأس ببعض التسلية . وأنا أحب التهكم على هؤلاء الملتحين.

قال موجهِا حديثه لهاني قبل أن يعترض أحد زميليه:

- ها ماذا تريد مني أيها الشيخ المبجل ؟ هل تريد أن تجندني لصفك حتى أساعدك على الهرب أنت ورفاقك ؟ أم تحببني في التدين واتباع السنة وإقامة الصلاة وما إلى ذلك؟

هز رأسه علامة الرفض قبل أن يردف بأسلوب مسرحي ساخر متظاهرا بالإشفاق:

- هذه الفرصة ضيعها نادر باشا منك. فأنا كالمحبوس معك تماما غير مصرح لي بالخروج لو حتى للحمام . في الخارج بضعة رجال مأمورين بإطلاق النار على أي خارج من هذا الباب دون تفريق بيننا وبينك وكذلك في هذه المصاعد وكذلك في كل طابق باختصار لا يمكن لأحدنا مغادرة مكانه حتى يأتي نادر باشا شخصيا أو مساعده مروان. ماذا تريد غير هذا؟

ابتسم هاني بسخرية قائلا:

- عجيب أمر كثير من الناس .
- فيما؟
- يصدقون كل ما يقال لهم أو يروه بأعينهم.

مال الشاب للأمام قائلا :

- لم أفهم.
- أنتم جميعا تصدقون أن نادر بالقوة والذكاء الذي يتظاهر بهما فاتبعتموه.

ثم أكمل بتحد وثقة:

- ما هو إلا غبي واهن. أنا إن شاء الله قادر على السيطرة بالعقل أو بالقوة أو بكلاهما معا عليكم جميعا .
- يااااه ؟ ما كل هذه الثقة وأنت مقيد هكذا ومع كل هذه الاحتياطات؟
- أنت لا تعرفني يا فتى.

رفع صوته باستهزاء استعراضي:

- ومن أنت بالضبط؟

بادله هاني نظرات التحدي لحظات قبل أن يقول بنفس الثقة والثبات الفياضان بالتحدي:

- أنا معلم .

حدق فيه الشاب لحظات بعدم فهم ثم انفجر بالضحك. لم يكن ضحكه تهكما لقد فقد فعلا السيطرة على نفسه . حتى أن دموعه قفزت من عينيه وهو يحاول أن يتوقف. وعلى رغم قسوة السخرية في جدية الضحكات إلا أن هاني يتفهم ذلك فظلت ثقته وتحديه ثابتين . قال ثالث الشباب بتهكم وهو يلوح بمسدسه:

- وماذا تستطيع أيها المعلم أن تفعل في مواجهة هذا المسدس؟

قال الشاب سرحان وهو يحاول السيطرة على ضحكاته:

- سيسألك سؤالا صعبا ، لا تستطيع إجابته، فيضربك على قدميك ثم يطردك من الحصة.

قال الثاني بعصبيته وتوتره:

- لماذا لا تكفان عن هذا الحوار السخيف؟ أنا لا يعجبني ذلك . لا يجب أن .....

قاطعه هاني بنفس ابتسامته الواثقة:

- أتفق معك . فليس لدي وقت لهذا فهناك رجل يختطف ابني ويستغل صوتي وتلاميذي ومعارفي للاستيلاء على مدينتي. ونادر حدد مكانه وسخر

كل قوته للسيطرة عليه. وأظنه سينجح هذه المرة فلن يتمكن ذلك الرجل من تفادي كل هذا العدد من الرجال المسلحين.

تمكن سرحان من السيطرة على ضحكاته وقال ساخرا:

- ثم ..... أرني ما الذي يمكن للمعلم المبجل أن يفعل.

تبادل هاني معه نظرات التحدي للحظات قبل أن يقول مبتسما بثقة:

- سأحكي لك قصة . عندما أنتهي منها، ستعلم ما الذي يمكن للمعلم أن يفعله.

مال سرحان للأمام معتمدا بمرفقيه على ركبتيه قائلا باهتمام مصطنع:

- إلي بها. كلي آذان صاغية . ولكن أخبرني أولا ، عندما تنتهي قصتك الرائعة بالتأكيد، هل سيذوب الحبل الذي يقيدك أم سيتمزق.

استنكر هاني بأسلوب استعراضي مقلدا أسلوبه في التهكم:

- لا طبعا. هل تمزح ؟ هل من الممكن لأي كلام أن يحرق أو يمزق؟ مستحيل طبعا. لكن ..... لا أحب أن أسبق الأحداث . ولا أستطيع أن أجزم بالنتائج، لكن أظن أنكم أنتم الثلاثة ستكونون في النهاية تحت قدماي تتوسلون أن أرحمكم.

فتح سرحان عينيه عن آخرهما بانبهاره الاستعراضي هاتفا:

- أووووووه ، لقد تشوقت فعلا لرؤية ذلك... هيا.. أطربني.

تطلع هاني إلى زوجته المنكمشة إلى جانبه مقيدة باكية بكاءٍ مكتوما تحاول أن تدفن نفسها في داخله كأنه حصنها الوحيد في هذا العالم. فقال:

- كان يا ما كان ، في سالف العصر والزمان.....

نقل بصره إلى الدكتور رأفت والشيخ هاني وتطلع إليهما بأسف ووعد وهو يستطرد:

- عاشت بنت اسمها هدير في قصر منيف مليء بالحزن والقهر والشجار والمشاحنات ليل نهار. قطن الحزن قلبها واستقر. والدموع على وجنتيها نهران لا يكادان يجفان.
- قصة اجتماعية هي. لا أحب القصص الاجتماعية.

تجاهله هاني وهو يتوقف بعينيه على جسد ناصر الملقى إلى الجدار وظهره له بحزن يحسر قلبه وهو يستطرد:

- وجدت زهرة في حديقتها ذابلة يزحف الجفاف على أوراقها العجيبة ملقاة على الأرض كأنها مبتورة. شعرت بالتشابه وكأن هذه الزهرة تعبر عن حالتها. فروتها فانتعشت وانتفشت واخضرت ونهضت قائمة.

قال سرحان بعدم فهم:

- من؟ هدير أم الزهرة؟

تجاهله هاني مكملا دون أن يرفع عينيه عن ناصر:

- ثم جاء شخص شرير مثلك تماما ليفسد حياتها أكثر، فقتل أباها وحاول اغتصابها.

- جميل أحب قصص الاغتصاب.

هتف هاني بصوت عال فجأة وهو يلتفت إليه بحدة:

- هبت الزهرة بقوة غريبة ، وضربته بشدة ، وألقته بعنف سحق عظامه.
- ماذا؟
- الزهرة تدافع عن حبيبتها صديقتها التي أنقذتها.
- قصة أطفال إذن. لماذا لم تقل هذا من البداية؟
- أسرع صديقا الشرير ومزقا الزهرة بسيفيهما تمزيقا. اجتثاها تماما. و حاول أحدهما قتل هدير.
- لا تقل أن هدير هذه تمتلك قوى سحرية أو .....

قاطعه هاني بصيحة هادرة جعلته يتراجع في مقعده بفزع وزميلاه يصوبان أسلحتهما لصدر هاني:

- انشقت الأرض وخرج من تحتها ليدافع عن هدير.

ساد الصمت لحظات وهاني ينظر إلى الثلاثة بابتسامة ساخرة ثم تابع بهدوء:

- شاب هزيل ضعيف نتاج تجربة علمية قام بها أبوه بتغيير هندسة جيناته الوراثية ليصبح كائنا وسط بين الإنسان والنبات .
- حيرتنا . ما نوع قصتك بالضبط؟
- عندما احترق بيته ، حاول الفرار ولكنه لم ينج. مات الجسد بسبب النيران بعد أن انتقل من حديقة منزله إلى حديقة منزل هدير. ولكنه لم يمت . تحوصلت نواته ودخلت في مرحلة كمون كأي نبات ثم خرجت للدنيا من

جديد في صورة زهرة هدير و وبدأت تكون الجسم تحتها كالنباتات الدرنية . فجاء خروجه لإنقاذ هدير قبل أوانه فكان ضعيفا. أما أخوه الوحش فقد نبتت زهرته في حديقة منزلهم والتهم الثلاثة شباب الذين اعتدوا على منزل هدير وقتلوا والدها. وعندما خرج للحياة كان أقوى بكثير. ولكن الله أعانني عليه وهزمته وقتلته في النهاية.

هدأ صوته كثيرا حتى اقترب من الهمس وامتلأ بالحزن:

- وتزوج هدير. وتزوجت أنا أمها هذه.

وأشار بعينيه إلى رحمة الملتصقة به. فصاح سرحان بدهشة:

- ماذا؟! هل تعني أن قصتك هذه حقيقية؟!

اقترب الثالث منهما وهو يلوح بمسدسه قائلا:

- هذا الرجل يعبث بك يا سرحان . هذا يكفي.
- يعبث بي؟! انتقي كلامك يا صاح . لا .....

قاطعه هاني بصوت عالٍ كأنه لا يسمعهما:

- أنجبت أنا توأمين جميلين عبدالله وعبدالرحمن. ولكن هدير وناصر لم ينجبا. ظننا في البداية أن السبب من ناصر أخي الراقد هناك لنشأته غير الطبيعية.

قالها وهو يشير بعينيه إلى جسد ناصر ثم أردف بأسى حقيقي:

- لنشأته غير الطبيعية. لكننا كنا مخطئين. كان السبب من هدير . واحتار الأطباء هنا في حالتها حتى توصل طبيب مصري إلى العلاج وهو عملية دقيقة تحتاج أجهزة حديثة ليست متوفرة في مصر.

تطلع الثلاثة لظهر ناصر المواجه لهم بحيرة وهم يتساءلون في أنفسهم: (هل حقا هاني يخبرهم بقصة حقيقية أم يحاول خداعهم؟ ولكن كيف ؟ ماذا سيستفيد من قصته هذه ؟ تضييع الوقت؟ هو أحوج للوقت؟ إلى ما يرمي إذن؟)

- هو لا يعرف ذلك . لم نخبره. لم نرد أن نعلقه بأمل ثم نسلبه منه ، لأن حالته النفسية في الفترة الأخيرة قد ساءت كثيرا بسبب هذا الأمر. لذا سافرت أختي الدكتورة منار معها لحضور مؤتمر طبي في الولايات المتحدة.

تطلع إلى ناصر متابعا بحزن كأنه يخاطبه:

- ولقد تمت الجراحة بنجاح . وها هي في الطريق. لم نرد أن نخبرك يا صديقي إلا بعد أن تحمل طفلك في بطنها ولكنك .....

صمت يبتلع أحزانه عاجزا عن اختيار لفظ مناسب. فقال له سرحان وهو ينقل بصره بينه وبين جسم ناصر:

- هل تحاول بقصتك هذه إفاقته مثلا؟

لم يلتفت إليه هاني وتابع حديثه:

- ونادر يتربص بهما . سيكون في انتظار طائرتهما غدا في السابعة. وقد يقتلهما.

قهقه سرحان ساخرا وهو يقول من بين ضحكاته:

- يبدو أنك تسرف في سماع الأفلام الخيالية يا رجل. تظن كلامك قد يوقظه من غيبوبته؟

ابتسم هاني بتهكم بدوره قائلا:

- الأفلام والمسلسلات للتافهين أمثالك الذين لا يعرفون قيمة أوقاتهم فيهدرونها عبثا.

نهض سرحان وصوب مسدسه نحو رأس ناصر قائلا :

- على كل حال لن أخسر شيئا إذا قتلته .

قالها وسحب صمام الأمان في مسدسه ثم أردف ملقيا نظرة استهزاء وتحدي إلى هاني :

- وعقابا لك على إهانتي بوصفي تافها.

وأعاد بصره إلى رأس ناصر ليحكم التصويب وضغط زناد مسدسه.

◀▲◆◆◆◆◆

تحرك يحيى بين شباب المدينة المحتجزين في مبنى ضخم من المباني التي لا تزال تحت التجهيز. رغم برودة الجو وخلو المبنى من النوافذ والأبواب إلا أنه كان يتحرك بخفة ونشاط من طابق إلى طابق، ومن شقة إلى شقة . يطمئن هذا ، ويداعب هذا . هذه مجموعة يلعبون سويا لعبة رياضية معينة طلبا للدفء ، يشاركهم لبعض الوقت . ثم ينتقل إلى مجموعة أخرى يتناقشون في قضية

سياسية يقف بينهم مناقشا عارضا وجهة نظره . ثم يغادرهم إلى مجموعة أخرى ثم ...

- يبدو أنك قد نصبت نفسك قائدا هنا.

رمقه يحيى بنظرة ثاقبة مع ابتسامة واسعة لا تغادر وجهه أبدا قبل أن يقول بهدوء مرح:

- نحن أخوة يا أستاذ توفيق . لا قائد ولا تابع. ما الأمر؟

حدق فيه توفيق بمقت هاتفا بغضب:

- أنت مشكلتي.

حاول يحيى أن يستشف مقصده متأملا ملامحه وهو يقول متعجبا:

- وكيف هذا ؟

دنا منه توفيق خطوة وهو يهتف بغضب:

- كلما تجمع حولي صحبة يقتنعون بفكرة الهرب ، تظهر سيادتك وتفرقهم من حولي. تقنعهم بالعدول عن الهرب.

اتسعت ابتسامة يحيى أكثر وهو يردف:

- لأنها فكرة غير صحيحة.

تطاير الرزاز من حلقه وهو يهتف في غضب:

- وهل الصحيح أن نجلس هنا كالنعاج وعددنا يتجاوز المائتين ، والذين يحبسوننا لا يتجاوز عددهم العشرة.

مسح يحيى الرزاز عن وجهه وهو يقول بهدوء محافظا على ابتسامته:

- وحتى إن كان واحدا. فكرة الهرب الآن غير صحيحة.

امتزج التهكم مع الغضب في نبرات صوت توفيق وهو يواصل صياحه في وجه يحيى وقد التف بضعة نفر حولهما:

- غير صحيحة فقط لأنها تخالف وجهة نظر معلمك. أليس كذلك؟

وضع يحيى يده على كتف توفيق في ود وهو يقول بنفس هدوئه وابتسامته التي تزيده وسامة:

- وإن كان هذا صحيحا . لأن معلمي لا يخطئ، وأنا أثق فيه أكثر من ثقتي بأن الرزاز الذي يتناثر على وجهي يخرج من فيك كلما فتحته كأنه يبغضه. إلا أني أعلم .....

ضرب توفيق يده بخشونة ليبعدها عن كتفه . ولكنه أعادها متابعا:

- إلا أني أعلم أن هؤلاء الرجال مسلحون وخطرون . ومستحيل أن تنجح إلا بإراقة الدماء من كلا الجانبين. وهذا ضد مبادئ أنا ومعلمي.

ضرب يده مرة أخرى وهو يصرخ في وجهه:

- مبدأ الجبناء.

رفع يحيى بصره يقلبه في الوجوه التي حوله وهو يقول بابتسامة تتسع مع كل وجه تقع عليه:

- حقن الدماء بغير ضرورة ليس جبنا. أنتم جميعا إخواني ولا أرضى ولا أحب أن يشاك أحدكم بشوكة. وأنا بين أظهركم.
- لماذا لا تخرج إليهم إذن وحدك فـ.....

قاطعه يحيى بالتفاتة حادة وصوت تخلى عن بعض هدوئه وإن ظلت الابتسامة تزين وجهه:

- هؤلاء أيضا إخواني . هم مسلمون مصريون. هم فقط يؤدون عملا ليقبضوا منه راتبا يطعمون به أبناءهم. كيف أحاول إيزائهم؟
- إذن نبقى هنا مستسلمين كالخراف حتى يقرر سيدهم القاتل إن كان يحب أن يقتلنا أو يعفو عنا.

صمت يحيى قليلا يتبادل معه نظرات التحدي قبل أن يقول:

- لذلك أخذت أنت وأصحابك هذه الشقة النائية حتى يتسنى لكم الانفراد بي والتخلص مني. هذا ما تخطط له. لست هنا لتناقشني. أليس هذا ما تحاول فعله؟

ما أن قالها حتى قبض اثنان على كل ذراع من ذراعيه يمنعاه من الحركة فابتسم توفيق قائلا بشماتة:

- ذكي . ولكن بطيء الفهم ، وجبان ولسنا مثلك أنت ومعلمك .

تجمدت ابتسامة يحيى وتلاشت دفعة واحدة وهو يهتف:

- معلمي ليس جبانا. معلمي يواجه في هذه اللحظة نادر وجيشه وحده حتى يعيدك إلى أمك سالما.

علت ضحكات توفيق الساخرة تبعها قائلا:

- من تظن معلمك هذا؟ الرجل الخارق؟ أم شبح خفي لا يمكن الامساك به؟ أراهن بلحيتك هذه أنه نائم الآن ملء جفنيه . ما هو إلا أفاق منافق . لا يهمه إلا عائلته وأمواله ويستغلك أنت وأمثالك للوصول لأهدافه.

صمت يحيى يحاول السيطرة على أعصابه التي بدأت تثور:

- لولا أنه أخبرني بالذي يحدث الآن وطلب مني ألا أواجهكم بالعنف لعلمتكم كيف تتكلمون عن .....

قاطعه غاضبا مستنكرا:

- نفس الغرور الغبي .. ماذا يفعل بكم هذا الرجل؟ هل ينسخ شخصيته عليكم؟

استعاد يحيى هدوءه قائلا:

- هذا شيء يفوق إدراكك يا فتى. فلتفعلوا ما تشاءون ، لن أمنعكم ولكن .....

واجه الشباب المحيطين به قائلا :

- لي رجاء واحد انتظروا حتى شروق الشمس. المفترض طبقا لخطة الأستاذ هاني أن كل جنود نادر سيغادرون المدينة من تلقاء أنفسهم. ولم تبق إلا سويعات ليست .....

قاطعه حجر من أحجار البناء هوى به شخص ما على مؤخرة رأسه بكل قوته، فسقط بينهم على وجهه بلا حراك، والدماء تسيل من رأسه.

نظر إليه توفيق في توتر قائلا:

- وأنا لن أنتظر. لست جبانا ولا ضعيفا كي أجلس هنا منتظرا تعطف سيدك علينا أو عدمه.

ثم صاح فيمن حوله:

- من منكم سيأتي معي؟

◆◆◆◆◆◆

أيقن شهاب أنها النهاية. لو كان بكامل صحته لوثب بينهم بلا تردد. لم يكن ليحسب النتائج، هل سيغلب أم سيُغلب. كان سيرسم خطة سريعة بمن يبدأ وأين يضرب وأي طرف مَن أطرافه سيستخدم. ولكن الآن وبحالته هذه لا يملك إلى أن يترجل من السيارة بهدوء ويغلق بابها حماية للممرض المسكين ثم يغمض عينيه منتظرا الرصاصات تخترق جسمه.

ودوت الرصاصة. لا ، ليست رصاصة. انفجار بدوي أضعف . صوت تهشم زجاج واشتعال نيران. فتح عينيه مندهشا على صوت مماثل ونيران تشتعل وسط رجال نادر حدق مذهولا في ذلك الشبح الذي وثب وسطهم بجرأة وراح يفعل بهم ما كان سيفعله هو لو كان بكامل صحته.

انتفض بفزع علي يد تقبض على معصمه وتجذبه بقوة . جذب يده يحاول الإفلات ولكن اليد التي تقبض على معصمه لم تفلته . وصوت صاحبتها يصك أذنيه قويا صارما:

- هيا أسرع .. لا وقت.

نظر لتلك الفتاة المتشحة بالسواد كالتي تقاتل في وسط الرجال بضراوة ثم تبعها دون تفكير وهو يتساءل بحيرة : – من هاتان؟

نظر للوراء وهو يبتعد عن بوابة المستشفى عابرا الطريق ليرى الفتاة الأخرى تغلبت على رجال نادر وتحاول اللحاق بهما. واتسعت عيناه فزعا عندما رأى أحد رجال نادر يلتقط مسدسه ويصوبه إلى ظهرها ثم .... صرخ بألم وفزع وسهم يخترق ساعده . أعاد بصره للأمام ليرى فتاة ثالثة بقوس وجعبة سهام تجهز سهما آخرا بسرعة. كاد يسقط إذ تجذبه المسكة بمعصمه وتعدو دون أن تلتفت. قبضت الأخرى على معصمه الآخر وانطلقتا به في الشارع المقابل للمستشفى من الناحية الأخرى من الطريق . حاول أن يواكب سرعتيهما دون أن يسقط وهو يسمع صيحات رجال نادر ليتجمعوا من كل صوب . طلقات نارية . صرخات ألم . ألم حاد في صدره برز أمام عينيه الزائغتين مجموعة جديدة من رجال نادر . دوار في رأسه وانفجارات . وبرزت شبح آخر متشحة بالسواد وثبت بينهم بسيف في كلتا يديها. هل يهذي أم يحلم؟ . دوار رأسه وآلامها إعصار يعصف بكل كيانه . أربع فتيات متشحات بالسواد يدافعن عنه.

و .....

سقط بينهن وابتلعه الظلام.

◆◆◆◆◆◆

ما أن بدأ الوعي في التسلل إلى عقل نادر حتى انتفض بذعر يلهث كأنه يطمئن نفسه أنه مازال على قيد الحياة. جالسا إلى مقعد وثير في ردهة فيلا هاني . تلفت حوله في ارتياع وعدم تصديق وقد عادت الأضواء قوية. رجاله معظمهم مصاب وآخر صريع ملقى بجوار الباب . من الواضح أن الإصابات كلها طلقات نارية. من أطلق عليهم النار؟ لقد انفجرت قنبلة الفوضى عندما صرح الصبي بإطلاق غاز سام عليهم بعد انقطاع الكهرباء، فدوت في الردهة الصيحات

والصرخات والطلقات النارية. وحاول البعض إضاءة هواتفهم المحمولة كان يحاول بدوره الهرب بجنون و ....

جذبته يد قوية والظلام يغلف عقله , شخص ما صدمه. شخص ما ضربه. ظلام ثم ظلام ثم .....

- ثلاث سيارات إسعاف بسرعة أيها الغبي . إنها مذبحة. الرجال يموتون.

هب واقفا وهو يهتف في مروان الذي يتحدث في الهاتف:

- ما الذي حدث يا مروان؟ من فعل كل هذا؟

التفت إليه مروان بغضب وأنفاس متلاحقة:

- رجالك .

حدق فيه نادر بعدم فهم :

- ماذا؟
- رجالك أصابهم الجنون عندما سمعوا كلمة غاز سام ثم صوت تسرب الغاز. فتسابقوا وتدافعوا على الباب المغلق ثم تقاتلوا وأطلقوا النار على بعضهم البعض.

كاد نادر يبكي من الغضب والإحساس بالفشل و يصرخ:

- والغاز السام والطفل.

لم تظهر نظرات مروان ما يعتمل في صدره وهو يقول بضيق:

- ما من غاز سام . إنه غاز (ديسفلوران) المخدر عن طريق الاستنشاق . سريع المفعول يستخدم في العمليات الجراحية. ولكنه غالي الثمن فلا يستخدم في الدول النامية.

تطلع إليه نادر بدهشة :

- كيف عرفت هذا؟
- اسمه على الاسطوانة . وأنا كنت مع هاني عامر وهو يستورد شحنة منه لمستشفى الرحمة.
- أين الصبي ؟ ألم تمسكوه؟

ابتسم مروان بمقت وضيق قائلا:

- لقد استولى الفزع على قلوب الجميع فلم يفكر أحد في الطفل.

صرخ نادر بجام غضبه:

- من فعل هذا ؟ من أطفأ الأنوار وأطلق الغاز؟ لا يمكن أن يكون الصبي الأعمى هو من فعل.

رمقه مروان بمقت قائلا:

- طبعا لا. ولكني رأيت قبيل أن أفقد وعيي شبحا يخرج من غرفة المكتب ويحمل الصبي مسرعا.

دار نادر حول نفسه ينقل عينيه الزائغتين بحسرة وثورة بين رجاله

صارخا بجنون:

- هو بالتأكيد هاني. لماذا لم تقتله أو تقبض عليه ؟ لماذا تركته يهرب؟

ضغط مروان على شفتيه يكتم غضبه ومقته قائلا:

- لقد كنت أنقذك من رجالك. كادوا يقتلونك وهم يحاولون الهرب لولا انتزعتك من بينهم.

أمسك نادر مروان من كتفيه ورجه بعنف وهو يصرخ بصوته الباكي:

- والمال والعقود.
- لقد كان فخا يا سيدي . لا مال ولا عقود.

اتسعت عيناه بأمل هاتفا:

- هل تعني أنه لم يبع المملكة؟
- للأسف لقد باعها بالفعل . لقد كان رجل الجيش هنا.

أشار لمطفأة السجائر الملقاة على الأرض وبجوارها بعض الرماد وعقبي

سجائر متابعا:

- فهاني لا يدخن. ثم أني عرفت الرجل من الصور المنشورة وإن كان وجهه غير واضح، فهو كان من أكبر ضباط الجيش الذين يعيشون في المملكة رتبةِ وسنا. وكان من المقربين لهاني.

ترك نادر جسمه يتهاوى على المقعد بانهيار:

- هل هزمني هاني من جديد؟
- ليس بعد يا سيدي. ألم تقل أن لديك مشتر. إن تمكنت من انهاء البيع

الليلة . عدنا لمبنى الشركة وأجبرنا هاني أن يحضر مال الخزينة.
إن كان اقتنص عصفورا بقي اثنان.

هب نادر وقفا وهو يلتقط هاتفه من جيبه واتصل على جابر وقد انتعش الأمل في قلبه من جديد:

- أين أنت يا جابر؟ ..... هنا في المملكة؟ عظيم. ..... لقد فكرت في العرض الذي عرضته علي . وأعتقد أنك محق فيما قلت . هذه البلد لم تعب أمانا. ..... نعم ، نعم . هذا جيد . سآتيك فورا. أين تقطن؟ ..... والمال؟ جاهز ؟! هل كنت تتوقع أن أقبل؟! ..... يخبأه عندك؟! على كل حال أنا قادم إليك.

ابتسم مروان بظفر قائلا:

- عظيم ... يبدو أن القدر يبتسم لنا يا أستاذ هاني . حان الوقت لتوجيه ضربة قاصمة لك.

◆◆◆◆◆◆

(٨) الخدعة الكبرى

أحكم تصويب مسدسه إلى رأس ناصر وضغط الزناد وابتسامته تتسع ولكنها لم تكتمل. ارتفعت قبضته رغما عنه لتصيب رصاصته الجدار.

التفت بدهشة وغضب ولم تكتمل التفافتته، اصطدمت أنفه بقبضة صلبة تراجع رأسه من عنف الصدمة. وقبل أن يعيدها للأمام أو حتى يفكر كان جسمه يطير في الهواء ويضرب رفيقه بعنف ويسقطان أرضا.

جذب الثالث صمام أمان مسدسه وهو يصوبه نحو صدر هاني وأطلق النار بتوتر وذعر قبل حتى أن يكتمل سقوط رفيقيه فأصابت رصاصة كتف أحدهما قبل أن تقبض على معصمه أصابع فولاذية وتبعدها فتتهشم النافذة الزجاجية الجدارية بدوي رهيب اشترك مع صرخات رحمة المذعورة لينتفض كل رجال الأمن في مبنى المملكة بذعر.

تراجع الشاب بذعر ومسدسه في قبضة هاني مصوبا إلى رأسه. وتراجع مذعورا وهاني يهتف بتحدي

- هل علمت الآن ما الذي يمكن للمعلم أن يفعل؟

بصق سرحان الدماء التي دخلت فمه من نزيف أنفه قبل أن يقول بتوتر :

- وما علاقة عمل المعلم بما فعلت الآن؟ لقد شغلتني بقصتك التافهة وفككت قيودك. وفاجأتني وضربتني. وما يستطيع أي معلم أن يفعل ذلك.

أشار إليهم هاني أن يجتمعوا بعيدا عن رفاقه وهو يقول :

- هذا من جهلك وغبائك. المعلم يصنع ما هو أكبر من ذلك. المعلم هو صانع العقول، ويشكلها كيف يشاء . المعلم هو صانع الأمم.

فك وثاق الدكتور رأفت محافظا على تصويب مسدسه نحوهم وكامل انتباهه وهو يواجه سرحان متابعِا خطابه معه:

- المعلم هو الذي يصنع الحضارة ، هو الذي يصنع القوة ، بل يصنع صناع القوة لا مجرد استخدامها. استخدام القوة لا يعجز عنه حتى الحيوانات.

نهض الدكتور رأفت وهو يحرك أطرافه بعد أن حررها هاني ثم أسرع إلى الشيخ هاني وقال موجها حديثه لسرحان:

- وأقرب دليل ما فعله تلاميذ الاستاذ هاني . استطاعوا زلزلة نادر وأطاروا النوم من عينه و .....

بينما ينهض الشيخ هاني بعد تحرره من قيوده ، فتح باب المكتب بغتة ووثب إلى الداخل بضعة رجال مسلحين يصوبون أسلحتهم يهمون بإطلاقها.

وثب هاني نحو رحمة يحميها بجسمه من مرمى الرصاصات وصوت صمامات الأمان تمزق أي إحساس بالأمان في قلوبهم. دوت صيحة قتالية أعادت الحياة لقلب هاني حتى أنسته للحظة الخطر الذي يحيط به. التفت بكيانه كله ليرى ناصر يثب وسطهم و .....

انقطعت الكهرباء فجأة.

خفض توفيق وأصحابه رؤوسهم في مذلة. وأصحاب يحيى الذي يربط رأسه بقماش أبيض مخضب بدمائه يطوقونهم من جميع الجهات:

- لقد توقع الأستاذ هاني وجود تمرد مثل الذي حاولت تحريكه. وكلفني بمهمة محددة ألا وهي السيطرة عليه.
- لا أستطيع استيعاب موقفكم هذا أبدا.

تحرك يحيى بينهم كما يتحرك المعلم بين تلاميذه في حجرة الدراسة ويقول كمعلم يجيب على سؤال تلميذه:

- هذا لأنك لا تستطيع التحرر من قيود الخصال الحيوانية التي تكبلك.

رفع رأسه إليه وهو يستطرد:

- وهب الله سبحانه وتعالى الإنسان العقل والعلم ليتميز بهما عن سائر خلقه. ولكن منا من يرميهما خلف ظهره ويصدِّر قوته وسطوته. ومنا من يستخدمهما لبناء قوته وسطوته ومنا من يكرسهما لعبادة ربه ومنفعة خلقه.

هتف توفيق بضجر:

- ما علاقة هذا الهراء بما نحن فيه؟

ابتسم يحيى وجلس أمامه على الأرض وهو يداعب لحيته مفكرا للحظات قبل أن يقول بهدوء ووجه بشوش:

- يا صديقي كل ما أريد قوله، أن الأستاذ هاني يسعى الآن لتحريرنا جميعا دون استخدام القوة والعنف.

- ولكنكم قتلتم أربعة منهم ألم يكن ذلك عنفا. أم تحلل وتحرم كما يحلو لك.
- هؤلاء وعلى رأسهم نادر هم السبب المباشر بل واشتركوا بأيديهم في مذبحة ميدان الرحمة ألا تذكرها.

مال نحوه متابعا:

- ترى لو كان أخوك أو ابنك أو والدك واحدا ممن قتلوا يومها، ألم تكن لتفعل المثل.

نهض واقف بثورة مستطردا:

- أنا حملت على ذراعي هاتين عبدالرحمن ابن الأستاذ هاني وعلاء أخيه وقد اختلطت أشلاؤهما . ولقد حملت يومها عشرات الجرحى والمصابين.

سالت دموعه رغما عنه وغلبه البكاء فصمت قليلا يسيطر على مشاعره قبل أن يتابع بأسى:

- ومات صديقي رجب قبل أن أصل به إلى المستشفى.

خيم الصمت بعدها على الجميع وذكرى ذلك اليوم تدمي قلوبهم حتى قطعه توفيق قائلا:

- لا يستحقون الرحمة إذن.

انفرجت شفاه يحيى بابتسامة حزينة وهو يقول بصوت خفيض:

- من قتل فقط يا صديقي . سأكشف لك سرا . الأستاذ هاني يقوم بخدعة كبرى هدفها الأول قبل الانتقام تحرير مدينتنا مدينة الرحمة من ذلك

السفاح نادر واستعادتها مرة أخرى. وكانت آخر مهمة لي أنا وفريقي السيطرة عليكم حتى لا نخسر أحدكم .

صاح توفيق:

- لقد قلتها يسعى لاستعادة مدينته. هو يستغلكم بل يستغلنا جميعا ليغلب خصمه ويقهره ولا يأبه لأحد منا وسترى.

اتسعت ابتسامة يحيى وهو يقول بنفاد صبر:

- لا فائدة ... إنها سنة كونية. من المستحيل أن يجمع الناس على رجل واحد قال ربنا عز وجل:

((وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾))

سورة الأنعام

فمادام لكل نبي عدو، هل ينجو أي بشري عادي مهما بلغ صلاحه من أعداء.

جلس القرفصاء أمامه ليقول له:

- رجائي الوحيد منك أن تصبر قليلا . لقد أوشك الثعلب أن يسقط في الفخ. ما دام الأستاذ هاني أخبرني أن هذه مهمتي الأخيرة هذا يعني أنه يكاد يحكم قبضته.

◆◆◆◆◆◆

- الأستاذ هاني أخبرني أن هذه مهمتي الأخيرة هذا يعني أنه يكاد يحكم قبضته.

هتف شهاب بنفاد صبر:

- يا بنيتي .. هذا الذي يوجه إليكم الأوامر ليس هو الأستاذ هاني .

تطلعت الفتاة إلى والدها ووالدتها بثقة وهي تقول:

- يا أستاذ شهاب أنا تلميذتك في رياضة الكونغفو وتلميذة الأستاذ هاني في اللغة الفرنسية. أنا واثقة أن الذي يكلمني في الهاتف هو الأستاذ هاني كما أني واثقة أنك الأستاذ شهاب.
- أنا أجلس أمامك الآن أما هو لم تره مطلقا.

قال والدها وهو يربت على يده:

- يا أخي تناول طعامك وأنت تتكلم . أنت بحاجة ماسة للطعام .

ألقى شهاب نظرة على الطعام الموضوع أمامه منذ أكثر من نصف ساعة دون أن يمسه رغم أنياب الجوع التي تنهش في معدته ثم رفعها إلى الوالد قائلا:

- يا أخي العزيز رفيدة بمثابة ابنتي إنها أفضل تلميذاتي على الإطلاق ما رأيت بمثل نبوغها وهمتها العالية . لقد انخلع قلبي عليها الليلة عندما ألقت نفسها بين خمسة رجال مسلحين وآخرين لا أعرف عددهم بغير سلاح

بغرض إنقاذي. والله لأهون علي أن أموت من أن يتكرر ذلك المشهد مرة أخرى.

قالت رفيدة بصوت حيي خفيض:

- لن يتكرر يا أستاذي العزيز. لقد أخبرني الأستاذ هاني ألا أغادر البيت. لقد انتهى دوري.

دفن شهاب وجهه بين كفيه بنفاد صبر قائلا:

- لا حول و قوة إلا بالله العلي العظيم. والله لقد كنت مع هاني منذ خرجنا سويا من مسجد الرحمة في ذلك اليوم المشئوم ولم أتركه إلا منذ قليل.

تبادل الوالدان نظرات الريبة وهو يتابع:

- ثم أن هاني من المستحيل أن يأمر بقتل أحد أو يقتله مهما كانت الأسباب .

لو كان هو ما أمر بقتل الأربعة الذين قتلوا من رجال نادر أيا كان جرمهم. ومن المستحيل أيضا أن يعرض رفيدة وزميلاتها إلى الخطر حتى لو كان في ذلك حياته.

قالت الأم بحنان:

- يا بني تناول طعامك وأنت تتكلم .

لم يبد عليه أنه سمعها وهو يردف:

- لا أرى سوى رجلا يستغل صوت هاني وحب تلاميذه ومهاراتهم ومأساة مدينتنا لكي يستولي عليها لنفسه.
- لماذا أرسلنا لإنقاذك إذن؟ ولماذا أنقذ عمي ناصر ثم الدكتور رأفت ثم السيدة رحمة ؟ ولماذا يرعى عبد الله ولا يغفل عنه لحظة.

صمت يفكر يعجز عن إيجاد جواب حتى خطرت له فكرة فهتف بحماس:

- أين هاتفك؟ أريد أن أكلمه.

أسرعت إلى حيث التلفاز تلتقط الهاتف من فوقه قائلة:

- كيف لم يخطر لنا ذلك على بال؟

أصدر الهاتف رنينه قبيل أن تلتقطه فابتسمت وهي تقول دون أن تنظر إلى الشاشة:

- أنا متأكدة أنه هو. يريد أن يطمئن عليك.

تطلع شهاب إليها بدهشة. ورأى ابتسامتها تتسع وهي تنظر إلى الشاشة.

التقط الهاتف من بين أناملها بتوتر ووضعه على أذنه:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كيف حالك يا روفي ؟

اعتدل شهاب واقفا وتطاير من قلبه كل توتر لدى سماعه الصوت . لقد كان صوت عبدالله هتف بفرحة غامرة:

- عبدالله! .... كيف حالك يا حبيبي ؟ أين أنت؟ ومن هذا الذي معك؟

أتاه صوت عبد الله هادئا حزينا وإن حاول أن يكون مرحا:

- اهدأ يا عمي شهاب ولا تخش علي . أنا في أمان . طمئني عليك أنت وعلى والدي وأمي هل هما بخير؟
- أنت تعرف أن الذي معك ليس والدك؟! لقد ظننـ... أين هو ؟ أريد ....

قاطعه عبدالله :

- اطمئن يا عمي العزيز ، لست مخطوفا. وليس لدي وقت الآن لكي أحكي لك . المهم .....

قاطعه شهاب بحزم:

- المهم الآن أنت. لقد أوصاني أبوك أن إذا نجحت في الهرب أن أصل إليك وأنقذك من هذا الذي يحتجزك.

صمت عبد الله ولم يجبه حتى صاح في الهاتف :

- أجبني يا عبد الله .

جاوبه صمت ثم صوت صياح فصرخ في الهاتف بفزع:

- عبدالله! ...

التقطت أذناه صوت نادر وهو يصرخ بغضب جنوني :

- سأقتلك, ليس نادر من .....

انقطع الخط. التفت إليهم بفزع قبل ان يهتف في رفيدة:

- عبدالله في خطر .... لا بد أن أصل إليه فورا... إن نادر هناك. كيف أصل إليه؟

توترت رفيدة وسيطر الارتباك والتردد على صوتها:

- لا أدري ماذا أفعل . لقد أمرني أن .....

قاطعها صارخا:

- قلت لك ليس هاني من يكلمك . إنها خدعة كبرى. ونادر وصل إليهم.

انتفضت رفيدة مذعورة وهي تتراجع بخوف وقلق قبل أن تتمتم بصوت متلعثم :

- الوحيدة التي كانت تذهب إليه وتقابله هي ندى.

عقد حاجبيه معتصرا ذهنه :

- ومن ندى هذه؟

أجابته بارتباك وحيرة من يقدم على فعل مجبرا وهو يشعر بخطأ الإقدام عليه:

- أقرب تلميذات الأستاذ هاني إليه، لذلك هي أكثر من ائتمنها على عبد الله فهي الوحيدة التي تعرف تحركاته وأماكن إقامته وتذهب له بالطعام.
- أين هي؟

التقطت هاتفها من يده واتصلت بندى بأنامل مرتجفة. ثم اتصلت ، ثم اتصلت. وما من مجيب.

◆◆◆◆◆◆

- هذا هو المال ... وهذه العقود... وقع واستلم.

تطلع نادر إلى الصندوق الكبير المملوء بالمال في توتر، ينتابه شعور بأن خدعة ما تنصب حوله . التقط رزمة مالية وراح يفحصها . الأوراق المالية سليمة ليست

زائفة. نقل بصره إلى الجدار المقابل شاردا . الموقف يتداعى بسرعة غريبة. في أول النهار كان كل شيء في يده ثم بدأت الخيوط تفلت خيطا خيطا. وقعت عيناه على آية قرآنية على الجدار. تطلع في شك إلى جابر الذي يقول بارتباك وهو يحك كرشه الضخم بأطراف أنامله:

- لقد أوشك الليل أن ينقضي وأنا لدي موعد عمل في القاهرة في السابعة صباحا.

قال نادر في تردد:

- لا أشعر بارتياح . ثمة شيء ما خطأ.

أشار إلى الآية القرآنية المعلقة على الجدار قائلا بتهكم:

- متى تبت وأصبحت متدينا لدرجة أن تعلق آيات قرآنية على الجدار؟

أغلق جابر الصندوق بعد أن انتزع الرزمة المالية من يد نادر وألقاها فيه. وقال بصوته المتوتر:

- ليس هذا شأنك.

جال نادر بعينيه في أرجاء الردهة الواسعة قائلا بتعجب:

- وهذه الفيلا أيضا.. كيف حصلت عليها؟! لست ثريا لدرجة أن تشتريها أو حتى تستأجرها.

ازداد توتر جابر ومسح عرق وهمي على رأسه الأصلع وهو يتمتم:

- نسيت أني أعمل مع رجل كبير جدا من نظام مبارك .هذه المدينة كلها لا تساوي واحد من عشرة من ثروته . ثم هذا ليس موضوعنا إن لم ترغب في البيع فلا أحد يضربك على يدك. بل لم أعد أحتاج لعرضك . لقد اتفقت بالفعل في صفقة أخرى. وعلى وشك اتمامها. عندما اتصلت بي وافقت فقط لأريح نفسي من عناء الرحلة ومخاطر التسليم . أنت تعلم وضع البلد هذه الأيام. إما أن توقع وإما ترحل حتى يتسن لي الإسراع.

نقل نادر بصره إلى مروان الذي يقف بين حارسيه في تساؤل فأجابه بجمود بلا أي مشاعر:

- أعتقد أنه لا حل آخر .ولهذا جئنا.

ملأ نادر صدره بشهيق كبير ثم التقط القلم ووقع العقود بتردد.

التقط جابر العقود بسرعة قائلا :

- يمكنك الآن أخذ المال . وارحلوا بسرعة.

اتجه إلى حجرة جانبية وهو يتابع:

- سأغير ملابسي ، فأنا في عجلة من أمري.

ما أن أغلق باب الحجرة خلفه حتى أشار نادر لحارسيه:

- هيا احملا هذا الصندوق إلى سيارتي.

بينما يحملا الصندوق استدار نادر مصوبا مسدسا نحو صدر مروان قائلا:

- أشكرك كثيرا يا مروان على مساعدتك لي. حقيقة لقد .....

توقف عن الكلام إذ رأى ابتسامة مروان الواسعة بدلا من الخوف أو الدهشة الذي كان يتوقع أن يرى أحدهما على الأقل. عقد حاجبيه قائلا:

- لماذا تبتسم ؟ من المفترض أن تخاف. تندهش على الأقل .

اتسعت ابتسامته أكثر وهو يعقد ذراعيه أمام صدره قائلا بهدوء عجيب:

- هذا إن لم أكن أتوقع منك هذا التصرف.

ازدادت حيرة نادر ودهشته وهو يسأله:

- وهل توقعت أن أغدر بك؟

توقف حارسا نادر بجوار باب الفيلا بعد أن فتحه أحدهما ولم يغادرا وهما يرمقان نادر ومروان بحيرة وتردد ومروان يجيبه بثبات :

- وماذا أتوقع من قاتل أبيه؟

سحب نادر صمام الأمان قائلا:

- تعلم أني قاتل أبي؟ ولا تخاف الموت؟

أرخى مروان ذراعيه قائلا :

- ما دامت مهمتي قد تمت بنجاح فلا يهمني إن جاء الموت أو تأخر .

اقترب نادر منه قائلا:

- أية مهمة؟ لقد بدأت تتكلم مثلهم.

- أن أعيد الحق لصاحبه. العقود التي وقعتها الآن أعادت المملكة كاملة للأستاذ هاني.

وأشار لصندوق المال قائلا بتهكم وظفر:

- وهذا المال زائف . الطبقة العليا فقط هي السليمة.

صرخ نادر بثورة وهو يكزه بمقدمة المسدس في صدغه ورجليه يضعان الصندوق أرضا:

- أنت تخونني من البداية. أنت تعمل مع هاني . ولكن لقد ... مستحيل!

صفق مروان بيديه ساخرا:

- يا لك من عبقري... لقد أدركت ذلك وحدك.
- ولكنه قاتل أبيك.

تحولت لهجة مروان للمقت والغضب:

- أنت قاتل أبي. أنت الذي كنت تستغله لأعمالك الإجرامية . أنت الذي أحضرته لمصرعه وهاني كان يدافع عن زوجته وأبيك. حتى عندما ألقى سيفه نحو أبي لم يصبه في مقتل لقد أصاب ذراعه.

تمتم نادر بذهول :

- أنت تعرف كل شيء . ولكن ..... لم ينته كل شيء بعد . ما زال جابر في الداخل ومعه العقود.

ارتفعت ضحكات مروان الساخرة قبل أن يقول:

- جابر في الداخل ، هذا صحيح . لكن العقود أخذتها العصفورة وطارت.
- ما هذا الهراء؟

أشار لأحد رجليه قائلا بغضب:

- أحضر لي هذا الحيوان جابر.

ثم صاح في مروان:

- لقد اشترى ضابط من الجيش المدينة ورجاله .....

قاطعته ضحكات مروان الساخرة قبل أن يقول:

- خدعة أيها العبقري.
- خدعة!! أتقصد أنه بيع زائف ؟! وجابر... إنه من ألد أعداء هاني . كيف ....
- لهذا اخترته لأداء هذا الدور ... فأنت لن تشك فيه.

ألقى حارس نادر جابر على الأرض وهو يبكي ويتوسل فصرخ فيه نادر وهو يصوب نحوه مسدسه:

- أين العقود؟

تلعثم وتلفظ بكلمات غير مفهومة من بكائه، فركله نادر صارخا:

- تكلم بوضوح . وإلا ..

قال من بين بكائه:

- لقد أخذتها ... كانت تنتظرني في الغرفة.... وما أن دخلت حتى أخذتها وخرجت من النافذة .....

وثب مروان فجأة نحو نادر يركل المسدس من يده. ورغم قوة الضربة لم يتخل نادر عن المسدس. وقبل أن يحاول مروان الهجوم مرة أخرى انقض عليه حارسي نادر واشتعلت معركة رهيبة بين الثلاث .

تراجع نادر يريد إحكام التصويب على مروان وهو يصرخ:

- سأقتلك, ليس نادر من يخدع هكذا.

وجابر يزحف ويتدحرج يقوم ويتعثر في ذعر وارتياع يحاول النجاة بعمره .

انقطعت الكهرباء فجأة . التقط نادر هاتفه من جيبه ليضيء مصباحه وهو يصيح بثورة:

- لن تفلت مني أيها الحقير.

وثب مروان فجأة داخل الغرفة التي كان جابر قد دخلها منذ قليل تبعته رصاصة من مسدس نادر .....

◆◆◆◆◆◆

انقطعت الكهرباء فجأة.

بينما ناصر ينقض على رجال الأمن وهم يحاولون تصويب أسلحتهم نحوه.

صرخات، ضربات، صيحات . صوت هاني عاليا قويا صارما يمتلأ حزنا وخوفا يحمل من الثورة والغضب ما جمد الجميع في أماكنهم:

- توقفوا.

تبع كلمته صوت ضربة ثم ارتطام. صرخ والبكاء يتسلل إلى نبراته:

- كفى . كفاكم عنفا وسفكا للدماء.

ساد الصمت التام يشترك مع الظلام التام في خلق جو من الرعب والتحفز وتوتر يكاد يطبق على الأنفاس. شقه صوت هاني بمشاعره يزلزل القلوب:

- قال سبحانه تعالى:((وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾)) سورة النساء

ألا يمكنكم تخيل عظم ذنب قتل المؤمن. كيف تقتل مؤمنا لمجرد طاعة سيدك أو للحفاظ على عملك.

أجابه صوت منهم بحذر وتردد:

- أنتم معتدون ونحن ندافع . هذا عملنا.
- هذا ما قيل لك. ألا يحتمل أن يكون كذبا. ألم تحاول إعمال عقلك والبحث قبل أن تتخذ هذا القرار.
- نحن جند هنا . الأستاذ نادر هو الذي شغلنا وله الطاعة.
- قبل أن أدخل هذا المبنى منذ أكثر من عشر سنوات، وقبل أن أضع يدي في يد أصحابه تحريت عنهم جميعا. لأعرف قدر وطباع وشخصية من سأعمل معهم.

أتاه صوت آخر :

- لو بحثنا عن عمل صاحبه لا يرتكب محرما . لمتنا وأولادنا جوعا.
- قال رسول الله ﷺ :(لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين ..) الخير موجود إلى قيام الساعة. وإن مت جوعا كما تقول لهو أهون من عذاب الله يوم القيامة.

اقتربت خطوات مسرعة مع ضوء خافت وهاني يتابع:

- نادر مخادع وغبي يظن أنه بتوقيع عقد البيع يكون قد استولى على مدينة الرحمة.

ارتفع صوت الوافد الجديد لاهثا وهو يلج الغرفة مسرعا يحمل في يده كشافا ضوئيا:

- لقد انتهى كل شيء.

هاني يقف أمام المكتب المجاور للنافذة الجدارية المحطمة يخفي زوجته رحمة خلف ظهره يقبض عليها بكلتا يديه يمنعها من الحركة وهي ترتجف وتحتمي به كعصفور بلله المطر. الدكتور رأفت والشيخ هاني يلصقان ظهريهما بالجدار المجاور لهاني . رجال الأمن عند الجدار المقابل للنافذة الجدارية بجوار الباب يصوبون أسلحتهم إلى ناصر الذي يفصل بينهما متحفزا متخذا وضعا قتاليا عجيبا بذراعه الواحدة.

تقدم الرجل وهو يشير إلى رجال الأمن قائلا بصرامة:

- أخفضوا أسلحتكم. نحن رجال أمن هذا المبنى . لقد اتصل بي مروان ليؤكد لي أن الأستاذ هاني هو الآن مالك المدينة كاملة . ونحن لم نكن نخدم نادر

لشخصه. وإنما نحافظ على أمن هذا المكان. لذلك صار الأستاذ هاني هو صاحب الأمر والنهي الآن. ونحن نعمل تحت إمرته.

خفضوا أسلحتهم طاعة لقائدهم وهم يتطلعون بدهشة غير فاهمين شاركهم فيها هاني وهو يسأله:

- كيف هذا ؟ ما الذي حدث؟

اقترب منه الرجل قائلا بأسف واحترام:

- الشخص الذي ينتحل شخصيتك في الخارج يدير صفحة على موقع الـ فيسبوك باسم مدينة الرحمة. يحارب بها نادر . ولقد نشر فيها منذ قليل مقطع فيديو ظهر فيه نادر ومروان يتحدثان في سيارة الأخير وهما متجهان إلى منزلك ليقبضوا عليه . المحادثة تكشف مخططهما الذي ينص على قتل ذلك الرجل والاستيلاء على ما قبضه ثمنا للمملكة ثم بيعها لجابر وقبض ثمنها ثم العودة إلى هنا ليجبروك
على تسليمهما مال الخزينة ثم قتلك والهرب تاركين إيانا ورجال الأمن الجدد المنتشرين في المدينة لرجال الجيش التابعين لمن اشترى
المدينة من منتحل شخصيتك غدا. وانتشر هذا الفيديو بين رجال أمن

المدينة ففروا هاربين جميعا . ولم يبق في المدينة إلا نحن ومن في طريقه للهرب.

ازدادت حيرة هاني وهو يسأله:

- من صور هذا الفيديو في السيارة ؟

- هو مروان نفسه بالتأكيد. لأن أداة التصوير كانت هاتفا وليست كاميرا مراقبة كالتي صورت ما حدث في منزلك أو منزل جابر وهو يشتري المدينة باسمك من نادر.
- وما الذي حدث في منزلي ومنزل جابر.

قالت رحمة بدموع تتقطر من عينيها وصوتها المرتجف ذعرا:

- ابني عبد الله أين ابني عبد الله .

بسط قائد الأمن يده بهاتفه إلى هاني قائلا:

- يمكنك أن تشاهد بنفسك .

ثم وجه حديثه لرحمة مطمئنا:

- اطمئني يا سيدتي . صحيح أنه لم يظهر بعد ، ولكن أظنه بخير. الشخص الذي في الخارج يساعدكما وهو بالتأكيد يحميه .

طالع هاني منزله ورجال نادر يقتلون بعضهم يتصارعون للخروج من المنزل والباب ينغلق هربا من الغاز المنطلق وهو يقول :

- ألم تقل أنه باع المدينة لضابط في الجيش . وأن رجاله سيحكمون سيطرتهم عليها غدا؟
- الفيديو الثاني يا سيدي يوضح أن هذا كان مجرد خدعة لدفع نادر لبيع المدينة لجابر .
- ولماذا سيساعدني جابر ؟ ما يبغض أحدا مثلي .

- من خدع نادر يستطيع أن يخدع جابر أو على الأقل يغريه بالمال . ليس جابر ذو شأن.

انتقل هاني للمقطع الأخير ورحمة تقول بصوتها الباكي وهي لا تزال ترتجف خلف هاني:

- أريد عبدالله يا هاني . إنه ضعيف أعمى ، لا حول له ولا قوة.

تابع هاني حوار نادر وجابر ومروان حتى انقطعت الكهرباء. فساد الظلام. فقط أصوات الشجار والتحطيم وصوت رصاصة و انتهى.

فيديو الغاز المخدر في منزله كان مصورا بكاميرا خاصة تعمل في الظلام. أما هذه فلا.

رفع وجهه إلى ناصر قائلا وعقله يدور في أعاصير من التفكير:

- هيا بنا يا ناصر. لقد ضيعنا الكثير من الوقت. لابد أن نخرج للبحث عن عبدالله وهذا الغريب الذي .....

قاطعه ناصر بدهشة وهو يلتفت إليه:

- لماذا تناديني بناصر يا هاني؟ أنا شهاب.

تطلع إليه هاني بدهشة وهو يفتش في عقله عن سبب يدعو ناصر لقول هذا. لهجته جادة خالية من المزاح والموقف لا يحتمل. وطبيعة نشأته

الانعزالية جعلته انطوائيا لا يعرف الدعابات ولا يفهمها بسهولة. الأمر

جدي إذن. إنها أمر خاص بتدمير نواته.

أخذ شهيقا عميقا ثم زفره بضيق شديد يزاحمه حزن أشد قبل أن يطرح البحث عن إجابة جانبا وهو يلتفت إلى المكتب متمتما بألم:

- أين هاتفي؟

قالها وعيناه تتوقفان على الهاتف حيث تركه مروان على المكتب. التقطه وأصابعه تتحرك بسرعة على لوحة مفاتيحه قائلا:

- إنه هاتفي . ولكن الشريحة ليست شريحتي.

انتقى اسما من جهات اتصاله وجميع العيون متعلقة به في ترقب .

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ..... آسف أني أتصل بسيادتك في هذا الوقت المتأخر ولكن الأمر خطير.

صمت قليلا يستمع إلى محدثه وهو يرى الفضول يتراقص في عيون متابعيه لمعرفة ذلك الشخص الذي توحي لهجة هاني بأهميته.

- لقد اتصلت بسيادتك بعد نزول الجيش في الشوارع وطلبت من سيادتك إرسال قوة من الجيش إلى مدينتي ولم تفعل حتى الآن.

ارتفعت الحدة في صوت هاني والغضب:

- للأسف يا سيدي لن يجدي الاعتذار. لأنه لن يعيد الأرواح التي زهقت. ..... لقد كانت مذبحة خسرت فيها العشرات من قاطني مدينتي ورجال الشرطة منهم أقرب الناس إلي.

صمت طويلا يستمع إلى محدثه والدموع تفر من عينيه مما ضاعف من رهبة الموقف قبل أن يقول مقاطعا محدثه:

- طلبي الأخير يا سيادة اللواء. لقد كنت بدأت إجراءات التنازل لكل مستأجر عن العقار الذي يستأجره وكذلك تحويل المرافق الخاصة في مدينة الرحمة لمرافق عامة ، وعاقت الثورة عن اتمام هذه الإجراءات. أريد إتمامها غدا بأي طريقة ممكنة. ..... لابد أن تحاول .... يكفي ما حدث. ..... لا . لن أكون موجودا . سيكون مروان موجودا ومعه توكيل عام يمنحه التصرف في كل شيء بدلا مني..... سأرحل يا سيدي إن قدرت لي الحياة للغد. ..... نعم الوضع خطر لأقصى درجات الخطورة. قدّ تحدث مذبحة ثانية. ..... لن يكون الوقت كافيا . المهم إنجاز ما طلبت بأسرع ما يمكن.

أنهى المكالمة ثم التفت إلى ناصر يهم بقول شيء ما لكن صوت سرحان مرتبكا مترددا منعه:

- أنا ....أنا لا أستطيع استيعاب ما يحدث. إن ... أقصد ....كل شيء. كيف تربطك برجل مهم في الجيش أو الشرطة علاقة قوية لدرجة أن تأمره هكذا. وما أنت إلا معلم أو حتى رجل أعمال ولكنك ملتحي . والعلاقة.... أعني.....

تطلع إليه لحظات بنظرة صارمة قبل أن يقول:

- ننسى جميعا أننا أمة واحدة ، لا فرق فيها بين عربي ولا عجمي ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح. كلنا يصيبنا العمى إلا على ما يتفق مع

رغباتنا. لقد أصابتنا الفرقة بالعمى. لا توجد فرقة من الملائكة وفرقة من الشياطين. كل فرقة أو طائفة فيها الصالح وفيها الطالح.

كان الألم يعتصر قلبه ويحبس الكلمات في حلقه. وخوفه على ابنه الوحيد الباقي ألجم لسانه عن توضيح وجهة نظره خاصة وهو يرى البلاهة وعدم الفهم في وجه سرحان.

التفت إلى ناصر صائحا :

- هيا يا .....

توقفت الكلمة في حلقه بمرارة كادت تسجن الشهيق في صدره إلى الأبد. بما يناديه؟ ولماذا؟

◆◆◆◆◆◆

(٩) الأعمى

- اتبعاه. إياكما أن يفر.

صرخ بها نادر وهو يرى مروان يثب من الشرفة . انطلق حارسيه خلفه.

رآهما على ضوء هاتفه يثبون من الشرفة وهو يقتحم الحجرة، وانتفض فزعِا مع شهقة رعب إذ هوى شيء لامع على هاتفه محطمِا إياه. تراجع مصوبا مسدسه نحو ذلك الشبح فهوى السيف بسرعة وقوةَ ودقة ليطيح بمسدسه.

اتسعت عيناه في ارتياع وهو يرى السيف يرتفع ليهوي على عنقه فوثب خارج الحجرة بارتياع وانطلق كالذي تطارده شياطين الجحيم يتعثر في قطع الأثاث وينقلب وينهض ويعدو حتى وجد نفسه في الحديقة والخطوات تلاحقه كشيطان مريد . تجاوز الحديقة كالبرق وانطلق في الطريق الموازي للنطاق الزراعي حتى وصل إلى الطريق الرئيس. تلفت حوله في فزع فلم يجد أحدا - ركن ظهره على جذع شجرة يلتقط أنفاسه وهو يسترجع ما حدث . من هذا الذي هاجمه؟ هل هو غريمه ؟ هل هو هاني ؟ إنه لا يفهم شيئا . خسر كل شيء دون أن يعرف من هزمه، فضلا عن رؤية ذلك الذي أذاقه هذه الهزيمة. ظل يتخبط كالأعمى حتى خسر كل شيء. من المستحيل أن يستسلم لن يخرج من مملكته يجر أذيال الخيبة. تلفت حوله بدهشة أين رجال الأمن لقد كانوا منذ قليل كالأغنام في مرعاها.

من بعيد كان ذلك الشبح يراقبه من فوق سطح فيلا قريبة وفي يده سيفه.

قالت لنفسها في مقت :

- كم كنت أتمنى أن أجتز عنقك أيها الثعلب الماكر! ولكن ....

صمتت تكظم غضبها قبل أن تتراجع مغادرة مكانها وهي تقول من بين أسنانها :

- ولكنها الأوامر.

أسرعت بخفة ورشاقة إلى الجهة الأخرى من السطح وهي تقول:

- للأسف الشديد هذه آخر مهامي. وعلي تنفيذ الأمر الأخير ألا وهو العودة للمنزل دون أن أرى نهايتك بعيني.

وثبت من فوق السطح بخفة وجرأة ، وهبطت على الأرض بثبات وسارت بطمأنينة وهي تلقي بصرها على الشوارع الخالية بفخر . إن لها دور كبير في هروب رجال نادر بإدارتها لصفحة مدينة الرحمة على الـ فيسبوك وبما فعلته بسيفها .

وضعت سيفها في غمده وأخرجت هاتفها قائلة:

- لنرى الآن من هذا المزعج الذي لم يتوقف عن الاتصال .

على شاشة الهاتف كان اسم صديقتها رفيدة ضغطت زر الاجابة مندهشة، ما من سبب يدعوا رفيدة للاتصال بها في هذا التوقيت إلا إذا حدثت مصيبة. من المفترض أنها في البيت بعد أن أنهت مهامها .

- أين أنت يا ندى ؟ لماذا لا تجيبين على الهاتف؟

كان هذا صوت رفيدة غاضبا بكثير من القلق . فأجابتها بقلق وهي تسرع الخطى :

- لقد كنت في مهمة . ولم أستطع أن أرد على الهاتف . أنت ماذا تفعلين؟ أنت خارج البيت ألم تنه .....
- الأستاذ شهاب وهو يكلم عبدالله ابن الأستاذ هاني سمع صوت نادر وشجار و ....

صاحت فيها بغضب:

- وماذا ؟! إياك أن تكوني قد خرجتي معه .

تباطأت سرعة رفيدة عن شهاب الذي واصل عدوه وهي تقول بحرج:

- لقد أصر الأستاذ شهاب فلقد كلم عبد .....

قاطعتها ندى مغضبة:

- لقد قال لك الأستاذ هاني ذلك . وقال لك ألا تستجيبي لإلحاحه. ألم يقل لك ذلك؟

توقفت رفيدة عن العدو وأكملت طريقها بخطوات سريعة وهي تقول مدافعة عن نفسها في محاولة للتبرير:

- لقد سعيت لإنقاذ ابن الأستاذ هاني . لم .....

قاطعتها ندى وغضبها يزداد مكتسيا بحدة وعصبية:

- نسيت القواعد يا رفيدة. من حقك رفض المهمة أو قبولها لكن لا يمكنك عصيان أمر.
- كنت فقط أسعى .....
- هو يعلم كل شيء . ولو علم أن عبد الله في خطر وأن وجودك قد يفيد لكان قد أعطاك الأمر، ولكنت هناك بالفعل وقت الخطر لتمنعيه.

توقفت رفيدة وهي تقول بشيء من الارتياح:

- أيعني هذا أن عبدالله بخير؟

أسرعت ندى خطاها وهي تواصل بنفس اللهجة المحتدة الغاضبة:

- بلى. إنه يعد لكل خطوة حساباتها بدقة . ويتوقع الخطوة التي قد يخطوها نادر قبل حتى أن تخطر له نفسه على بال ويستعد لها. عليك أن تعودي بالأستاذ شهاب فورا . إن نادر الآن أشبه بأسد جريح . لن يرحم أي شخص يجده أمامه.

دارت رفيدة حول نفسها بغير هدى وهي تقول بتردد:

- ولكن الأستاذ شهاب يقول أن الذي يعطينا الأوامر ليس الأستاذ هاني فالأستاذ هاني .....

أكملت ندى جملتها بنفاد صبر:

- فالأستاذ هاني كان معه طوال الفترة الماضية في مبنى الشركة حيث كان يحتجزهما نادر .

تردد صوتها متعجبة:

- كيف عرفت ذلك؟!
- رفيدة ، اسمعيني جيدا . هذا الوقت خطير جدا . يجب أن تكوني أنت والأستاذ شهاب في منزلك الآن وإلا .....

صمتت ندى فقالت رفيدة بحيرة :

- ولكن كيف أقنعه ؟

أتاها صوت ندى حادِا قاسيا:

- تصرفي . هذه مشكلتك . سأضطر لإنهاء المكالمة الآن لقد وصلت إلى البيت .

قالتها وأغلقت الهاتف فورا وعدلت وضع نظارتها الطبية وصعدت السلم مسرعة. استدارت رفيدة تبحث عن شهاب واتسعت عيناها فزعا . الطريق خال تماما يسوده الصمت إلا من صوت الرياح الباردة وحفيف الأشجار المرتجفة فزعا كقلبها . نادت بأعلى صوتها وانطلقت تعدو في نفس الاتجاه الذي كان ينطلق فيه تنظر يمنة ويسرة و ..... لا أحد.

◆◆◆◆◆◆

اقترب منه ناصر سائلا بحيرة:

- ما بك يا هاني؟

التفت له هاني من جديد وانعقاد حاجبيه يزداد وعقله يدور في إعصار من التفكير. إن خلايا مخه كلها خلايا شهاب ، تحمل ذاكرته . النواة كانت لناصر . كانت هي المسيطرة و عقل شهاب نائم. حطم نادر النواة فقتل ناصر واستيقظ عقل شهاب عندما رأى صديق عمره في خطر . تماما كما استيقظ عقل شهاب الحقيقي متحررا من سيطرة سام مرتين لينقذ حياته مرتين . تحولت الحيرة في عينيه لحزن مزق نياط قلبه وسالت له دموع غزيرة جعلت الذهول يخيم على الجميع الذين تعلقت عيونهم به.

- لماذا لا ترد على الهاتف يا هاني ؟ إنه هاتفك . أليس كذلك؟

نقل هاني عينيه الدامعتين إلى الهاتف. هل هذا الشخص يساعده حقا كما يدعي ؟ لماذا لم يترك عبدالله يذهب مع أمه في المسجد؟ لماذا احتفظ به؟

انتهى رنين الهاتف . الرقم الذي يتصل هو نفسه رقمه. عاد الرنين من جديد. ضغط زر الإجابة ووضعه على أذنه صامتا.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الصوت صوته ، والأسلوب أسلوبه. فيه الكثير من التوتر والقلق.

أخذ هاني شهيقا عميقا مغمضا عينيه ليطرح كل مشاعره جانبا ويستعيد هدوءه قائلا:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

التقطت أذناه تنهيدة ارتياح عميقة . قبل أن يأتيه الصوت نفسه وقد تلاشى التوقر والقلق منه:

- هل الجميع بخير؟

صمت هاني قليلا وأذناه تحاول تحليل نبرات الصوت . هذا الصوت لا يماثل صوته مائة في المائة . إن هذا الشخص يستخدم جهازا كما فعل ياسر من قبل أو برنامجا على هاتفه . ربما لو ركز أكثر مع الصوت يعرف صاحبه.

- وهل يهمك ذلك؟

صمت محدثه بدوره يزن كلماته جيدا قبل أن يقول:

- وما لي مبتغيٍ غير ذلك.

- لماذا تخفي نفسك عني إذن؟ من أنت؟ وما الذي تريده مني ؟
- قريبا تعرف. لم تبق إلا خطوة واحدة. المهم لا أحد يغادر مبنى الشركة ولا أحد يدخل. إن ظهر نادر عندك اقتله.

يحاول جاهدا أن يقف على صاحب النبرة المختلفة ولكنه عاجزا تماما عن الامساك بها. صاح بغضب:

- كل من أطاعك في المدينة ظنوك أنا . أطاعوا هاني عامر. فمن أطيع أنا الآن ؟

طالت فترة الصمت هذه المرة حتى أتاه الصوت صارما محتدا:

- تطيع من قتل قتلة عبد الرحمن .

صمت من جديد لبرهة قبل أن يتابع محاولا استعادة هدوئه:

- حتى يشغل نادر عنك ويتمكن من تحديد المكان الذي يحتجزك فيه. تطيع من أنقذ زوجتك ثم ناصر ثم شهاب وأخيرا أعاد إليك مدينتك كاملة بعد أن كان لك النصف.

صاح هاني بغضب انتفض له كل رجال الأمن بفزع:

- لا أريد شيئا سوى ابني عبد الله.

طال صمت محدثه فصرخ فيه:

- أجبني . لا تصمت هكذا . لماذا تحتجز ابني ؟ ما المقابل الذي تريد؟
- عبدالله.

هتف هاني باستنكار وعدم فهم:

- ماذا؟!
- قلت عبد الله . أوقفت شر نادر أعدت لك مدينتك وزيادة وسأقتل نادر ثأرا لمن قتل. والمقابل عبد الله.
- هل أنت مجنون؟ لن أدعك تأخذ ابني أبدا ؟ من تظن نفسك؟ أنت نكرة؟ سأصل إليك وأمزقك.
- هل تريد إقناعي أنك تحبه؟

ذهل هاني من السؤال فتردد صوته بالتعجب:

- ماذا تقول ؟ هل تعتقد أني لا أحبه؟
- لم يشعر بحبك يوما .
- من قال لك هذا؟
- عبدالله. قال أنك كنت دائما تهتم بعبدالرحمن أكثر منه.

ارتفع صوت هاني باستنكار وعدم فهم:

- أنا ؟!!
- ألم تكن تصحبه معك دائما . ألم تعلمه المبارزة ؟ ألم تجعل شهاب يبذل كل جهده في تدريبة على رياضات الدفاع عن النفس ؟ حتى المذاكرة ، لم تكن تولي عبدالله أي اهتمام . اهتمامك كله كان لعبدالرحمن . ما كان لعبد الله نصيب إلا جلسات متفاوتة . مجرد محادثات تقنع نفسك بها أنك تعطيه شيئا. ألأنه أعمى ليس من حقه أن يتعلم كما يتعلم أخوه. تظن نفسك معلما ناجحا بعد هذا؟

هذا الشخص الغريب يتكلم بانفعال جارف ساق عقل هاني أمامه بعيدا عن كل ما يجري لدرجة أنه عجز عن الرد. يريد أن يرجع إلى تركيزه في نبرات الصوت لكن الصدمة أفقدت عقله اتزانه. بما يجيبه ؟ يسأله عن نفسه من هو؟ أم يدافع عن نفسه؟ أم يطلب ابنه ؟ أم يبحث عن حل لمشكلة ناصر؟

- ألم تتخيل مرة كيف كانت مشاعره عندما كان يسمع مزاحك ولعبك مع أخيه؟ كيف كان شعوره في رأيك عندما يراك تتفاخر بمستوى عبد الرحمن المتقدم في كل مهاراته ودراسته أمام أصحابك.

سالت دموع هاني وهو ينهار باكيا وثب ناصر نحوه ليمنعه من السقوط وتراجعت رحمة في رعب عاجزة عن التفوه وقد أدركت أن ابنها مات .

انتزع ناصر الهاتف من يد هاني ليسمع صوت هاني من الطرف الآخر يصيح بحسم:

- هل من صفات المعلم الجيد أن يهتم بالتلميذ المتفوق ويهمل الضعيف؟

اتسعت عينا ناصر بعدم فهم وهو يقول بدهشة:

- من أنت؟ ما الذي يحدث ؟

اختفت حدة الصوت وارتفعت فيه البهجة دفعة واحدة وهو يهتف:

- ناصر ! أنت حي ؟ ! حمدا لله.

كاد ناصر يجن وهو يصرخ:

- ما هذا الجنون؟ هاني بجواري وهاني يكلمني في الهاتف . وكلاكما تناديني بناصر . لا أستطيع استيعاب ذلك . وهاني الذي أمامي يبدو أكبر سنا منذ آخر مرة رأيته . وتتكلمان عن .....

قاطعة هاني بصوت يعتصره الألم:

- انتظر يا شهاب . اهدأ سأشرح لك كل شيء ولكن ليس الآن .

التقط الهاتف من يده وهو يستطرد:

- الأمر أكبر من أن نشرحه الآن . ابني في خطر.

تغيرت لهجته للغضب وهو يوجه حديثه لمحدثه على الهاتف:

- اسمعني جيدا يا .....

قاطعه محدثه بنفس صوته وغضبه:

- اسمعني أنت جيدا. إن نادر طليق مع حارسيه وهو الآن اشبه بكلب شرس مجنون. سيقتل كل من يصادفه منكم. لا يغادر أحد مبنى الشركة حتى أتصل عليك مرة أخرى.

قالها وأنهى المكالمة فورا.

◆◆◆◆◆◆

- هل أنت بخير يا بنيتي ؟ ليس في جسمك أي جراح؟

أغلقت ندى باب حجرتها وأقبلت على أمها بوجه باسم وهي تعدل وضع نظارتها الطبية قائلة بمرح:

- والله يا أمي أنا بخير. ما بي خدش واحد. كل ما ينقصني كوب الشاي هذا.

التقطت كوب الشاي بكلتا يديها تستمد منه الدفء . جذبتها أمها من ذراعها لتجلس بجوارها على الأريكة وهي تقول بحنان:

- سامحيني يا بنيتي . كل مرة تغادرين فيها لمهمة جديدة ينخلع قلبي من صدري ولا أهنأ بنفس واحد حتى أراك بعيني وألمسك بيدي.

ارتشفت رشفة من كوبها باستمتاع وهي تقول بغرور مصطنع:

- تخافين على من يا أمي ؟! ألا تعرفين من أنا ؟ أنا ندى عبد الحميد التي هزمت نادر المغرور شر هزيمة.

وكزتها أمها بمرفقها وهي تقول:

- وحدك؟!
- ليس تماما . ولكن .....

قاطعها رنين جرس الباب ثم طرقات عنيفة فانتبهت هي وتحفزت في حين انتفضت أمها في ذعر . اندفع أبوها من حجرته مسرعا فزعا صارخا فيهما:

- مكانكما.

اقترب من الباب بحذر وهو يرفع صوته:

- من بالباب ؟

أتاه صوت رفيدة متوترا فزعا يغلبه البكاء:

- أنا رفيدة يا عمي .

أسرع يفتح الباب بلهفة وقلق قائلا :

- رفيدة ؟! ما الذي حدث؟ ما الذي أتى بك هذه الساعة؟

جذبتها ندى من يدها بقلق قائلة:

- ما الذي حدث يا رفيدة؟ هل رفض الأستاذ شهاب العودة معك؟

نقلت رفيدة بصرها بين ثلاثتهم بقلق قائلة بتردد وارتباك بصوتها الباك:

- عندما انهيت مكالمتي معك فوجئت أنه غير موجود لقد أسرع إلى هنا لكي يعرف منك مكان عبدالله ابن الأستاذ هاني . أسرعت خلفه أبحث عنه حتى رأيته.

صمتت لحظة مترددة فصاحت فيها ندى:

- ثم ماذا أين هو؟
- لقد أمسك به نادر.

هزتها ندى بعنف هاتفة بغضب:

- وهل تركتيه يأخذه ؟ لماذا لم تمنعيه؟

أمسكت أم ندى ذراعها تهدئها قائلة:

- اهدئي يا ندى . ما الذي تستطيعه رفيدة مع نادر ورجاله؟

صاحت ندى في أمها غير منتبهة من انفعالها:

- وتتركه يرحل به بكل سهولة وجبن ؟ إن نادر لو رحم الأستاذ شهاب سيقتله فورا دون تعذيب.

دمعت عينا رفيدة وهي تردد في ارتباك :

- أنا التزمت بأوامر الأستاذ هاني . ألم يأمرنا بعدم الاحتكاك بنادر هذا مطلقا. هذا إن كان من يعطينا الأوامر هو الأستاذ هاني حقا.

جذب عبدالحميد ندى ليبعدها قليلا عن رفيدة قائلا :

- ماذا تقصدين يا رفيدة؟ ما الذي دعاك لقول هذا؟

تطلعت رفيدة بتردد إلى ندى ثم تمتمت:

- الأستاذ شهاب أقسم أن الأستاذ هاني في مبنى الشركة منذ اليوم المشئوم . ولقد تركه هناك عندما أنقذناه من رجال نادر.

استدار بغضب وفضول لندى متسائلا . وأدرك من ارتباك ملامحها صحة كلام شهاب . هي تعرف ذلك. فصاح فيها بغضب:

- أنت تعلمين ذلك يا ندى ولم تخبريني.

ارتبكت ندى وتراجعت بتوتر وبدى أثر الصدمة على ملامح رفيدة الطفولية وارتسم الرعب جليا على ملامح أم ندى ؟

صاح عبدالحميد بغضب:

- كيف فعلت ذلك يا ندى ؟ ومن ذلك الشخص؟

أشاحت ندى بوجهها حرجا وخوفا وهي تقول مترددة:

- إنه ... إنه ....

صاحت رفيدة بصوت ضاعت حروفه وسط بكائها وغضبها:

- لقد خدعتني يا ندى. خدعتينا جميعا. جميعا نضحي بحياتنا بلا تردد من أجل الأستاذ هاني واثقين في حسن تدبيره وحكمته، متيقنين من حبه لنا وخوفه علينا وسمو أهدافه . ثم تقولين إنه شخص آخر.

جذبها أبوها من ذراعها ليجبرها على مواجهته ويقبض على كتفيها ويرجها بعنف صائحا:

- كيف تغامرين بحياة رفاقك هكذا ؟ ومن أجل ماذا ؟

استجمعت شجاعتها قائلة:

- من أجل من قتلوا بغير ذنب اقترفوه . ومن أجل أستاذي . ومن أجلنا جميعا. ما الذي يمكن أن يحدث إذا امتلك نادر هذا مدينتنا؟

تخلى عنها بقسوة قائلا:

- ما هذا الذي أسمعه؟ هل غيرت مبادئك؟ أم .....

توقف فجأة ثم صاح:

- ثم من هذا الذي كان يخطط لكم ويوجهكم؟

تعلقت بها عيون الثلاث باهتمام وفضول خالطه غضب الأب وقلق الأم وزعر رفيدة فقالت ندى بصوت خافت متردد:

- عبدالله.
- ما هذا الهراء الذي تقولين ؟! عبد الله طفل أعمى في العاشرة من عمره. من المستحيل.....

قاطعته رفيدة :

- هذا يؤكد كلام الأستاذ شهاب يا عمي. يبدو أن ندى هي الأخرى مخدوعة. بالتأكيد خلفه شخص ما هو الذي .....

قاطعتها ندى وقد استعادت سيطرتها على أعصابها :

- كلا يا روفي استنتاجاتكم خطأ. لأنني مع عبد الله منذ اللحظة الأولى.

قالتها وارتشفت رشفة من كوبها ثم اتجهت بهدوء إلى أريكتها محتضنة كوب الشاي بكلتا يديها . فصاح فيها والدها وهو يندفع نحوها بغضب:

- هذا يعظم من ذنبك.

تبعته رفيدة وهي تقول مجففة دموعها بكم سترتها :

- ما هذا البرود يا ندى ؟ أقول الأستاذ شهاب بين يدي نادر السفاح وهو في قمة غضبه وثورته وتجلسين باسترخاء تشربين الشاي كأني نقلت لك خبرا جيدا.

التفت عبد الحميد إلى رفيدة قائلا بإصرار:

- لابد أن ينتهي كل شيء. لا، بل انتهى بالفعل . لن تغادر أيكما هذا المنزل حتى أتأكد أن الخطر كله زال .

ارتشفت ندى رشفة من كوبها قبل أن تقول:

- وهذا ما أمر به بالضبط؟

صرخ فيها أبوها:

- من هذا الذي أمر يا بنت؟ هل تريدين أن تذهبي عقلي؟

وصاحت رفيدة بصوتها الباكي بغضب:

- لقد انتهت اللعبة يا ندى. يجب أن نتصرف بأنفسنا.

ابتسمت ندى ببرود أجج نيران غضبهما قائلة:

- أنا أثق في أخي عبدالله. إنه يعرف كل ما سيحدث قبل أن يحدث. لقد رزقه الله بجانب الذكاء والحكمة حدث قوي. وليذكر أحدكما لي خطأ واحدا منذ بدأ الأمر.

جلست رفيدة جوارها وهي تقول برجاء:

- هل تظنين أنه قد يعلم الآن أن الأستاذ شهاب قد .....

قالت ندى بثقة :

- بل أنا واثقة أنه قد أنقذه ، أو على الأقل على وشك انقاذه.

وقف عبد الحميد أمامهما قائلا بغضب:

- يا بنيتي أنت تتكلمين عند طفل أعمى في العاشرة. إن كان قد استطاع خداعكم جميعا لن يستطيع خداعي. أنا متأكد أن خلفه شخص آخر هو الذي صنع منكم منظمة تنفذ أوامره بلا تفكير.

مالت ندى للأمام وهي تقول بجدية:

- اسمعني جيدا يا أبي. أنت دائما تحترم عقلي وتفكيري . أنا لست صغيرة أنا في العشرين من عمري. في ذلك اليوم المشئوم اتصل بي عبد الله بعد أن

هدأت الحركة. ذهبت إليه في مسجد الرحمة في صلاة العصر. كان كعصفور بلله المطر يبكي ويرتجف ولا يعرف تفاصيل ما حدث.

جلس عبدالحميد على المقعد المواجه لها عاقدا حاجبيه ينصت في اهتمام وغضب وكذلك زوجته على المقعد المجاور له وإن لم تشاركه غضبه كان قلبها يدور مترنحا بين القلق والحيرة وعدم الاستيعاب :

- أعطاه والده حقيبته قبل أن يغادر المسجد لما سمع صوت الهتافات أمام المسجد بعد صلاة الجمعة. وأمره ألا يغادر مهما حدث حتى يرجع إليه. لكنه لم يرجع .بل تعالت الأصوات والهتافات . فشعر عبدالله بالقلق فقرر أن يسجل الحدث حتى أصفه له أنا أو أخيه

عبدالرحمن بعد ذلك . لقد اعتاد على ذلك . تحسس طريقه إلى منارة المسجد وارتقى سلمها إلى الشرفة الأولى . وعن طريق الأوامر الصوتية قام بتشغيل كاميرا الفيديو . ثم بدأ توجيهها حسب الأصوات. علم أن الأمر كارثي من أصوات الرصاصات و الانفجارات والصرخات. ظل في مكانه حتى صلاة العصر يبكي .

اعتصر الألم والحزن قلوبهم جميعا وهم يتذكرون ذلك اليوم . ويتخيلون مشاعر عبدالله حينها.

- اتصل بي بعدها وذهبت إليه في صلاة العصر . ولقد صدمني الفيديو صدمة عمري . كنت أظنها مظاهرة عادية ثم اتضحت لي الحقيقة الرهيبة. حاولت اقناعه أن يأتي معي هنا لكنه رفض بإصرار. اتفقت معه أن أذهب له بالطعام. وعندما عدت له بالطعام في صلاة المغرب طلب مني

أول مهمة وهي الاطمئنان على والده والدته . أحضرت له أخبار والدته من المستشفى في اليوم التالي . أما والده و الأستاذ شهاب والأستاذ ناصر فلا أثر لهم بين الأحياء ولا الأموات.

عجزت رفيدة عن التحكم في دموعها وهي تهمس بصوت باك:

- وطاوعك قلبك على تركه وحده في المسجد؟
- حاولت معه للمرة الثانية لكن رفض وأخبرني أن إمام المسجد الشيخ هاني أعد له فراشا في غرفة الإمام في المسجد. ثم تناقشنا كثيرا في كيفية البحث عن المخطوفين فخطرت لي فكرة تغيير صوته لصوت أبيه بتطبيق كان على هاتفي بالفعل . كنت أستخدمه للمزاح مع أصدقائي . يقوم هذا التطبيق بتغيير الصوت إلى رجل أو امرأة أو طفل. واقترح هو أول فكرة في مخططنا وهي تكوين شبكة مراقبة لكل أجزاء المدينة ، تتكون من شباب وفتيات المدينة أنفسهم عن طريق إنشاء صفحة على الـ (Facebook) وبالفعل قمت بإنشاء الصفحة من حساب الأستاذ هاني وباسمه، واتصلت بكل من أعرفهم وشرحت لهم كتابة أن نادر هو الذي افتعل المذبحة وعرضت عليهم الفيديو الذي صوره عبدالله وأبدو استعدادهم فعلا وبدأوا بنشر تقاريرهم عن كل ما يرونه ويعرفونه . وهكذا بدأنا . وبدأ عبدالله يتصل بالدكتور رأفت بصوت الأستاذ هاني للاطمئنان على والدته. وهكذا بدأ الأمر .

نهض عبدالحميد وغضبه لم يخفت قائلا:

- ما فعلتيه يا ابنتي خطأ لا يغتفر . نحن لا نتكلم عن أرواح أزهقتموها بغير محاكمة أو دفاع . قتلتم أربعة وأنتم لستم سلطة شرعية لفعل ذلك . أنت وعبد الله وضعتم مدينتنا بأهلها تحت رحمة مجنون مثل نادر.

نهضت ندى بعد أن وضعت كوب الشاي على المنضدة الصغيرة وهي تقول مدافعة عن نفسها:

- لم نجبر أحدا على الانضمام لنا ولم نجبر أحدا على أداء شيء هو غير مقتنع به.

نظر إليها بغضب ورفيدة تجفف دموعها بأناملها قائلة:

- ولكن بالخداع . أنا فعلا حزينة يا ندى. لم أتوقع ذلك أبدا منك.

نظرت إليها ندى وتسلل الغضب إلى صوتها قائلة:

- هل أخبرك مرة أنه الأستاذ هاني ؟
- لم أشك . ولم أسأل .

صاح عبد الحميد منهيا الحديث:

- انتهى يا بنات . انتهى لعب الأطفال، وحان دور الرجال.

◆◆◆◆◆◆

- كلا يا أستاذ عبدالحميد، فعلا لا يهمني من هو . هل هو الأستاذ هاني أم ابنه عبد الله ؟ أو حتى شخص آخر . ما الفارق.

صاح عبدالحميد متعجبا:

- لا أستطيع استيعاب موقفك يا يحيى . كيف ترضى أن يقودك طفل أعمى وأنت طالب في كلية الطب.

تطلع يحيى لعشرات الرجال الذين يقفون خلف عبدالحميد ورفع صوته قائلا بثبات وقوة:

- ليست الفكرة من القائد ومن التابع. الفكرة الأمر الصحيح الذي يجب اتباعه. عبدالله لم يكن جالسا على عرش يلقي أوامره ونحن ركوع تحت قدميه نقول سمعا وطاعة . كل أمر صدر، صدر عن تشاور بيننا وإن كنت أظنه الأستاذ هاني وقتها ولكني اتخذت قراراتي عن فهم ووعي وإرادة ، لم أكن دمية يحركها كما تظن.

لوح عبدالحميد بذراعيه صارخا:

- أي أنك قتلت بكامل إرادتك .

صاح أحد الواقفين خلف عبد الحميد:

- لسنا مضطرين لهذا الحوار الخاوي من أي فائدة يا عبدالحميد . هذا الشاب يصر على اتباع الأعمى .

هتف يحيى بتحدي:

- وما الذي تظنون أنكم فاعلون الآن؟ من الخطر تواجدنا هنا . إن نادر وحارسيه مازالوا أحرار وهو في غاية جنونه الآن .

صاح عبد الحميد وهو يتقدم نحو يحيى :

- هذه أوامره طبعا . لقد فقدتم عقولكم حتما.

تحفز أصحاب يحيى وحاولوا التقدم للأمام ولكنه أشار لهم بالتراجع في حين تقدم من خلف عبدالحميد وأحدهم يصيح ملوحا:

- هذه الأوامر تسري عليكم فقط. هيا عودوا إلا منازلكم يا كتاكيت وإلا أكلكم أبو رجل مسلوخة.
- لو أمر بذلك لفعلت . ولكنه أمرنا بمنعكم أو حمايتكم.

اندفع أحدهم نحوه بعنف صارخا:

- ومن أنت كي تمنعنا أو حتى تحمينا.

برز توفيق من وسط الجمع وهو يصيح بثورة ومقت :

- أنتم جميعا صنف واحد أنتم ورم خبيث في مدينتنا يجب تطهيرها منكم. أنت وهاني ونادر وجميع أتباعكم.

انتبه يحيى لرفاق توفيق يحاولون تطويقه ورفاقه ببطء . فقال بحذر وهو يرقب وجوههم وتحركاتهم ويرى أعداد الجمع تتزايد بشكل كبير:

- لم تتب يا توفيق؟ ظننت أنك بعد أن اتضح لك صدق كلامي ستفهم الحقيقة.

صرخ توفيق ملوحا في وجهه:

- أية حقيقة هذه؟ حقيقة أن ذلك القائد الهمام عمره عشر سنوات وهو أعمى لا يرى.

تسلل القلق إلى صوت يحيى وهو يحاول التظاهر بالثبات:

- الأعمى هو أنت. أما هو فالبصير. أنت تستطيع أن ترى تحت قدميك فقط. أما هو فيرى كل شبر في مدينة الرحمة في نفس الوقت . لأنك ببساطة تمتلك زوج واحد من العيون . أما هو فيملك في كل شارع زوجين أو ثلاثة أزواج من العيون.

عادت الأضواء فانقشع الظلام دفعة واحدة وانعكست على الوجوه المتوترة والأخرى الغاضبة . نقل يحيى بصره بين الوجوه وهو يرسم على وجهه الثقة والصرامة هاتفا كخطيب يلقي كلمته على جيش:

- هذا الطفل كما تدعي استطاع أن ينقذ أمه وأبيه وصاحبيه والدكتور رأفت والشيخ هاني من براثن نادر دون حتى أن يعرف هذا الأخير من عدوه . هذا الأعمى كما تدعي استطاع وهو جالس في مكانه تسخير جابر ألد أعداء أبيه لخداع نادر . أخبرني يا ذا العيون ما الذي استطعت سيادتك فعله غير الصراخ في المظاهرات .

تقدم توفيق بعصبية وهو يصيح باستنكار:

- وأنت في هذا كله كالنعجة يقودها هذا العبقري الأعمى كما تراه بلا أية إرادة منك .

اشتعل الغضب في عيني يحيى فأغمض عينيه لبرهة ليكتم أنفاس هذا الغضب فيئده ، ثم فتحهما قائلا بصوته العالي الحماسي بغير غضب:

- هذا فهم ذوي الأطماع أمثالك . أما بيننا فلا قائد ولا تابع كلنا فرد

واحد كجسد واحد ، لكل عضو دوره . هذا أمر يفوق إدراكك.

- لا فائدة من الجدال معك .

قالها توفيق وهو يتجاوز المسافة الصغيرة بينهما مندفعا نحوه. فقال يحيا وبريق معدني يجذب انتباهه وسط الجمع خلف عبدالحميد :

- لأني أقوى حجة منك. لهذا .....

توقف عن الكلام عندما توقف بصره على ذلك المسدس الذي برز بين الرؤوس مصوبا نحو ظهر توفيق الذي انطلقت قبضته نحو وجه يحيا مستغلا انصراف بصره عنه. وثب يحيى نحوه يدفعه بعيدا عن مرمى الرصاصة التي انطلقت بدوي انتفضت له القلوب . أصابت قبضة توفيق عينه اليسرى والرصاصة كتفه الأيمن قبل أنا يسقطا تحت الأقدام التي هاجت بها الفوضى وألقتها في كل صوب.

هب يحيى واقفا بسرعة رغم آلام كتفه وعينه ورأى المسدس مصوب إليه من جديد وإصبع صاحبه تتحرك لتضغط على الزناد.

وارتفع صوت أذان الفجر بذلك الصوت الطفولي العذب يحرك حروفه شجن عظيم:

- اللهِ أكبرِ ، اللهِ أكبرِ.

◆◆◆◆◆◆

- من هذا الذي يتكلم بصوتك ؟ وماذا يريد منك؟ أنا لا أفهم شيء مطلقا يا هاني . هلا أوضحت لي .

تطلع إليه هاني بحزن عميق ودموعه تسيل منهمرة بلا توقف. يدرك شعوره جيدا ، لقد جربه لتوه. آثاره مازالت تعصف بعقله. وإن كان الوضع مختلف. بالنسبة إليه كان فقدان ذاكرة جزئي ، وها هو سيل الذاكرة ينطلق بلا توقف. أما بالنسبة لناصر فالوضع مختلف إلى حد مربك. كيف يشرح له ؟ كيف يقول له إن ناصر مات ؟ وأنه أيضا ليس شهاب؟ كيف يشرح له هذه الحقيقة المخالفة لكل واقع وحقيقة؟

جذبته رحمة من ذراعه وهي تقول بصوتها الرقيق كالهمس ممزق بالبكاء:

- ابننا عبدالله يا هاني ، ماذا حدث له ؟هل هو بخير؟

نقل عيونه الدامعة إليها في صمت . يريد أن يطمئن قلبها ، ولكن عجز لسانه عن النطق. لا يعلم أين ابنه ولا مع من. وما الذي يريد منه من يختطفه ؟ وهل سيصل إليهما قبل نادر؟

دارت عيناها في ارتياع. فهمت من دموعه أن ابنهما قد لحق بأخيه. اختنقت أنفاسها. أدرك ما استقر في ذهنها فأسرع يقول راسما ابتسامة حانية على وجهه:

- إنه بخير يا حبيبتي . لا تخش عليه.

هتفت بلهفة غريق يتعلق بيد تمتد إليه:

- حقا يا هاني ؟ هل عرفت مع من هو؟

اتسعت ابتسامته مبشرة وعقله يدور كطاحونة تسحق خلايا مخه، عبدالله ليس مخطوفا ، إنه يتحرك بحرية كاملة ويتصرف كذلك دون إجبار من أحد.

هذا ما أكده حديث أمه عندما كانت معه وكذلك الشيخ هاني والدكتور رأفت. اعتقد في البداية مثلهم أن محدثه ينتحل شخصية أبيه. لكنه في هذه المكالمة الأخيرة يعرف عن عبدالله مالا يعرفه أحد غير عبد الله نفسه ، حقيقة مشاعره والتي لا يمكن أن يخبر بها إلا شخص مقرب جدا منه . لذلك فهذا الشخص إما صديقه ياسر أو تلميذته ندى . والأول قتله نادر كما أخبره. إذن فهي ندى. لكن ندى لن تحاول خداعه أبدا . إنها تعزه وتقدره وتجله كأبيها ولا تجرأ احتراما على مخاطبته بهذا الأسلوب.

راقبت رحمة شرود عينيه بلهفة وأمل ، ترى في عينيه اقتراب وصوله لحل اللغز. وعندما تردد السؤال في رأسه: هل من الممكن أن يكون عبدالله هو الذي فعل ذلك كله بمساعدة ندى ؟ كان ناصر يردد سؤله الذي يحاول جاهدا التنفس من بحر حيرته :

- هلا شرحت لي يا هاني؟ أنا لا أفهم شيئا . آخر ما أذكره ذلك الشيطان يسيطر على عقلي ويدفعني لمحاولة قتلك ثم .....

قاطعه هاني مربتا على كتفه اليسرى بيمناه قائلا بابتسامة حزينة حانيه:

- اهدأ يا صديقي. سأشرح لك كل شيء يا ذا الذراع الواحدة عندما أتخلص من هذا النادر وأستعيد ابني .

تطلع الدكتور رأفت لهاني بدهشة إذ نادى ناصر باسم شهاب ولكنه فهم من نظرة هاني إليه أنه ينبغي عليه مجاراته فأسرع نحوه هاتفا:

- يجب أن تستريح الآن يا أستاذ شهاب . لقد أفقت توا من غيبوبة طويلة . والمجهود ليس في صالح أجهزة جسمك، تحتاج لفحص وراحة.

جذبت رحمة هاني من ذراعه بتوسل قائلة:

- هل عرفت مع من هو ؟
- أعتقد يا حبيبتي . انتظريني هنا . سأذهب لإحضاره وأعود إليك في أسرع ما أستطيع.

شدت على ذراعه بأناملها وهي تهتف متوسلة:

- مستحيل .. تتركني هنا وحدي وتذهب؟!

ربت على يدهيا بحنان قائلا:

- هنا تكونين بأمان يا حبيبتي. إن نادر طليق وهو الآن في أشد حالات جنونه.

قالت ودموعها تفيض من عينيها تغرق نقابها:

- ولكني لن أكون بأمان من القلق . سيمزقني قبل أن تعودا إلي.

صاح ناصر بحماس :

- هيا بنا يا هاني . لكل ثانية قيمتها .

قال قائد الأمن:

- نحن طوع أمرك يا أستاذ هاني.

رفع هاني عينيه إلى سرحان قائلا:

- أتعشم أن تكون فهمت الآن ما الذي يمكن للمعلم فعله.

ارتبك سرحان حتى تخضب وجهه وهو يقول متلعثما:

- أنا آسف يا أستاذ هاني لم أكن أعرفك . ثم أنك تخـ.....

قاطعه هاني بحزم شديد وصرامة قائد وهو يوجه حديثه لقائد الأمن:

- سرحان ورفيقيه ليسا من رجال الأمن. ولا يغادرون حتى أعود. ولا يغادر أحد مبنى الشركة ولا أحد يدخل . وأنت يا شهاب ستبقى فحالتك غير مستقرة كما قال الدكتور رأفت و .....

قاطعه ناصر بصرامة وعناد:

- لن تغادر بدوني .

احتضنت رحمة ذراعه بارتياع صارخة كطفلة يريد أن يتركها أبيها في وسط غابة مليئة بالوحوش وحدها:

- لن يفارق سوادي سوادك إلا في بيتنا.

هتف الدكتور رأفت بإصرار :

- هيا يا أستاذ هاني , الوقت أثمن من أن نضيعه في محاولات إقناع أو جدال. كلنا معك . لن تواجه هذا الرجل وحدك.

أخرج قائد الأمن مفتاح سيارته وقدمه لهاني قائلا :

- يمكنك استخدام سيارتي.

ولم تمر بضعة دقائق حتى كان هاني يقود السيارة بأقصى سرعة في شوارع المدينة نحو مسجد الرحمة حيث يرتفع أذان الفجر بأعذب صوت قد يطرب قلب رحمة، صوت ابنها عبد الله.

فهتفت بفرحة تكاد تقذف بها إلى حيث الصوت:

- إنه هو.

◆◆◆◆◆◆

(10) النهاية

- طفل أعمى يخدعني. طفل أعمى يفعل بي كل ذلك.. مستحيل ..!! هذا جنون. هذا لا يمكن أن يكون هو الحقيقة . بالتأكيد في الأمر خدعة.

قالها نادر بجنون ووجهه كجمرة ملتهبة من الغضب والثورة. فهتف فيه أحد حارسيه بهمس:

- انتبه يا نادر بيك . قد يسمعك أحد.

رفع نادر إليه عينيه الحمراوين الزائغتين ثم نقلها إلى مئات الرجال والشباب الملتفين المنصتين ليحيى وعبدالحميد وتوفيق باهتمام وتحفز قائلا بصوت اشتعل فيه الغضب:

- قوما بتنفيذ خطتنا الآن . لن يهزمني طفل بهذه السهولة. أنت يا مراد ستتسلل إلى الصفوف وتقتل أحد المخالفين لصفك . أما أنت يا سعيد فستراقب من بعيد متحفزا ببندقية القناص التي أعطيتك إياها. ستكفل لمراد الحماية حتى يخرج من بينهم سالما.

ثم رفع صوته في صرامة :

- هيا انطلقا. أريدها مجزرة ثانية.

راقبهما من خلف المنزل الذي يختبئ خلفه حتى بدأ مراد بإطلاق النار على يحيى وتوفيق و ..... ارتفع صوت أذان الفجر بصوت عذب لطفل صغير أنصت إليه باهتمام شغله عن المجزرة التي يفتح رجليه أبوابها. إنه صوته. هذا

الشيطان الأعمى الصغير. يا له من غبي ! ألا يتوقع أن يتعرف على صوته في الأذان. ألقى نظرة أخيرة على المعركة التي اشتعلت بين الجموع المتظاهرة ثم انطلق نحو المسجد بكل سرعته . إنها فرصته المثالية لتمزيق هذا الأعمى وإشفاء غليله منه.

◆◆◆◆◆◆

ارتفع صوت أذان الفجر :

- اللهِ أكبرِ ، اللهِ أكبرِ.

عندما هم مراد بإطلاق النار نحو يحيى ، اخترق سهم ساعده الذي يوجهه بالمسدس نحو يحيى . انطلقت منه صرخت ألم ومسدسه يسقط من يده واستدار يهرب فانطلق يحيى ومن خلفه أصحابه يحاولون اختراق الناس للوصول لمراد وقد تعرفوه فهموا خدعته . فتلقاهم الناس باللكمات والركلات إذ لم يفهموا، وظنوا أن مراد واحد منهم تحمس قليلا. واشتعلت معركة عنيفة بين الطرفين . حاول فيها يحيى ورفاقه الوصول لمراد دون أن يصيبوا أحد بمكروه. وهذا الأخير يخترق الجموع للهرب. وانطلقت رصاصة من بندقية القناص في يد رفيقه سعيد لتصيب مصدر السهم . فسقطت ندى مدرجة في دمائها.

كانت آلام معصم مراد حيث السهم يخترقه شديدة . وطريق هربه ليس سهلا وهذا يدفعه وهذا يحاول ضربه. ارتفعت ضربات قلبه رعبا وألما فاستل خنجرا بيده اليسرى وراح يضرب كل من يعترض طريقه صارخا بهلع غير واع . ابتعد الجميع عنه بذعر.

لم يكد يثب خارجا حلقة القتال حتى وجدا سيفا مشهورا في وجهه في يد قبضة أنثوية شرسة تومض عيناها من خلف لثام يخفي ملامحها بقوة وشراسة نمرة متوحشة. توقف وعيناه تكادان تثبان من محجريهما رعبا . لكن رصاصة من بندقية رفيقه سعيد ألقت بتلك النمرة أرضا بصرخة الم.

كاد ينطلق هاربا لولا رأى سوادا يهبط عليه من السماء بركلة قوية في وجهه ألقته أرضا مع صرخة قتالية زلزلت قلبه.

كاد يسقط لولا اصطدم ظهرة بشخص ما خلفه ، فانقض عليها مندهشا فتاة صغيرة ضئيلة الجسد ذات ضربة قوية . ليست بخصمة سهلة وهو أيضا كذلك من حيث المهارة ، أما من حيث القوة العضلية فلا مقارنة. تفادت كثيرا وضربته كثيرا ولكن ضربة واحدة منه ألقتها أرضا بعيدا والدماء تسيل من سنها المكسور.

انطلق مبتعدا خوفا من الذين يحيطون به بتردد وخوف يريدون اقتناصه.

ولكنها وثبت رغم آلامها وانطلقت خلفه. وهي تعلم أن شخصا ما يصوب إليها بندقيته وتتوقع رصاصته في أية لحظة .

وضغط سعيد حارس نادر الثاني الزناد بالفعل وهو يحكم التصويب عليها. لكن رصاصته طاشت في الهواء إذ قبضت قبضة قوية على بندقيته ورفعتها عاليا. انتفض بذعر وهو يثب للخلف منتزعا بندقيته من قبضة مروان ليصوبها نحو صدره لكن حركته لم تكتمل ، فقد انتزعها مروان من يده هاويا على وجهه بلكمة طرحته أرضا. فتراجع جالسا مرتجفا هاتفا في ارتياع:

- أرجوك يا أستاذ مروان لا تقتلني. أنا لم أقتل أحدا . والله لم أقتل أحدا. كنت أحاول فقط حماية صديقي أصبتهما في ذراعيهما فقط . أرجوك.

صوب إليه مروان البندقية بغضب وتردد. ثم أشار له بالوقوف والحركة ليصبح بينه وبين المعركة الدائرة بين الجمع. لا تدري من يقاتل من . لا يمكنه الفصل بين الفريقين حتى ظن أن المتقاتلين نفسهم لا يعرفون مع من يتقاتلون. أشار للرجل بالجلوس وهو يتوقف بعينيه على رفيدة وهي تثب لتركل قدم مراد ليتدحرج كلاهما على الأرض ثم يهبان واقفين في وقت واحد. حاول التصويب عليه لكن المتقاتلين كانوا يحولون دون ذلك رأى القتال يدور بينهما بضراوة لكن مراد استطاع تلقي قبضتها على راحته وقبض عليها وجذبها بعنف ليضربها في سور حديقة مجاورة ارتدت عنه ساقطة أرضا وقبل أن تحاول النهوض كان يقف عند رأسها هاتفا بغضب واحتقار:

- هل ظننت أنك قادرة على التغلب علي أيتها الحشرة؟
- هي ليست بحشرة . بل انت الحشرة الضارة التي يجب سحقها فورا.

تراجع مراد مصعوقا . آخر صوت كان يتوقع سماعه . لقد تركه هو ونادر ورفيقه سعيد مقيدا لشجرة بعد أن قطعوا ذراعه اليمنى جزءِا جزءا . كان نادر يستمتع استمتاعِا رهيبِا بتقطيع ذراعه وهو يفقد الوعي من شدة الألم ثم يستعيده من شدة الألم . وعندما انتهوا إلى الكتف تركوه يموت نازفا لدمائه.

تراجع مراد مصعوقا . وشهاب يتقدم نحو بقوة وشراسة أسد جريح، وكان منذ ما لا يزيد عن ساعة يصارع الموت. كيف استعاد نشاطه وحيويته ؟ كيف

تغلب على آلامه ونزف كتفه مبتور الذراع؟ لولا الضمادات الطبية التي تغطي كتفه الأيمن لأجزم أنه شبحا.

حاول مراد أن يفر لكن شهاب انقض عليه فلم يمهله حتى لالتقاط أنفاسه. لم يعطه حتى فرصة ليسقط ، حتى انطلق بوق سيارة هاني وصوت صرير إطارتها في معركتها العنيفة مع الطريق المبتل في محاولة للتوقف.

اخترقت السيارة الجموع المتقاتلة تدور حول محورها مع صرير عجلاتها حتى توقفت أخيرا وهاني يثب منها قبل حتى أن تستقر صارخا أعلى صوته:

- كفى.

تجمد كل من وصله صوت صرير السيارة ثم الصرخة . عاصفة من المشاعر انطلقت من بين الحروف لتعصف بالقلوب وتشخص لها الأبصار. حزن تقذف به موجات الغضب ، رعب ترمي به رياح الحسرة والندم فتصيب الآذان فتلقته القلوب فتوقفت عن النبض. لكن رحمة لم تستمع له كان قلبها معلق بذلك الصوت الذي سمعته في الأذان . صوت ابنها . انطلقت تدور حول الجموع وكيانها كله مجذوب نحو المسجد حيث فلذة كبدها. انطلقت كعصفورة تجابه عاصفة لتلتقط ابنها قبل أن يسقط.

- كفى.

صاعقة جمدت القلوب والأبصار من جديد.

- كفى.

قضت على كل صوت وهمس وطعنت كل حركة في مقتل . صوت الرياح البارة تضرب الوجوه والأجساد الساخنة من النشاط الزائد. حركة الأشجار تطوح بها الرياح كما تطوح الرجال الذين تجمدوا كالتماثيل فلا تستجيب للرياح إلا ملابسهم.

- ألم تتعلموا ؟ تريدون تكرار المذبحة؟ ألم تكتفوا بما فقدتم من أحبة؟

تعلقت القلوب بدموع هاني الحارة التي تنهمر من عينيه . ثم انتفضت بصرخة هاني بأقوى ما أوتي من صوت:

- من يقتل من؟ لا أرى رجال شرطة أو جيش ها هنا ما أرى إلى آباء وأبناء. خرجتم في مظاهرة من جديد؟ ضد من هذه المرة ؟

صاح توفيق بصوت متلجلج مرتبك يحاول طلاءه بغطاء من الغضب والثورة:

- ضدك أنت ونادر كما كانت الأولى ضدك أنت وأبيه. نريد أن تتركا مدينتنا لنا . بيوتنا ملككم مدارسنا ملككم مستشفياتنا ملككم.

تحرك يحيى ليقف بجوار هاني أمام السيارة وأسرع رفاقه يفعلون المثل وبعضهم أسرع إلى الجرحى يفحصونهم ويجمعونهم والدكتور رأفت يتصل بالمستشفى ويشرع في إسعافات أولية للمصابين. وفي حين بدأ شهاب ومروان من الجهة الأخرى يقتربان بأسيريهما كان صوت هاني يكاد الغضب يفتك بحنجرته:

- غبي جاهل حاقد.

انتفض توفيق مع إشارة سبابة هاني نحوه واقترابه مستطردا:

- بنينا هذه المدينة بحر مالنا وأتيت وأمثالك تتوسلون إلينا كي نقبل استئجاركم لوحدات سكنية. والآن أصبحت بيوتكم . تقتلونا لتحصلوا عليها ؟ أي منطق هذا؟

هدأت عضلات توفيق عن الارتجاف عندما رحلت عنه عينا هاني لتجوب الوجوه وهو يصيح:

- قتلتم ابني وأمي وأخي . نعم أنتم قتلتموهم . دماؤهم في أعناق كل من خرج في مظاهرة ذلك اليوم. لولاكم ما استطاع نادر تحقيق مخططه. جميعكم ساعده.

قال عبد الحميد بتردد:

- لم نرد ذلك كل ما أردنا التخلص من نادر . إنه .....

قاطعه هاني وهو يلتفت إليه بحده:

- وأنا أيضا . أردتم التخلص مني. أليس كذلك؟ نسيتم ما فعلت من أجلكم؟

قال عبد الحميد مرتبكا:

- لم نكن ندري أين أنت وابنك عبدالله خاض معركة مع نادر لإنقاذك مستخدما أبناءنا منتحلا شخصيتك.

قال شيخ كبير محتدا بعصبية:

- طفل أعمى يعبث بأرواح أبنائنا من أجل إنقاذك.

صاح يحيى بانفعال شديد يعتليه الغضب:

- من هو الأعمى ؟ عبدالله هو الأعمى ؟ إن عبد الله لهو البصير الوحيد هنا.

ازداد ألم كتفه مع انفعاله وصوته العالي فضغطت يده على موضع الإصابة وهو يكمل صائحا بألم:

- ذلك الصبي الأعمى كما تقول لم يعرض حياة أحدنا للخطر. قبل كل خطوة يحسب كل حالات الفشل ولكل حالة خطط انسحاب أو حماية . ذلك الأعمى يرى الخطر ببصيرته قبل وقوعه ويستعد له. ذلك الأعمى لم يشعرنا لحظة أنه قائد ونحن تابعين بل نحن الذين نخطط ونتخذ القرارات وهو يعدل ويوجه ويوفر لنا الحماية والبدائل . ذلك الأعمى حقق انتصاره على نادر دون أن تراق نقطة دم واحدة من بريء . لم تسقط دماؤنا إلا بعد مخالفتكم أوامره . لم تسل دماؤنا إلا بأيديكم.

أكمل هاني كلامه بصوته الذي يمزق الحزن فيه نياط القلوب. ويزلزل غضبه جدرها:

- بل أنتم العميان. لم تروا منذ البداية تلك اليد الخفية التي تعبث بكم. هو الذي كشفها رغم أنه بلا عيون. خرج من مسرح الأحداث وصعد إلى الأعلى والتقط الصورة من الخارج فرأى الحقيقة . رأى اليد التي تقتل وتشير والعميان يتبعون الإشارة بغير تفكير . وها أنتم تكررون نفس الخطأ . لأنكم مازلتم عميان رغم ظهور الحقيقة . لا تريدون إلا النظر في اتجاه واحد، أن طفلا أعمى يقود أبناءكم في حرب. لا يهم إن كان أذكى وأعقل منكم . لا يهم إن كان فعلا يرى أكثر منكم . ولا يهم كم حقق من نصر. ألم

يخطر ببال أحدكم كم من شخص كان يمكن أن يقتله نادر قبل أن يتدخل ابني وأبناءكم؟ أفيقوا أيها العميان . افتحوا أعينكم وانظروا إلى أبناءكم نظرة اعتزاز وتقدير . ليسوا أطفالا ولا تافهين . لا ينقصهم ليكونوا قوة لا يشق لها غبار إلا آباء ذوي بصيرة وحكمة ودين يحكمهم ويوجهون به أبناءهم إلى ما فيه نفعهم في دنياهم وأخراهم. انظروا إلى اليد الخفية التي تتحكم بكم وتوجهكم وتستغلكم بحق.

تدخل مروان وأحد الشباب يحكم وثاق أسيره:

- الحقيقة التي لا تعرفونها أن الأستاذ هاني تنازل فعلا لكل مستأجر عن العقار الذي يستأجره. وكل مؤسسات مدينة الرحمة صارت فعلا مؤسسات حكومية عامة ولم تعد مؤسسات خاصة . بدأ الإجراءات القانونية قبل الثورة ولكن الثورة ونادر عرقلاها . وما هي إلا ايام قليلة ويوقع كل واحد منكم عقد ملكيته.

صاح أحد الشباب بوجل:

- نحن نتكلم هنا وتركنا نادر . أكيد هو يهرب الآن.

صاح ناصر وسيارات الإسعاف بأبواقها المميزة تقتحم المكان:

- بل بالتأكيد عرف أن عبدالله هو خصمه الذي هزمه ولن يهرب إلا بعد قتله .

اقترب شهاب بعد أن قيد أحد الشباب أسيره وهو يصيح بفزع:

- وأين عبد الله الآن ؟ لابد أن نصل إليه قبل نادر.

التفت ناصر إلى شهاب بذهول من هذا الذي يشبهه إلى هذا الحد حتى الذراع الواحدة والصوت نفسه، في حين هتف يحيى بألم:

- من المستحيل أن نصل قبل نادر . إن عبدالله هو الذي أذن لصلاة الفجر. لا شك أن نادر كان يراقبنا عندما تسلل رجلاه بيننا وميز صوته فانطلق إليه.

استعاد ذهن ناصر ، الذي يظن نفسه شهاب، آخر أحداث استقرت في ذاكرته سام الذي احتل عقله وسيطر على جسده وحاول قتل هاني من خلاله لولا أن استطاع مقاومة تلك السيطرة والفرار بأقصى سرعة .

صاح أحد الشباب رفاق يحيى بحماس وثقة هدأت قليلا من عاصفة القلق التي اجتاحت صدر هاني :

- لم نخطو خطوة إلا وأعد لها ألف حساب . فلن يخطئ الآن لقد أعد له فخا وهو يقوده إليه.

انتفض ناصر وهو يرى في خياله شهاب يهوي بسيفه على رأسه. قبضت أصابع هاني على معصمه فجأة فالتفت إليه بفزع هاتفا مشيرا بعينه إلى شهاب:

- إنه .....

عندما التقط عيناه بعيني هاني شعر بالاطمئنان ، إن هاني يعرف . هو لم يفهم . ولكن عيون هاني تقول : (ليس هذا موطن الخطر)

قال يحيى بقلق شديد وأحد المرضين يحاول جذبه إلى سيارة الإسعاف :

- ولكننا جميعا هنا . هل سيوجهه وحده؟!

◆◆◆◆◆◆

- لم يخطو خطوة إلا وأعد لها ألف حساب . فلن يخطئ الآن لقد أعد لي فخا بالتأكيد وهو يقودني إليه.

قالها نادر لنفسه وهو يقترب من المسجد بمئذنته العالية ذات المصابيح الكثيرة المضاءة . يقترب برعب وحذر مرددا لنفسه:

- إنه مجرد طفل حقير أعمى . وها هو الأمر يخرج من يده. لن يكون بهذا الذكاء. كل أعوانه في شغل غارقون. وصار وحده الآن

دنا من المسجد وعيناه تجوبان كل شبر حوله وفوقه بتركيز شديد المئذنة بكل مراحلها وشرفاتها ، النوافذ المضيئة . كل شبر في حدود السطح ، الأشجار المحيطة بالمسجد من كل جانب . وضع قدميه على الممر الذي يقود من الطريق الرئيس إلى باب المسجد وذاكرته تستعيد صورة القصر الذي شيده في هذا المكان والذي دمره في محاولة فاشلة لقتل والده انتهت بأن أنشأ والده المسجد مكان القصر وعاش في فيلا عادية كسائر فيلل المملكة.

سحب صمام الأمان في مسدسه وقبض عليه بقوة وسبابته تداعب الزناد بتحفز يستعد لإطلاق رصاصاته مع أول صوت يريبه . وأصوات الأشجار مع الرياح توتر قلبه. تتحرك عيناه بترقب ورعب كل أرجاء المكان والهواء البارد يلسع وجهه ويشترك مع نيران الغضب في صدره في دفع نبضات قلبه لدرجة الغليان.

توقفت عيناه فجأة على شبح جالس على سلم المسجد القصير، ظنه في البداية ظلا ثم اتضح أنه شخص ، إنه هو بنفس الملابس التي رآه بها في فيلا والده هاني، مسدلا قلنسوته على وجهه ثابتا بلا أدنى حركة متكئا بمرفقيه على ركبتيه وقبضتيه أسفل ذقنه كأنه تمثال من الصخر.

اقترب متسللا دون أن تصدر قدماه أدنى صوت ، يحبس أنفاسه وهو يراقبه وعيناه تجوب كل شبر حوله خشية أن يفاجئه شخص ما. هل شعر به؟ لم يصدر أي حركة ليستنتج منها هل رآه أم لا . فلو تحرك حرك بديهية توحي أنه لم يشعر به أو حركة توحي بأنه يعلم بوجوده.

أحكم تصويب مسدسه على هذا التمثال وخاطر أنه تمثال يراود عقله . ألا يمكن أن يكون تمثالا فعلا أو دمية الغرض منها تشتيت انتباهه.

ارتجف فجأة عندما تحرك التمثال ليتكئ بمرفقه الأيمن على درج السلم

كأنه شخص شاعري يستمتع بنسيم عليل مراقبا النجوم هائما مع المحبوب .

لكنه لا يزال مطأطئ رأسه ليختفي وجهه بالكامل . أحكم نادر تصويب مسدسه وهو يفكر هل يتكلم أم يواصل اقترابه حتى يفاجئه وهو على بعد

خطوات. انتفض بفزع من جديد وإصبع متوتر على الزناد عندما أتاه صوت عبد الله بملل مصطنع:

- هل ستظل تمشي كسلحفاة عرجاء هكذا حتى تشرق الشمس؟ ليس لدي وقت لهذا . هلا أسرعت قليلا ؟ فسيحين موعد أذان الفجر الثاني بعد قليل. ولا يجوز تأخير الصلاة لبعد الشروق.

تلفت نادر حوله بوجل وهو يقول بمقت ودهشة:

- كيف شعرت بي ؟ هل أنت حقا أعمى؟ أم هي خدعة أخرى؟

ضحك عبدالله بصوت عال ساخرا قبل أن يقول دون أن يغير وضعه:

- وهل أخبرتك أني أعمى كي تعتبرها خدعة؟

اقترب نادر بحذر قائلا :

- ما أنت بالضبط ؟ شيطان؟ الصوت صوت طفل والجسم جسم طفل ولكن الكلام كلام رجل .
- ربما كان ذلك غريبا في هذا الزمان ولكن الأطفال في عصور سالفة كانوا أقوى من ذلك بكثير.
- ماذا؟
- ذكرتني الآن بقصة للحجاج ابن يوسف الثقفي مع غلام عمره عشر سنوات.

لم يرد عليه نادر وواصل اقترابه الحذر وعبدالله يتابع:

– خرج الحجاج بن يوسف ذات يوم للصيد فرأى تسعة كلاب إلى جانب صبي صغير السن عمره نحو عشر سنوات وله أغنام . فقال له الحجاج :

– ماذا تفعل هنا أيها الغلام؟

فرفع الصبي طرفه إليه وقال له :

- يا حامل الأخبار، لقد نظرت إلي بعين الاحتقار وكلمتني بالافتخار وكلامك كلام جبار وعقلك عقل بغال .!!!

فقال الحجاج له :

- أما عرفتني؟

فقال الغلام :

- عرفتك بسواد وجهك لأنك أتيت بالكلام قبل السلام .

فقال الحجاج:

- ويحك أنا الحجاج بن يوسف .

فقال الغلام :

- لا قرب الله دارك ولا مزارك . فما أكثر كلامك وأقل إكرامك .

فما أتم كلامه إلا والجيوش حلقت عليه من كل جانب . فأمرهم الحجاج أن يحملوه إلى قصره . فجلس في مجلسه والناس حوله جالسون ومن هيبته مطرقون . وهو بينهم كالأسد ثم طلب إحضار الغلام .

فلما مثل بين يديه رفع، الغلام رأسه وأدار نظره، فرأى بناء القصر عاليا،

ومزينا بالنقوش والفسيفساء وهو في غاية الإبداع والإتقان.

فقال الغلام :

- أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين؟

فاستوى الحجاج جالسا وكان متكئا وقال:

- هل حفظت القرآن؟

فقال الغلام :

- هل القرآن هارب مني حتى أحفظه .

فسأله الحجاج:

- هل جمعت القرآن؟

فقال الغلام:

- وهل هو متفرق حتى أجمعه؟

فقال له الحجاج:

- أما فهمت سؤالي؟

فأجابه الغلام:

- ينبغي لك أن تقول : – هل قرأت القرآن وفهمت ما فيه؟

فقال الحجاج:

- أخبرني عمِن خلق من الهواء؟ ومن حِفظ بالهواء؟ ومن هِلك بالهواء؟

فقال الغلام:

- الذي خلق من الهواء سيدنا عيسى عليه السلام، والذي حِفظ بالهواء سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام، وأما الذي هلك بالهواء فهم قوم هود .

فقال الحجاج:

- أخبرني عمن خلق من الخشب، والذي حِفظ بالخشب، والذي هلك بالخشب.

فقال الغلام :

- الذي خلق من الخشب هي الحية خلقت من عصا موسى ، والذي حفظ بالخشب نوح عليه السلام، والذي هلك بالخشب زكريا عليه السلام .

توقف نادر عند أول درجات السلم متأملا عبدالله بذهول غير مصدق كونه طفلا. ألقى بصره داخل المسجد وتلفت حوله ثم أعاد بصره إلى عبد الله الذي يكمل قصته كأنه لا يشعر أنه صار بين يدي نادر:

فقال الحجاج:

- أخبرني عمن خلق من الماء- ومن نجا من الماء؟ ومن هلك بالماء؟

فقال الغلام :

- الذي خلق من الماء فهو أبونا آدم عليه السلام، والذي نجا من الماء موسى عليه السلام، والذي هلك بالماء فرعون .

مد نادر يده اليسرى ببطء ثعبان يدنو من فريسته الغافلة عنه وقبض على قلنسوته وألقاها بقسوة خلف ظهرة ليرتج لها جسمه الضئيل وتنزلق يده المعتمدة بمرفقها على الدرج. عاد عبد الله لوضعه مبتسما بتهكم متابعا قصته:

فقال الحجاج:

- أخبرني عمن خلق من النار، ومن حفظ من النار.

فقال الغلام:

- الذي خلق من النار إبليس، والذي نجا من النار إبراهيم عليه السلام.

فقال الحجاج:

- أخبرني عن العقل؟ والإيمان؟ والحياء؟ والسخاء؟ والشجاعة؟ والكرم؟ والشهوة؟

تأمل نادر ملامح عبدالله بذهول من وسامته هذه المرة . وسامة ما رآها ولا تخيل وجودها ولكن دمرتها العيون. مجرد كهفين مظلمين مرعبين.

فقال الغلام:

- إن الله قسم العقل عشرة أقسام، جعل تسعة في الرجال وواحدا في النساء. والإيمان عشرة، تسعة في اليمن وواحدا في بقية الدنيا، والحياء

عشرة تسعة في النساء وواحدا في الرجال، والسخاء عشرة تسعة في الرجال وواحدا في النساء، والشجاعة والكرم عشرة تسعة في العرب وواحدا في بقية العالم، والشهوة عشرة أقسام تسعة في النساء وواحدا في الرجال .

فقال الحجاج:

- أخبرني عن أقرب شيء إليك؟

فقال الغلام:

- الآخرة .

ثم قال الحجاج:

- سبحان الله يأتي الحكمة من يشاء من عباده. ما رأيت صبيا أتاه الله العلم والعقل والذكاء مثل هذا الغلام .

ثم قال الحجاج:

- أخبرني عن النساء؟

فقال الغلام:

- أتسألني عن النساء وأنا صغير لم أطلع بعد على أحوالهن ورغائبهن ومعاشرتهن، ولكني سأذكر لك المشهور من أمورهن، فبنت العشر سنين من الحور العين، وبنت العشرين نزهة للناظرين، وبنت الثلاثين جنة

نعيم، وبنت الأربعين شحم ولين، وبنت الخمسين بنات وبنين، وبنت الستين ما بها فائدة للسائلين .

فقال الحجاج :

- أحسنت يا غلام وأجملت وقد غمرتنا ببحر علمك، فوجب علينا إكرامك. ثم أمر له بألف دينار، وكسوة حسنة، وجارية وسيف وفرس.

وقال الحجاج في نفسه :

- إن أخذ الفرس نجا، وإن أخذ غيرها قتلته.

فلما قدمها له قال الحجاج :

- خذ ما تريد يا غلام

فقال الغلام :

- إن كنت تخيرني فإنني أختار الفرس، أما إن كنت ابن حلال فتعطيني الجميع.

فقال الحجاج:

- خذهم، لا بارك الله لك فيهم .

فقال الغلام:

- قبلتهم لا أخلف الله عليك غيرهم، ولا جمعني بك مرة أخرى.

وخرج الغلام من بين يدي الحجاج سالما غانما بفضل ذكائه وفهمه ومعرفته وحسن اطلاعه.

قال نادر مستهزئا وعيناه مثبتتان على سماعات الأذن في أذني عبدالله وسلكيها يتدليان بجوار وجهه إلى داخل سترته المغلقة بإحكام:

- وهل تظن نفسك مثل هذا الغلام؟

قال عبد الله باحتقار:

- وإن لم أبلغ مبلغه إلا أني على دربه أما أنت فلا تساوي كلبا من كلاب الحجاج. ونهاية اللقاء مختلفة حتما . فالغلام خرج غانما والحجاج لم يخسر شيئا. أم أنت فلن تغادر هذا المكان حيا.

أشار إلى شجرة ضخمة بعيدة وهو يردف:

- انظر هناك . هناك حفرة ، أتراها؟ إنها قبرك.

قهقه نادر ساخر مندهشا قائلا:

- من أين لك بمثل هذه الثقة؟

أتبع كلماته بتطويق عنق عبد الله الصغير بقبضته القوية ورفعه من فوق الأرض. متابعا بمقت وشراسة:

- ما يمنعني من قتلك حتى الآن إلا أني أريد ان أعرف أين العقود وكلمة سرة خزينة الشركة.

حاول عبدالله أن يقول شيئا ولكن أصابع نادر كانت تمنع تدفق الهواء إلى صدره وتدفق الدماء إلى رأسه. فاحتقن وجهه الأبيض فصار أحمرا منتفخا حتى

كادت روحه تفارقه دون أن يحاول المقاومة وساقاه متدليان كالمشنوق بأصابع نادر الذي صرخ:

- أنت أيها الحشرة الذي فعلت بي كل هذا.

خفف ضغطه على عنقه ليسمح له بالكلام والتقاط بعض الأنفاس ليبقى حيا قليلا, فابتسم عبدالله قائلا بهدوء يتناقض مع عمره وموقفه:

- لقد أخبرتك أن أمامك فرصة للهرب حتى نلتقي . وها نحن التقينا.

تبدلت ملامحه فجأة وانعقد حاجبيه الرقيقين فوق كهفي عينيه مع شراسة وجهه. وصاح بصوت قوته وشراسته أرعبت نادر حتى أنه تخلى عنه:

- فلا فرصة لديك . لقد انتهيت.

استعاد نادر صلابته بسرعة وهو يصوب مسدسه إلي رأس عبد الله قائلا :

- فليكن . لا أريد شيئا الآن إلا قتلك . وليذهب كل شيء إلى الجحيم.

وأصدر عقله الأمر إلى إصبعه للضغط على الزناد. ودوى صوت الرصاصة كالرعد تلتها صرخة ألم نافست دوي الرصاصة من في نادر إذ اخترقت رصاصة قبضته الممسكة بالمسدس. تلاها صوت عبد الله وهو يعتدل واقفا في مواجهته ويعيد سماعات الأذن إلى أذنيه:

- أنت غبي أعمى يا نادر. هل ظننت أني سأنتظرك هنا وحدي ؟ أنا مجرد طفل أعمى ضئيل ضعيف البنية. لو كان أخي عبدالرحمن حيا الآن لاستطاع تمزيقك دون أن تملك حتى لمسه. أما أنا ضعيف مسكين. لذا أحضرت لك هدية معي بل هديتان.

التقط نادر المسدس بيده اليسرى وهو يتلفت حوله في ذعر وألم وتتوقف عيناه على ذلك الشاب في زي الشرطة الذي وثب من الحفرة التي قال عنها عبدالله أنها قبره:

- هذا أخي كريم مجدي ألا تعرفه؟ إنه ابن العقيد مجدي حسين الذي قتلته . أردت أن أقدمك له هدية تخفف عليه حزنه على أبيه.

وجه نادر المسدس نحو كريم يهم بإطلاق النار عليه بسرعة خاطفة لكن حركته لم تكتمل انطلقت رصاصة أخرى من باب المسجد لتخترق كتفه من موضع الكتف ثم ثانية وثالثة. حاول نادر التراجع أو الهرب ولكن الرابعة والخامسة والسادسة في نفس الكتف.

سقط أرضا يزحف على إليتيه بمساعدة مرفق يمناه وهو ينظر إلى يسراه التي تدلت بجواره وقد فصلت تقريبا عند جسده . رفع عينين ملأهما الرعب والألم إلى ياسر الجالس على مقعد متحرك على باب المسجد ويصوب إليه مسدس تتصاعد من فوهته الأدخنة. فهتف برعب لم يشعره

في حياته قط:

- ياسر !! مستحيل !! لقد رأيت صور جثتك أنت ووالدك بعد تفجير السيارة.

ابتسم ياسر بشماتة وبغض وهو يضغط بإبهام قبضته اليسرى زرا في يد قائمة في مسند مقعده ليتقدم به خارجا من المسجد قائلا:

- الحمد لله الذي أبقاني حيا لتكون نهايتك على يدي.

اقترب منه عبد الله وهو يقول:

- قطعت ذراع عمي شهاب منذ قليل وتركته ليموت لكي تهددني به حتى أعطيك ما تريد . فأردت أن أريك ذراعك مبتورا قبل موتك .

تراجع نادر مذعورا هاتفا بصوت باك:

- مستحيل ! أنت طفل أعمى . كيف عرفت ؟

- أنت الأعمى . ألم تر السماعات في أذني . هذه عيوني أرى بها كل شبر في المدينة الآن. أخبرني من رآك تفعل فأرسلت له أخي مروان واتصلت بالمستشفى وتم إسعافه بأسرع مما تتخيل .

بدا عبد الله لنادر شيطانا يدنو منه لينتزع روحه من جسده . واصل تراجعه مرتجفا وهو يحدق بارتياع في كهفي عينيه المرعبتين . لا يدري أرعبه منه أم من المسدسان المصوبان إلى صدره.

- عبد الله.

كانت هذه صرخة رحمة التي تهرع إليهم تشق سواد الليل بسوادها. انتفض عبد الله بفزع لأول مرة والتفت ياسر وكريم إليها بدهشة ووثب

نادر يلتقط مسدسه متحاملا على آلام كتفه المحطم بيمناه المصابة . التقطه من بين قدمي عبد الله وصوبه نحو ياسر وهو مختبئ في عبد الله. وأطلق رصاصاته وهو يهتف مستعيدا شراسته الشيطانية:

- ستدفع ثمن ذلك حياتك .

اختلطت كلماته بصوت رصاصاته. لو كان يجيد التصويب لأرداه قتيلا في لحظة. ولكن رصاصاته طاشت إلا واحدة أصابت ذراع ياسر وأخرى جبيرة ساقه اليمنى بعدها اختفى داخل المسجد بمقعده المتحرك.

وجه مسدسه نحو كريم الذي يعدو نحوه مصوبا مسدسه يخشى أن يطلق النار فيصيب عبد الله . أطلق نادر باقي رصاصاته نحو صدر كريم صارخا:

- هيا الحق بأبيك أيها التافه .

أطلق رصاصتان فقط مرت أحدهما بجوار أذن كريم والثانية اخترقت بطنه ثم توقف عن الإطلاق إذ شعر بألم حاد في مقدمة عنقه.

حدق في عبد الله الذي تراجع بثبات غريب وفي يده مدية صغيرة تتقطر منها الدماء. اتسعت عيناه في ارتياع وهو يرى الدماء تتناثر من عنقه. وضع يمناه على عنقه ليرى نهر الدماء يتدفق على ساعده.

قال عبدالله وهو يلقى المدية أرضا :

- آسف أني أفسدت ملابسك الأنيقة . لقد علمت أنك كنت حريصا كل الحرص ألا تصاب بقطرة من دماء عمي شهاب وأنت تقطع ذراعه.

رفع مسدسه نحو صدر عبد الله . الأعمى الصغير الضعيف الذي ذبحه. فانهالت رصاصات كريم على ذراعه ورصاصات ياسر على صدره.

ثم سقط ينتفض جسده بحركات لا إرادية لدقائق وياسر وكريم ينظران إليه بمقت واحتقار. ورحمة تتجاوزه دون أن تنظر إليه واحتضنت عبد الله باكية بسعادة غامرة أنستها العالم بأسره.

أدار هاني المفتاح في كونتاك السيارة ليبدأ محركها في العمل . رفع عينيه إلى وجه شهاب الجالس إلى جواره في سيارته والدموع تنهمر من عينيه . وثب ذهنه يسابقه قلبه إلى وجه ناصر الذي لا يختلف فيض أحزانه عن فيض أحزانهما ، تتلاطم فيه أمواج الإحباط مع أمواج الاحساس بالضياع والخواء. تهب عليه رياح الرعب من الغد ربما وربما من الماضي. أم هي من الحاضر الذي ليس له ملامح. ناصر الذي قضى حياته في شقاء نتيجة تجربه علمية قام بها والده عالم الهندسة الوراثية. تلك التجربة التي سعى فيها لإعطاء ابنيه بدر وسام الخلود إذ كان كلما أنجب طفلا مات بعد ولادته. وعندما ظن أنه نجح انفتحت عليه أبواب الجحيم . سعت الوكالة الأمريكية التي يعمل لديها والتي تمول أبحاثه الحصول على إنجازه الذي هو ولديه بدر وسام . هرب وهرب وهرب وهم دوما في أثره. وعندما ظن أنه نجح وتوارى في مصرفي ذلك الحي الهادئ اكتشف أن سام ليس طبيعيا إنه أشبه بحيوان مفترس يختطف الأطفال ويأكلهم . وعندما ظن أنه قد يقنعه فشل . وعندما ظن أنه قد يوقفه فشل . وعندما تعاون معه بدر وظنا أنهما سيطرا عليه وقيداه، انفجار ثم انفجار ثم نار ثم نيران تلتهم كل شيء.

التفت هاني إلى المقعد الخلفي لتلتقي عيناه بعيني هدير. لم تلتقيا حقيقة، عيناها تسبحان في الفراغ لم تصرخ ولم تبك ، دمعة واحدة سقطت ثم جف النبع. وغرق القلب في قلب محيط من الذهول . ففاض الذهول من عينيها . هل جنت ؟ هل ماتت ومازال جسمها حيا؟ أم أن الحزن فقط أثقل على كل جوارحها فعجزت عن فعل أي شيء؟ مات الطفل الذي كانت تلعب معه ،

الطفل الذي أحبته حب الأطفال محروقا أمام عينيها في حديقة منزلها . ومن نفس الموضع بعد عشر سنين تنبت زهرة تبدد أحزانها. وتبخر آلامها. ثم يخرج هو من تحتها قبل أن يكتمل نموه معرضا حياته للخطر من أجلها . وكذلك يخرج سام ولكن بعد اكتمال نموه بكامل قوته وعلمه بحقيقته وإمكاناته. فينتصر عليه سام ويقتله. هل سيعود مرة أخرى لمرحلة الكمون التي تستمر لعشرة أعوام ؟ هل يستسلم للبقاء في سجن بحجم نواته التي لا تكاد ترى بالعين المجردة لعشر سنوات ؟ مستحيل. لابد أن ينقل نواته التي هي سر حياته لجسم آخر يعيش فيه بدلا من قضاء الأعوام العشر في كمون آخر. سجن أطول من طاقته على التحمل. سجن للروح نفسها. ثم بضعة أيام يكون جسمه تحت الأرض مدفونا. سجن آخر لجسمه . قبر لا يمكنه التحرك في قيد أنملة. الجنين يتحرك في بطن أمه ، أما هو فلا . لذلك لا يمكنه الانتظار ليسقط في هذا السجن من جديد . ألقى جسمه المحتضر على أول جسم وانتقل مع دمائه المتدفقة إليه و ..... كلا ، لا يمكنه استغلال هذا الشخص. إنه صديقه هاني الذي أنقذ حياته من قبل والذي يقاتل من أجله ومن أجل تخليص الناس من وحش كسام يأكل البشر. اتخذ ركنا مظلما في عقل هاني يتابع الأحداث ويقرأ ذاكرة هاني ويتعلم منه كل ما يعرفه. عاجزا عن اتخاذ خطوة. هل يتواصل مع هاني ليخرج للحياة من جديد ؟ أم يظل مسجونا للأبد في جسم هاني.

ظل صامتا لفترة يرى من خلال عيني هاني ويسمع بأذنيه يشم ويلمس كأنما هذا جسمه هو. ثم بدأ التواصل بينهما ورفض كثيرا فكرة هاني للعودة إلى الأرض لإعادة إنبات جسمه من جديد. لم يغير رأيه إلا بعد محاولة نادر الأولى لقتل أبيه حين واجه هاني القتلة الملثمين وحده ثم حارس جابر ثم سام الذي

احتل جسد شهاب وسيطر عليه . هنا فقط قرر أن يخرج للدنيا . فلو كان موجودا جوار هاني لكان أفضل. فلقد كاد سام يقتل هاني لولا مقاومة شهاب لسيطرته. واضطر لتحمل سجن الإنبات من جديد. ما هونه عليه إلى قرب هدير فلقد أخبرها هاني بموضعه قبل أن تلقي الشرطة القبض عليه. ولأنه يجهل كل شيء عن نفسه وعن تجربة أبيه لأن نموه الأول لم يكتمل فخرج بدون ذاكرة تقريبا. فقد خرج هذه المرة بنفس جسم هاني بكل تفاصيله وملامحه الخارجية والداخلية حتى مهاراته وإمكاناته العقلية وحتى ذاكرته. وكعادته منذ وعى على الدنيا لا تكاد حياته تبدأ حتى تنتهي وكأن أباه عندما أراد أن يعطيه سببا ليحيا من جديد ما أعطاه إلا موتا تلو موت وسجنا يتلوه سجن. وكأنه وضعه بيديه في طريق ما فيه لحظة هناء إلا لتكون بداية لطريق من الشقاء فموت فسجن فـ .....

انتصر عليه سام مجددا وقتله ولكنه لم يستسلم هذه المرة انتقل بمساعدة هاني إلى جسمه الذي أنبته هو كجسم شهاب في خطة محكمة للقضاء على هاني . وينتصر عليه لأول مرة في حياته في معركة نواة لنواة داخل الجسم المشابه لشهاب . ويتمكن من تدمير نواة سام وسيطر على جسمه. وانتهى أمر سام تماما. واستقر هو في ذلك الجسم باسم ناصر عامر ، كان أخا توأما لهاني مات صغيرا.

ولأول مرة في حياته ينعم لفترة طويلة . تزوج هدير وعاشا عشر سنوات أو يزيد باستقرار وهناء حتى ظهر نادر من جديد. وتمكن من تدمير نوته التي هي سر حياته. استعاد وعيه ليجد نفسه لا يحمل إلا ذاكرة شهاب . لا يشعر إلا أنه

شهاب. لا يعرف بدر ولا ناصر. حتى بعد ما شرحوا له الأمر كله لم يستطع تقبله ولا تخيله . لا يستطيع أي شخص أن يقنعك أنك لست أنت. ومن ثم رفض الرحيل معهم . قرر البقاء وحده . فليبدأ حياة جديدة بعيدة عن كل ما يمت بصلة للماضي . وهذا الذي دمر هدير . فهو حياتها بمعنى الكلمة ، سُلبت منها في شدة فرحتها بعد نجاح عمليتها الجراحية وعودتها حاملة أمل أن تُنجب منه فتركها. لا يشعر بها إلا كما يشعر شهاب الذي يحب منار زوجته وأخت هاني .

نقل هاني عينيه من عيني هدير الذاهلتين السابحتين في الفراغ بجمود إلى وجه شهاب الحزين وهو يجفف دموعه قائلا :

- ألن تتحرك بالسيارة . لقد طالت وقفتك.

ضبط هاني ذراع السرعة وهو يستمع إلى منار الجالسة بجوار هدير تقول لعبد الله الجالس بينها وبين أمه رحمة تغالب الحزن الذي احتل كل حرف من حروفها:

- ما هذا الكتاب الذي تقرأه يا عبد الله؟

أجابها دون أن تتوقف أنامله عن تتبع الحروف المطبوعة بطريقة برايل على الصفحات البيضاء في الكتاب الذي يحمله على فخذيه:

- (حركة الأرض ودورانها، حقيقة علمية أثبتها القرآن) لـ (محمد علي الصابوني).

تحركت السيارة ورحمة تلقي نظرة وداع بدموع منهمرة على منزلها الذي شهد أسعد مرحلة في حياتها. بل المرحلة الوحيدة التي لقيت فيه السعادة.

قالت منار بتعجب وهي تتابع حركة أنامل عبدالله السريعة على النقاط البارزة:

- أليس هذا الموضوع كبيرا عليك يا عبد الله.

قال هاني في نفسه وهو يضغط دواسة الوقود ليزيد من سرعة السيارة:

- لو تعلمين ما فعل ما سألت مثل هذا السؤال.

أجابتها رحمة محاولة الهرب من ذكرياتها التي تجذبها إلى حيث كانت:

- لم يقرأ عبدالله أبدا كتابا يتوافق مع سنة. وكأنه .....

صمتت لبرهة تبحث عما كانت تريد قوله فقال شهاب بصوته الباك كصوتها:

- القراءة ليس لها سن معين . عمرك في القراءة يقدر بالكتب التي قرأت لا بالسنين التي مرت عليك.

قال عبدالله بهدوء :

- أنا أقرأ ما أستمتع به وأراه يضيف علما جديدا لعقلي.

انحرف هاني بالسيارة على الطريق الرئيس متجها إلى بوابة المملكة الضخمة وعيناه تضيق بتركيز شديد. حشد ضخم من البشر يسد الطريق تماما. فانقبض قلبه.

- ما هذا يا هاني ؟ هل هي مظاهرة جديدة؟

انتبهت رحمة ومنار فتوترت الأخيرة وهي ترفع رأسها أما الأولى فانتفضت بارتياع وهي تحتضن عبدالله وتضمه إلى صدرها بفزع. أما هدير فكانت بكل كيانها في عالم آخر لا يعلمه إلى الله. وأرهف عبدالله سمعه يحاول التقاط الأصوات التي بدت خافتة مختلطة ولكنها ليست غاضبة أو ثائرة فقال مربتا على أصابع أمه بيده الرقيقة:

- اهدئي يا أماه إنها ليست مظاهرة ، إنهم فقط أتوا لتوديعنا.

فتحت عينيها الفزعتين لتحدق في الجمع الذي تقترب منه السيارة قائلة بلا وعي وأمل:

- حقا !

أكد هاني قوله قائلا والرؤية تضح رويدا رويدا:

- يبدو أنه محق يا رحمة. لا داعي للفزع.

لم يكن واثقا من قوله ، أراد فقط أن يطمئنها . وما كان ليخدعها بذلك . هي تجيد قراءة خلجات قلبه من بين حروفه على الرغم من ثباته وسيطرته على مشاعرة.

لكن مع اقتراب السيارة كانت قلوبهم تطمئن أكثر. حتى توقفت أخيرا أمامهم مباشرة . ترجل هاني وشهاب من السيارة وهاني ينقل عينيه بين الوجوه بدهشة قائلا:

- ماذا حدث ؟ لماذا جئتم هنا؟ ينبغي أن تكونوا في المستشفى الآن.

كان يوجه كلامه ليحيى ومروان وكريم وندى ورفيدة ورفاقهم. فأجابه عبدالحميد:

- أصروا على منعك من الرحيل.

تطلع إليه هاني بدهشة لحظات قبل أن يقول بلوم:

- وأنت ؟!

طأطأ رأسه ولم يجبه للحظات قبل أن يتمتم منكسرا:

- لقد أخطأت ولكن.....

صاح هاني بقسوة:

- لقد أخطأت ولكن قتلت أمي وقتل أخي وابني وعبدالله بيك والعقيد مجدي وغيرهم عشرات. لقد أخطأت وكدت تكرر نفس المذبحة وهذه المرة كانت ابنتك ستكون الضحية لولا أن رجل نادر خشي أن يذبح كما ذبح مرتكبي المذبحة الأولى . هذا فقط ما انقذ ابنتك ورفاقها. اعترافك بالخطأ لا يرفع عنك الوزر.

ربت شهاب على ظهره بيده الواحدة قائلا بقلق:

- اهدأ يا هاني . ترفق بالرجل . لقد انتهى .....

قاطعه هاني بانفعال جارف:

- لم ينته شيء بعد . الجراح لم تندمل بعد. الآلام لم تخفت بعد.

تقدم يحيى إلى الأمام خطوة وهو يهتف:

- ولكننا انتصرنا. نجحنا في تطهير مدينتنا من الفساد وستعود كما كانت إن شاء الله.

هم بقول شيء آخر لولا قاطعه هاني بحسرة ودمعة تفر من عينه:

- الأموات لا يعودون كما كانوا. والفساد لا ينتهي بموت المفسدين.

مزقت نظرته نياط قلب يحيى . تلك النظرة يعرفها جيدا نظرة أستاذه عندما يخيب ظنه بتلميذه. تلك النظرة هوت على قلبه كصاعقة . أشعرته بفشله . اتسعت عيناه في فزع وهو يحدق في عيني هاني بعدم تصديق وهو يقول بلهجة من خاب أمله:

- لأول مرة أشعر أني معلم فاشل.

شاركت ندى يحيى في انفعالاته بيد أنها كانت أكثر ظهورا على ملامحها ودموعها تنساب على وجنتيها بعد أن بللت عدسات نظارتها. لأول مرة في حياتها ترى دموع معلمها . ولأول مرة ترى مشاعره تطغى على إرادته. أما اعترافه بفشله كمعلم فكان طعنة نجلاء في قلبها فأقبلت عليه تهتف وقد نست آلام كتفها المصاب برصاصة:

- لا تقل هذا يا أستاذ هاني . أنت لم تفشل، بدليل ما حققناه . لقد غلبنا نادر وجيشه . لقد أنقذناك و .....

لم تتغير نظرة الإحباط في عينيه وهما يلقيان سهامهما في عينيها مباشرة:

- لقد فشلت, بدليل ما حققتموه.

تطلع إليه الجميع بدهشة وعدم فهم . لا يمكنهم تحديد الخطأ . الصمت يغلف الآذان والقلوب إلا من صوت الرياح مع أوراق الشجر على جانبي الطريق، شقه صوت هاني بغضب محمل بحسرة:

- ظننت أنكم ستفكرون بنفس تفكيري وتسلكون نفس الدرب.

أجابته عيونهم : – أولم نفعل؟

- حياتي ليست أغلى من حياتكم كي تضحوا بها من أجل إنقاذي.

قالت رفيدة والدموع تغرق وجهها وفي لهجتها عناد طفولي:

- بل تستحق. حياتك تستحق أن نضحي بحياتنا من أجلك.

تطلع إليها بإشفاق أبوي قائلا:

- كلا يا صغيرتي. حياتي لا تختلف قيمة عن حياتك ولا حياة أي إنسان علا شأنه أو قل. بل والله إني لأتمنى الموت على أن يصاب أحدكم بأذى.

قال مروان وهو يدنو منه:

- ولكننا جميعا بخير يا أستاذ هاني. وأنت كذلك بخير.

صاح هاني في وجهه بغضب مخضب بحزنه:

- كلا.

جمدت صيحته مروان في مكانه. بل جمدت الأنفاس في صدور الجميع وهو يتابع بنفس الغضب المخضب بالحزن:

- أنتم قتلتم أناسا دون محاكمة .
- هم قتلة . ومن قتل يقتل.

قالها شخص ما في الجمع. فأجابه هاني بنظرة نارية جعلته يتراجع للخلف نادما أنه تفوه:

- ليس بالهوى . يوجد قانون وهيئات مختصة بالبحث والتحقيق والحكم والتنفيذ. ليس لأنها معطلة ينصب كل منا نفسه قاضيا وجلادا. لقد وقفت مرة وبسبب نادر نفسه أمام أستاذي الكابتن عادل محاربا وكان مصرا على إصابتي. وإصابتي كانت تعني انتصار نادر علي. فهل كان هذا مبررا لقتله بحجة الدفاع عن النفس.

ابتلع لعابه وهو ينقل عيون ثائرة بين وجوههم وما من صوت إلا صوت الرياح قبل أن يقطعه بصوته العالي الثائر:

- لقد اختطف نادر ابنته وهدده بقتلها. ما أدراكم أنه لم يفعل المثل مع من قتلتموهم؟ ما أدراكم انه لم يخدعهم كما حاول مع مروان وأقنعهم أنني ومن قتلوهم مجرمون أشرار . ففعلوا ما فعلوا مقتنعين أنهم يطهروا وطنهم من الفساد كما فعلتم أنتم بالضبط. لو قلتم أنهم قتلوا فيستحقون القتل فأنتم تحكمون على أنفسكم بالإعدام.

لهذا جعلت الشرطة والنيابة والقضاء. حتى لا يقتل كل منا أخاه بظن.

انهار فجأة على ركبتيه بعاصفة من البكاء اجتاحت روحه وهو يصرخ:

- أنا السبب . انا السبب. كل هذه الأرواح في عنقي . كل هذه الدماء في عنقي . لو تنازلت له عن بطولة الجمهورية عندما رأيت أسلوبه غير الشريف . لو لم أخض معاركي معه ما كان حدث كل هذا. لو لم أظهر أمامه في هذه المدينة وتركتها له من البداية ما تسبب في تلك المقتلة العظيمة . أنا السبب.

قالها قبل أن يدفن وجهه في كفيه وقد أحالت دموعه وهج الظهيرة ظلمة وكأنما سقط في بئر سحيقة . يرى كل الأرواح التي زهقها نادر أتته تطالب بحقها الذي تسبب في ضياعه.

- كلا يا حبيبي.

أتاه صوتها كطوق نجاة.

- أنت ما حاربت نادر قط.

كبلسم مس روحه. فتراجعت نيران الذنب أمامه. كملاك هي همساتها رحمة تنقشع أمامها كل ظلمة. وضعت راحتها الملائكية على ظهره ، على قلبه تمتص مخاوفه. وأنامل يدها الأخرى ترفع ذقنه لأعلى فيسري دفئها رغم قفازها في خلاياه ثم يتسلل إلى روحه يهدئ روعها.

- دائما كنت تدافع وتحمي غيرك . أنت لم تحاول الهجوم قط.

التقت عيناه بعينيها الزيتونيتين. لتنسل روحه من جسده وتغوص في بحورهما وتحلق في سمائهما.

- ما سعيت لمصلحة نفسك قط. كل ما حدث بقدر الله .

عانقت أنامل عبدالله راحته وهو يقول:

- قال تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ....) . لقد أخطأنا. لقد علمتنا الكثير. ولكن لم نمر بالخبرات اللازمة ليثبت هذا العلم. وها قد تعلمنا وندمنا.

أمسكت منار يده الأخرى وهي تجذبه ليقف قائلة بصوت باك:

- أنت بنيت وغيرك يهدم وأبناءك حاولوا مساعدتك في البناء ومقاومة الهدم فأخطأوا وأصابوا. خسرنا الكثير وكسبنا أيضا كثير.

قال وهو يستجيب لها ورحمة ، وهما يعيناه على الوقوف بصوت بدأ الأمل يتسلل إليه:

- ولكن قتل الكثيرين بسببي. بسبب معركتي مع نادر.

وقفت هدير جوار عبدالله قائلة ودموعها تتفجر من عينيها:

- لست مسئولا يا أبي عن جرم الآخرين. أنت تزرع خيرا يجبي به آلاف وأتى شيطانا ليقتلك ليمنع الخير الذي تزرعه فقتل عشرات . أنت إن شاء الله غير موزور في ذلك .

لقد تكلمت أخيرا . لقد بكت أخيرا . لقد عادت للحياة كي تمنعه من السقوط.

برزت ندى خلف عبدالله وهدير وهي تقول:

- لقد أخطأنا حقا لكن بدافع حبنا لك وتقديرنا لفضلك علينا. لقد أخطأنا بدافع رد الحق لأهله والزود عن المظلوم. لقد اخطأنا ولكن لمنع فساد عظيم كان سيعصف بنا جميعا.
- عاقبنا كما تشاء . مستعدون لأي عقاب.
- لكن لا ترحل عنا.
- نحتاج علمك ونصحك. نحتاج دعمك وتوجيهك.
- لم تكن بيننا فضللنا . فلا تتركنا.

تطلع إليهم هاني جميعا ورحمة تجفف دموعه بأناملها ، وكأن أناملها لا تزيل الدموع فقط ولكن تعيد إليه صلابته، تعيد ترميم روحه المكسورة .

فاستعاد صرامته وحزمه قائلا:

- لقد اتخذت قراري . أنتم أبنائي جميعا وإخواني . أحبكم حقا كحبي لابني هذا.

ثم أردف بمرارة وحزم:

- سأرحل. هذه المدينة جرح كبير في روحي. لن أعود إليها حتى يندمل. ولقد علمتكم أن تكونوا معلمين لأنفسكم. لا تحتاجوني بعد الآن. سأترككم. وأتمنى عندما أعود أن أجد ثمرة ما غرست فيكم. أتمنى عندما أعود ألا أجدكم صحراء جرداء. أتمنى عندما أعود أن أجدكم جنة خضراء. عندها أعلم أني نجحت فيكم.

تمت بحمد الله

أبوهاني

رضا محمود

15 أغسطس 2020 م * 25 ذو الحجة 1441 هـ

الأعمى

ننسى جميعا أننا أمة واحدة، لا فرق فيها بين عربي ولا أعجمي ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح. كلنا يصيبنا العمى إلا على ما يتفق مع رغباتنا، لقد أصابتنا الفُرقة بالعمى؛ لا توجد فرقة من الملائكة وفرقة من الشياطين. كل إنسان بذاته داخله الخير والشر فما بالك بالمجتمعات.

تصميم غلاف : مروة طارق

2023-3029